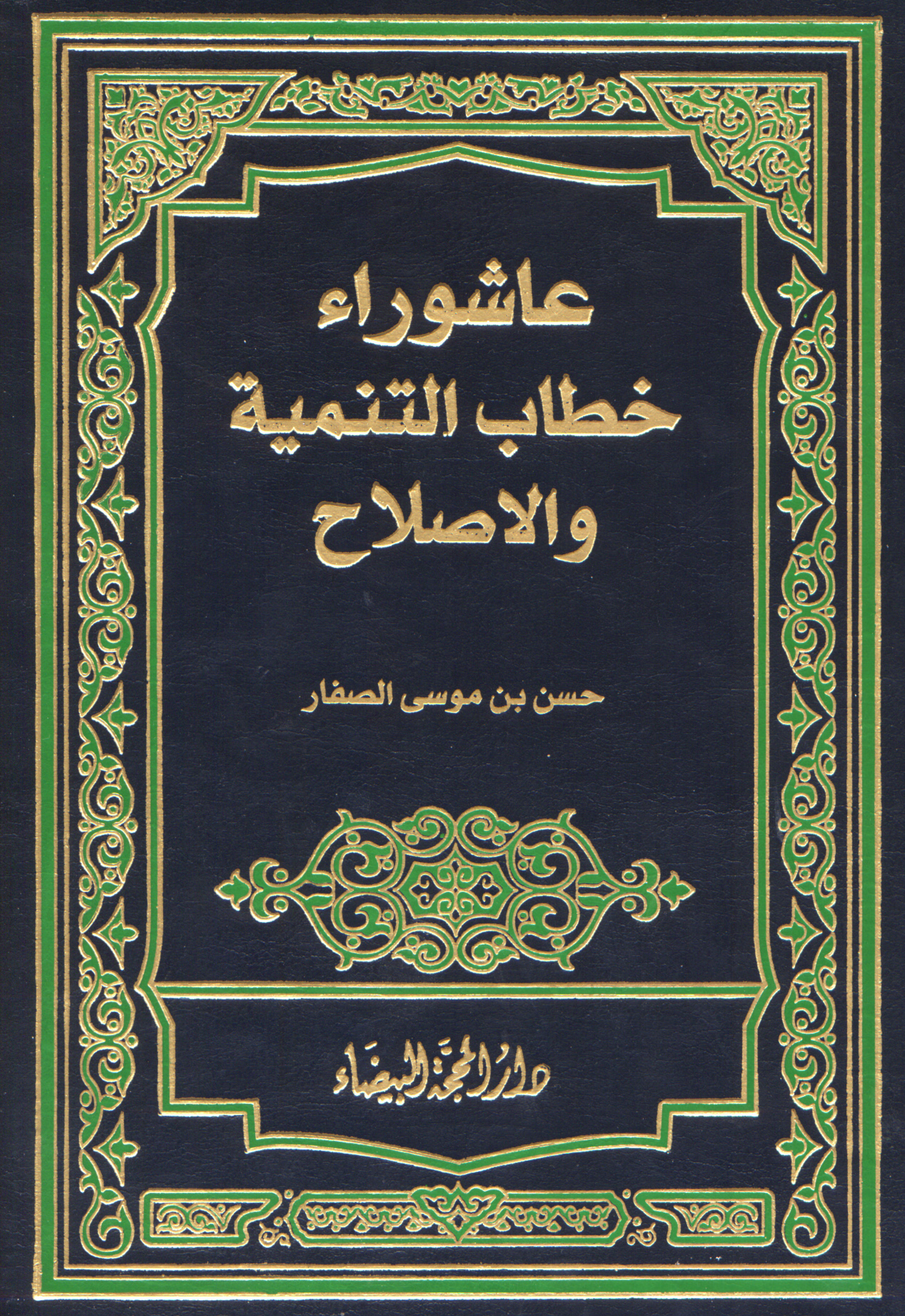


عاشوراء
خطاب التنمية
والاصلاح
حسن بن موسى الصفار
دار المحجة البيضاء

عاشوراء

خطاب التنمية والإصلاح

حسن بن موسى الصفار

عاشوراء

خطاب التنمية والإصلاح

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ-٢٠١١م


بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّٰه ربّ العالمين اللهم صلِّ على محمد خاتم الأنبياء وتمام عدة المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

مقدمة

يتيح موسم عاشوراء في المجتمعات الإسلامية الشيعية أفضل فرص الحراك الثقافي الاجتماعي، حيث ينخرط معظم أبناء المجتمع الشيعي ذكورًا وإناثًا من مختلف الشرائح والأعمار، في برامج الاحتفاء بذكرى استشهاد أبي عبد اللّه الحسين بن علي عليه السلام.

هذه البرامج التي تتم في أجواء مفعمة بعواطف الولاء لأهل البيت عليهم السلام، والحزن والتأسي لآلامهم الفظيعة في يوم عاشوراء.

مما يعزز الهويّة الدينية، ويؤكد الانتماء الاجتماعي، وينتج نشاطًا وفاعلية ثقافية لا نظير لها في المجتمعات الأخرى.

وتشكل المجالس الحسينية التي يتحدث فيها الخطباء محورًا أساسًا في برامج عاشوراء، إلى جانب مواكب العزاء، وموائد الإطعام، والفاعليات المختلفة.

ففي هذه المجالس التي تستمر لمدة عشرة أيام، يحتشد الناس مصغين لما يطرحه خطيب المنبر الحسيني، ونفوسهم مهيأة للتفاعل والتأثر بالخطاب، نظرًا لأجواء المناسبة الولائية العاطفية ذات العمق الديني الكبير.

وهذا يعني توفر أفضل الفرص للارتقاء بوعي المجتمع، ورفع مستوى إنتاجيته

وأدائه في مختلف مجالات الحياة، وإمكانية المعالجة والإصلاح لأي ثغرة أو نقطة ضعف يعاني منها المجتمع، وتوجيه الرأي العام نحو ثقافة التنمية والبناء، وخدمة القضايا المصيرية للدين والوطن.

إن المجتمع الشيعي جزء لا يتجزأ من مجتمعات الأمة الإسلامية، ومن شعوب المنطقة، والتي تواجه تحديات كبيرة على صعيد الوضع الداخلي والخارجي، فإنتاجية الفرد في مجتمعاتنا متدنية، وروح العمل الجمعي ضعيفة، والخلافات منتشرة، والاهتمام بالشأن العام محدود.

وعلى المستوى الوطني في معظم الأوطان الإسلامية هناك تعثر في مسيرة التنمية، وغياب للمشاركة الشعبية، وانتهاكات لحقوق الإنسان.

كما تواجه مجتمعاتنا خطر الانقسام والصراع الطائفي، وتأثيرات الانفتاح الإعلامي والثقافي، مما يهدد قيمنا الدينية، وأنماط السلوك والأخلاق لدى أجيالنا الناشئة.

فكيف تستفيد مجتمعاتنا من موسم عاشوراء، وتستلهم من روح النهضة الحسينية ما يساعدها على مواجهة هذه التحديات؟

إن ذلك يعتمد بالدرجة الأساس على أداء خطيب المنبر الحسيني، فإذا كان الخطيب مدركًا لهذه التحديات، مهتمًا بمصلحة الدين والمجتمع، واعيًا بأهداف ثورة الإمام الحسين، فسينعكس ذلك على خطابه، ليكون خطابًا رساليًا يستهدف الإصلاح والتغيير.

لقد أعلن الإمام الحسين عليه السلام منذ اليوم الأول لانطلاقة ثورته، عند خروجه من المدينة المنورة، أن هدف حركته هو الإصلاح في الأمة، حيث قال عليه السلام: «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر».

وهذا ما يجب أن يضعه الخطيب الحسيني نصب عينيه، فتكون قضية الإصلاح هي

محور خطابته، ومرتكز طروحاته.

إصلاح الفرد المسلم ليكون ملتزمًا بدينه ناجحًا في حياته.

وإصلاح العائلة في تحقيق الانسجام الداخلي وانجاز التربية الصالحة.

وإصلاح المجتمع وحماية أجوائه من الانحراف والفساد، والتكافل والتضامن بين أفراده ومكوناته.

وإصلاح الدولة برعاية حقوق المواطنين وتحقيق التنمية الشاملة. وإصلاح الأمة بالتأكيد على وحدتها ومواجهة فتن الصراعات والانقسامات.

وحيث وفقني اللّه تعالى للانخراط في سلك خدمة المنبر الحسيني، فقد سعيت واجتهدت للالتزام بهذا الهدف والتوجه في خطاباتي ومحاضراتي، وكنت أحرص على استشارة ذوي الرأي من العلماء والمثقفين والناشطين في المجتمع قبيل موسم عاشوراء، لتحديد أولويات الطرح والخطاب بما يخدم قضية الإصلاح الاجتماعي والوطني.

وعلى ضوء تلك الاستشارات أحدد عناوين محاضرات الموسم، ثم أشرع في التحضير لموضوعاتها مستعينًا ببعض الإخوة الأعزاء.

وبفضل اللّه تعالى كنت أجد الكثير من التفاعل والاهتمام من قبل المستمعين بما تتضمنه تلك الخطابات من طروحات وأفكار، وربما كانت سببًا ودافعًا لبعض المبادرات والأنشطة الاجتماعية، وقد يثير طرح بعض الأفكار نقاشًا في الوسط الاجتماعي، مما يثري المعرفة، وينضج الرأي، ويطور الفكر والثقافة الاجتماعية.

كما تصلني أصداء طيبة من متابعين لهذه الخطابات عبر البث الفضائي في مجتمعات وبلدان أخرى.

إن مما يبعث على الأمل بمستقبل أفضل ودور اكبر للمنبر الحسيني في واقع الأمة المعاصر، وجود شريحة من الخطباء الرساليين الواعين، الذين يفخر المنبر الحسيني

بطروحاتهم العقلانية الموضوعية البعيدة عن التشدد والغلو، والداعية إلى التنمية والإصلاح، والمهتمة بنشر ثقافة التسامح والوحدة، مما يعكس الصورة المشرقة المضيئة لفكر وسيرة أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾.

وبين يدي القارئ الكريم مجموعة من المحاضرات التي ألقيتها في موسم عاشوراء من الليلة الأولى إلى الليلة الثالثة عشر من شهر محرم الحرام لعام ١٤٢٨هـ، الموافق ١٩ـ ٣١ يناير ٢٠٠٧م في مجلس الشيخ محمد صالح المبارك بالقطيف، راجيًا من الله تعالى أن يتقبلها بأحسن القبول، وأن يجعل فيها نفعًا وفائدة للقراء.

كما أتقدم بجزيل الشكر وخالص الدعاء للإخوة الأعزاء الذين ساعدوني في التحضير لهذه المحاضرات، وفي تسجيلها، وبثها، وكتابتها، وإعدادها للنشر، وأخص بالذكر الأستاذ مبارك الطيب مسؤول المكتبة، والأستاذ عبد الباري الدخيل، المسؤول الثقافي في المكتب، والسيد حسين المقبّل مسؤول التصوير والتسجيلات، والأستاذ حسين الشيخ الذي قام بكتابة المحاضرات وتنقيحها، أسال الله تعالى لهم جزيل الأجر والثواب ومزيد الخير والتوفيق.

والحمد لله ربّ العالمين.

حسن موسى الصفار

١١ رجب ١٤٣٢هـ

١٣ يونيو ٢٠١١م

عاشوراء من أيام اللّه

- التذكير بأيّام اللّه
- عاشوراءِ نموذجًا

❞ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سورة إبراهيم، الآية: ٥]. ❝

□ التذكير بأيّام الله

لفهم المقصود بِـ «أيام الله» الوارد في الآية الكريمة، لا بدَّ من التمهيد لذلك ببحث لفظة «اليوم» علميًّا وعرفيًّا.

تحديد معنى اليوم

اليوم ـ علميًّا ـ: يعرّف بأنه المدّة الزمنيّة التي تستغرقها الأرض للدوران حول نفسها، والتي تمتدّ لأربعٍ وعشرين ساعة.

بينما اليوم ـ عرفًا ـ: ما يقابل الليل، حيث يبدأ اليوم من شروق الشمس وينتهي بغروبها. فيقال في كثير من أدبيات العرب: اليوم والليلة، و«مسير يومٍ وليلة». وقد استعمل هذا المعنى في بعض الأحاديث الشريفة. كما صنّفت بعض كتب الأدعية فيما يسمّى بِـ «أدعية اليوم والليلة»، بينما في الحقيقة فإن الليل يقابله النهار، ومن الليل والنهار يتكون اليوم الواحد.

بداية اليوم

اختلفت الشعوب والمجتمعات في تحديد بداية اليوم:

- فالعرب ـ وبالتالي عند المسلمين ـ واليهود يعتبرون أن بداية اليوم من غروب

الشمس، فتكون بداية الليل هي البداية الفعلية لأي يوم، ليكون غروب شمس ذلك اليوم هو آخر أوقاته، والساعة ما قبل الغروب هي آخر ساعات ذلك اليوم.

- بينما ما عليه الرومان والأوروبيون الآن أن بداية اليوم تكون من منتصف الليل.

نسبة الأيام إلى الله تعالى

في الآية الكريمة توجيه إلهي للنبي موسى عليه السلام بأن يذكّر قومه بِـ «أيام اللّه»، فما المقصود بهذه الأيام؟

الأيام من ناحية زمنية كلها أيام اللّه، فهو سبحانه خالق الزمان والمكان، وخالق كل ما يحيط بنا في هذا الكون الفسيح.

ولكنّ نسبة أمرٍ مّا إلى اللّه تعالى يدلّ على تشريفه وتعظيمه، وذلك كنسبة بعض الأمكنة للّه، كالمسجد الذي يطلق عليه أنه بيت من «بيوت اللّه». وكذلك شهر رمضان الذي يطلق عليه أنه «شهر اللّه».

وقد اختلف المفسّرون في المقصود بِـ «أيام اللّه» الواردة في الآية الكريمة على ثلاثة أقوال:

١. فقال بعضهم إن «أيام اللّه» هي تلك الأزمنة والأيام التي انتصر اللّه تعالى فيها لأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، وذلك لما تحقق فيها من عزّة لدين اللّه ونصر لأوليائه ولقيم الحق. وعلى هذا يكون معنى الآية: ذكرهم بأيام انتصارات الأنبياء والمؤمنين على أولئك الطغاة المعاندين.

٢. بينما يرى بعض المفسرين أن المقصود بِـ «أيام اللّه» تلك الأيام التي حلّت فيها نقمة اللّه وغضبه على الكافرين الظالمين الذين كانوا يصرّون على معاندة ومناوأة أنبياء

اللّه وعباده الصالحين، وذلك لما في هذه الأيام من ظهور لمقدرة اللّه وبطشه ونكاله بهؤلاء الظالمين المعتدين في الأرض.

٣. ورأى آخرون أن المعنى أشمل من هذين الموردين، فكل يوم حصل فيه حدث مصيري في تاريخ البشرية أو تاريخ مجتمع من المجتمعات فإن ذلك اليوم يعتبر من أيام اللّه، وذلك لما في هذه المناسبات والأيام من عِبَر ودروس ومواعظ يتعلّم منها الإنسان وتتعظ منها الشعوب والمجتمعات.

وعلى هذا الرأي يكون معنى الآية الكريمة أن اللّه تعالى يوجّه نبيّه موسى عليه السلام ويأمره بأن يذكّر قومه بتلك الأحداث والمواقف التي حصلت فيها تطوّرات مهمّة وتحوّلات مصيرية في تاريخهم، كانتصارهم على الطاغية فرعون حينما أهلكه اللّه تعالى مع جنوده.

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يخطبنا فيذكّرنا بأيام اللّه»[١].

وهذا يدلّ دلالة واضحة على أن هذا التعليم الربّاني ممتدّ مع بقية النبوّات، ليكون سِمَة بارزة في حياة المجتمعات المتديّنة، يتذكّر أفرادها ومجموعاتها تلك الأيام التي يجد فيها الإنسان ما يتّعظ به ويفيده في حياته العملية، وقال الفخر الرازي: إنه يعبر بالأيام عن الوقائع العظيمة التي وقعت فيها، يقال: فلان عالم بأيام العرب. ويريد وقائعها[٢].

إقامة الذكرى عرف اجتماعي

وقد أصبح متداولًا ومعروفًا اليوم في المجتمعات البشرية أنها تهتمّ بأيام ذات أحداث مصيرية وتاريخية مهمّة.

---

(١) أحمد بن حنبل. مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج١، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، (بيروت: عالم الكتب)، ص٤٥٦، حديث١٤٣٧.

(٢) فخر الدين الرازي. التفسير الكبير، ج١٩، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص٨٤.

فأغلب الدول تحتفي بيوم استقلالها وتحرّرها من نير الاحتلال الأجنبي، وأصبح هذا الأمر تقليدًا دوليًا، لا تكاد ترى دولة في العالم لا تحتفل بيوم استقلالها، وتجعله يومًا وطنيًّا ويومَ عطلة. كما أن لكل دولة أو أمّة من الأمم أيامًا تحتفي بها رسميًّا وشعبيًّا. فالفرنسيون ـ مثلًا ـ يحتفلون بيوم سقوط الباستيل، ذلك السجن الذي كان رمزًا للظلم والطغيان.

وقد تعارفت بعض المجتمعات البشرية على تخصيص بعض الأيام لتكريس وتأكيد بعض القيم والاهتمامات الجيّدة، وذلك مثل يوم «عيد الأم». الذي هو عرف وتقليد قديم عند المجتمعات الأوروبية من القرن السابع عشر الميلادي، كيوم يتذكّر فيه الناس فضل الأم وتضحياتها ويجدّدون عهد التقدير والاحترام للأم، لما تتحمّله من عناء وبما تفيضه على الأبناء من محبّة وعطف في الحمل والرضاع والتربية.

أهمية التذكير بأيام الله

للتذكير بالأيام المفصلية في حياة كل أمّة أهمية عظيمة تنطبع على واقع الأمة ومستقبلها، وذلك:

١. من أجل أن ترتبط المجتمعات البشرية بتاريخها وتستفيد من التجارب والدروس والعبر التي حصلت في تلك الوقائع والأحداث السابقة، وإلاّ لو لم يكن هذا التركيز لكانت معرفة تلك الوقائع خاصّة بأولئك المعنيين بأمور التاريخ والأبحاث التاريخية فقط. لذلك فإن إعلانها والتذكير بها وطرحها بشِكْل عام يلفت أنظار الجميع، وبالتالي يستفيد الجميع من عبرها وتجاربها.

٢. ومن ناحية ثانية تكون إقامة ذكرى هذه الأحداث تخليدًا لمن قام بتحقيقها، فالبطولات التي تأسست عليها حضارات الأمم والشعوب يقف وراءها أبطال، تكون هذه الاحتفالات تخليدًا لذكراهم وتلمُّسًا لمواقع البطولة والتميّز لدى هؤلاء الأفراد أو هذه المجموعات.

برامج التذكير بأيام الله بين المنع والقبول

في الآية القرآنية الكريمة يأمر اللّه تعالى نبيّه موسى ﷷ بتذكير قومه بأيام اللّه، فالقرآن هنا لم يضع كيفية معيّنة بها يتحقّق هذا التذكير، ولكنّ ما عليه كثير من الأمم والشعوب أن يتم ذلك عادةً من خلال الاحتفال الشعبي، وما يصاحب ذلك من إدخالٍ لبعض التقاليد والأعراف في إحياء هذه المناسبات التي ـ غالبًا ـ ما تقام سنويًّا.

والاحتفاء بالمناسبات الدينية أو الاجتماعية بهذه الطريقة قد تحفَّظت عليها بعض المدارس الإسلامية، وهي المدرسة السلفية، فهم يرون أن الاحتفال بشِكْل منتظم ومبرمج بأي مناسبة ـ تاريخية أو اجتماعية أو دينية ـ غير مشروع وبدعةً في الدين.

ولذلك كان هناك ممانعة في الاحتفال باليوم الوطني في المملكة داخل البلاد ضمن مظاهر رسمية، فقد كان ذلك ممكنًا في سفارات المملكة في الخارج، ولكن لم يكن ممكنًا بسبب التحفّظ الديني الذي كان يبديه بعض علماء هذه المدرسة.

ولكن حينما أصبح هناك ضرورةَ أن يعيش الناس في هذا البلد الانتماء إلى وطنهم وأن يشعروا بقيمة هذا الكيان وحبّه وأن تكون هناك هويّة مشتركة يجتمع فيها المواطنون ويلتقون فيها عاطفيًّا ما عادت تظهر تلك المعارضة التي كانت في الماضي.

وهذا الرأي (التحفّظ في إقامة الاحتفالات الدينية أو الاجتماعية أو التاريخية) يبقى رأي مدرسة معينة، والغالبية الساحقة من المسلمين وفقهائهم لا يرون هذا الرأي، ونجد ذلك واضحًا في إقامة ذكرى المولد النبوي الشريف الذي تحتفل به معظم البلاد الإسلامية، وتعتبره عطلة رسمية ومناسبةً مهمّة يجدّدون فيه الولاء لرسول اللّه ﷺ ويتحدّثون عن سيرته وتاريخه ويجدّدون العهد بتعاليمه.

ولو دارت المسألة في إقامة الاحتفالات والمناسبات الدينية في إطار اختلاف الرأي لا مانع من ذلك، فلكل طرف رأيه واجتهاده وقناعته، ولا يصحّ أن تتحوّل هذه المسألة إلى صراع وصدام.

عاشوراء نموذجًا

في تاريخنا الإسلامي وقائعُ لها أهمية ومنعطفاتٌ تشكّل لحظات مصيرية في تاريخ الأمة، وتؤثّر على وجدانها وثقافتها وعلى واقعها الاجتماعي والسياسي. هذه الأحداث يمكن أن تكون مصداقًا لعنوان «أيام اللّه» الوارد في القرآن الكريم.

ويمكننا ـ بكل ثقة ـ أن نعتبر «عاشوراء» مصداقًا بارزًا من بين تلك الأحداث، وذلك لما تحفل به هذه الحادثة من دروس وعبر وقيم للأمة وجماهيرها الواسعة.

«عاشوراء» مصطلح إسلامي

يشير بعض علماء اللغة إلى أن مصطلح «عاشوراء» مصطلح إسلامي لم يكن في الجاهلية. هذا ما أكّده ابن الأثير في النهاية وابن دريد في الجمهرة.

ويُقْصَد به اليوم العاشر من المحرّم، ولا يطلق على أي يوم عاشر من أي شهر غير المحرّم.

وهناك من يرى أنه ـ كمصطلح ـ كان متداولًا قبل الإسلام، ويروون في ذلك بعض الروايات في صحيحي البخاري ومسلم. جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا؟» قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجّى اللّه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى. قال: «فأنا أحق بموسى منكم». فصامه وأمر بصيامه[1].

وجاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول اللّه ﷺ أمر بصيام يوم عاشوراء، فلما فُرض رمضان، كان من شاء صام، ومن شاء أفطر[2].

---

(١) محمد بن إسماعيل البخاري. صحيح البخاري، ج١، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٤٩٢، ح٢٠٠٤.

(٢) المصدر نفسه، ح٢٠٠١.

كان ذلك قبل فرض صيام شهر رمضان، فلمّا فُرِض صيام شهر رمضان أصبح صوم يوم عاشوراء ليس مفروضًا على المسلمين، وإنما اعتبروه مستحبًا.

ولكنّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام لا تقبل هذه الأحاديث ولا ترى صحّتها من ناحية السند وتناقش أيضًا في مضمونها، وتذهب هذه المدرسة إلى أن هذا المصطلح يظل مصطلحًا إسلاميًّا تعارف المسلمون عليه بسبب الواقعة التي حصلت فيه باستشهاد الإمام الحسين عليه السلام في ذلك اليوم.

التعتيم على واقعة «عاشوراء»

حينما نقرأ التاريخ نجد أن بني أميّة كانوا يريدون التعتيم على هذه الحادثة، لينسى الناس ما حصل على أهل البيت عليهم السلام في كربلاء، ومن أجل ذلك كانوا يعلنون ذلك اليوم عيدًا ويوم فرح وسرور، وهذا ما نجد الإشارة إليه في إحدى فقرات الزيارة الواردة عن الإمام الباقر عليه السلام، حيث يقول فيها: «... اللهم إن هذا يوم تبرّكت به بنو أمية وابن آكلة الأكباد».

وورد في كتب التاريخ ـ كما ينقل أبو الريحان البيروني في الآثار الباقية، «فأما بنو أمية، فقد لبسوا فيه ما تجدد، وتزيّنوا، واكتحلوا، وعيّدوا، وأقاموا الولائم والضيافات، وأطعموا الحلاوات والطيبات، وجرى الرسم في العامة على ذلك أيام ملكهم، وبقي فيهم بعد زواله عنهم.

وأما الشيعة فإنهم ينوحون ويبكون، أسفًا لقتل سيد الشهداء فيه»[1].

ورووا في ذلك أحاديث وروايات موضوعة ومجعولة، كما يشير ابن تيمية، فيقول: «.. وإظهار الفرح والسرور يوم عاشوراء، وتوسيع النفقات فيه، هو من البدع المحدثة، المقابلة للرافضة»، وأضاف ابن تيمية، «.. وقد وضعت في ذلك أحاديث مكذوبة في

(١) جعفر مرتضى العاملي. المواسم والمراسم، الطبعة الثانية١٤٠٨هـ، (طهران: معاونية العلاقات العامة في منظمة الإعلام الإسلامي)، ص٨٤.

فضائل ما يصنع فيه، من الاغتسال والاكتحال الخ..» وقال: «.. وأحدث فيه بعض الناس أشياء، مستندة إلى أحاديث موضوعة لا أصل لها مثل فضل الاغتسال فيه، أو التكحل، أو المصافحة»[١].

ومن أمثلة هذه الروايات الموضوعة ما رووه عن ابن عباس ﵁ في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ [سورة طه، الآية: ٥٩] قوله: يوم الزينة يوم عاشوراء[٢].

وزعم البعض أن الاكتحال في هذا اليوم مانع من الرمد في تلك السنة[٣].

ولكنّنا نجد في قبال هذه الأحاديث الموضوعة أحاديثَ صحيحة في مصادر المسلمين باختلاف مذاهبهم تبيّن اهتمام رسول اللّه ﷺ وإعلانه لحزنه وألمه لما يحدث من بعده لسبطه الإمام الحسين ؑ يوم عاشوراء، وهذا مروي في المصادر الصحيحة المعتمدة عند أهل السنة وبأسناد صحيحة عندهم.

من ذلك ما يذكره الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين عن أم الفضل بنت الحارث ـ وهي لبابة زوج العباس بن عبد المطلب، أول امرأة أسلمت في مكّة بعد أم المؤمنين خديجة ؑ ـ تقول: «إنها دخلت يومًا على رسول اللّه ﷺ فقالت: يا رسول اللّه، إني رأيت حلمًا منكرًا الليلة، قال: ما هو؟، قالت: إنه شديد، قال: ما هو؟، قالت: رأيت كأن قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري. فقال رسول اللّه ﷺ: رأيت خيرًا، تلد فاطمة إن شاء اللّه غلامًا فيكون في حجرك، فولدت فاطمة الحسين فكان في حجري، كما قال رسول اللّه، فدخلت يومًا إلى رسول اللّه ﷺ فوضعته في حجره، ثم حانت مني التفاتة، فإذا عينا رسول اللّه ﷺ تهريقان من الدموع، قالت: فقلت يا نبي اللّه بأبي أنت وأمي ما لك؟ قال: أتاني جبرئيل عليه الصلاة والسلام فأخبرني أن أمتي ستقتل ابني هذا.

(١) المواسم والمراسم، ص٨٥، نقلًا من كتاب اقتضاء الصراط المستقيم، ص٣٠١.
(٢) المصدر نفسه، ص٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٨٦.

فقلت: هذا! فقال: نعم وأتاني بتربة من تربته حمراء».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[١].

وأورد المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني الحديث السابق في سلسلة أحاديثه الصحيحة تحت رقم ٨٢١ وعلّق عليه بقوله: له شواهد عديدة تشهد لصحته، منها ما عند أحمد بن حنبل (٦/ ٢٩٤) حدثنا وكيع قال: حدثني عبداللّه ابن سعيد عن أبيه عن عائشة أو أم سلمة، أن النبي ﷺ قال لإحداهما: «لقد دخل عليّ البيت ملك لم يدخل عليّ قبلها، فقال لي: إن ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، قال: فأخرج تربة حمراء». قال الألباني: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي (٩/ ١٨٧) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح[٢].

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، حديث رقم ٦٤٨، بسنده عن عبداللّه بن نجي، عن أبيه، أنه سار مع علي، وكان صاحب مطهرته، فلما حاذى نينوى وهو منطلق إلى صفين، فنادى علي: اصبر أبا عبداللّه، اصبر أبا عبداللّه، بشط الفرات، قلت وماذا؟ قال: دخلت على النبي ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان، قلت: يا نبي اللّه أأغضبك أحد؟ ما شأن عينيك تفيضان؟ قال: بل قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات، قال: فقال: هل لك إلى أن أُشمك من تربته؟ قال: قلت: نعم. فمد يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عيني أن فاضتا[٣].

في هذه الأحاديث وأمثالها ما يدلُّ على أن رسول اللّه كان يهتمّ بيوم عاشوراء كواقعة، وهذا أمر كان بيّنًا واضحًا لدى أمهات المؤمنين ولدى أصحابه وأهل بيته. وفي

(١) محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري. المستدرك على الصحيحين، ج٣، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص١٩٤.

(٢) محمد ناصر الدين الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج٢، الطبعة الرابعة١٤٠٥هـ، (بيروت: المكتب الإسلامي)، ص٤٨٥.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج١، ص٢٦٤.

هذا يقول ابن عبّاس: ما كنّا نشكُّ وأهلُ البيت متوافرون أن الحسين يقتل بالطف[1].

كل هذا يدلُّ على أهمية الواقعة التي كان رسول اللّه ﷺ يذكّر بها أصحابه وأهل بيته.

ماذا تمثّل عاشوراء في ضمير المسلمين؟

عاشوراء كواقعة من أهم الأحداث التي وقعت في تاريخ الأمة الإسلامية تمثّل لنا أمرين مهمّين، هما:

١. عظمة الموقف المبدئي الذي وقفه سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، إذ كانوا قلّة قليلة، ولكنهم ضربوا أروع الأمثلة في الصمود والثبات والالتزام بالقيم والدفاع عن المبادئ والاعتراض على الظلم والفساد والانحراف. ونحن حينما نتذكّر عاشوراء إنما نتذكّر هذه المواقف العظيمة السامية والرائعة.

٢. بشاعة الظلم الذي وقع على أهل البيت عليهم السلام وعلى الانتهاك لحرمات اللّه في ذلك اليوم.

فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن رجلًا عاديًّا، وإنما له شخصيته ومكانته وموقعيته التي لا يجهلها أحد من المسلمين. كما أنه لم يمضِ وقت طويل على وفاة رسول اللّه، الذي كان المسلمون يسمعون منه ويرون مواقفه التي يعبّر فيها ﷺ عن حبّه للحسين وانشداده له.

لقد قال رسول اللّه ﷺ على مرأى من الصحابة ومسمع منهم: «الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا».

وفي موضع آخر سمعوا منه قوله: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما».

وروى عبداللّه بن شداد عن أبيه قال: سجد رسول اللّه ﷺ سجدة أطالها، حتى

(١) المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٩٧، حديث رقم ٤٨٢٦.

ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليه، فسألناه عن ذلك، فقال: «كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته..»[1].

وغيرها من الأحاديث التي يتذكّرها المسلمون ويروونها لبعضهم ويتناقلونها فيما بينهم.

لذلك لا يمكن اعتبار ما حصل يوم العاشر من المحرّم من انتهاك للحرمات حدثًا عاديًّا، بل يجب التأمّل فيه جيدًا، والوقوف عند محطّات هذه الحادثة للاستفادة من أحداثها والدروس العظيمة التي تجلّت فيها.

(١) باقر شريف القرشي. حياة الإمام الحسين بن علي عليه السلام، ج١، الطبعة الأولى١٤١٣هـ، (بيروت: دار البلاغة)، ص٩٦.

حب أهل البيت عليهم السلام في نفوس المسلمين

- الأصل الديني لحب أهل البيت
- مكانة أهل البيت في الأمة
- مسؤولية التعريف بأهل البيت عليهم السلام

﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾[سورة الشورى، الآية: ٢٣].

الأصل الديني لحب أهل البيت

آيات القرآن الكريم، والأحاديث الواردة عن رسول اللّه ﷺ، التي اعتبرها المسلمون في مختلف مذاهبهم صحيحة ثابتة، هي التي تدفع كل مسلم لكي ينعقد قلبه على حب أهل البيت.

ومن الآيات الكريمة التي تدعو لحب أهل البيت عليهم السلام، هذه الآية الكريمة، فاللّه تعالى يقول: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. والأنبياء حينما يبلغون رسالات اللّه فإنما يقومون بالتبليغ استجابة لأمر اللّه تعالى، وبالتالي فهم لا يريدون من أحد ـ مقابل تبليغهم للرسالة ـ أجرًا، ولذلك ورد على لسان خمسةٍ من الأنبياء: نوح، وهود، ولوط، وصالح، وشعيب، وفي خمسة مواقع من سورة الشعراء، ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء، الآيات: ١٠٩- ١٢٧- ١٤٥- ١٦٤- ١٨٠].

إذًا لا أحد من الأنبياء يريد من الناس أجرًا أو يتوقع منهم ذلك، في مقابل تبليغه رسالة اللّه. وكذلك النبي محمد ﷺ أمره اللّه تعالى أن يقول للمسلمين: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [سورة ص، الآية:٨٦]، بينما نجد اللّه سبحانه وتعالى يأمر نبيه ﷺ أن يطلب من الناس أجرًا، كما هو صريح في قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ

أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، فكيف يُمكن التوفيق بين هذه الآية الكريمة، وبين قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾، وكيف أن النبي ﷺ يطلب أجرًا من المسلمين على تبليغ الدعوة الإلهية بعكس سائر الأنبياء؟

هذا التنافي الذي يبدو لأول وهلة تجيب عنه آية أخرى، يقول اللّه تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلاَّ عَلَى اللّه وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[سورة سبأ، الآية: ٤٧].

الفائدة الكبرى من المودة في القربى هي للمسلمين، وليست للنبي الأكرم. فالأمة حينما تحب أهل البيت وترتبط بهم، فإن ذلك في مصلحة الأمة نفسها، ولخير الأمة نفسها.

وحول الآية الكريمة: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ وردت روايات وأحاديث كثيرة نقلتها مصادر المسلمين، كما في تفسير الكشاف[1] والصواعق المحرقة[2] وغيرهما من المصادر الإسلامية المعتبرة، أن الصحابة سألوا رسول اللّه: يا رسول اللّه من قرابتك هؤلاء الذين أوجبت علينا مودتهم؟ قال: «هم علي وفاطمة وابناهما».

ومن ذلك أيضًا: أن الإمام الحسن عليه السلام خطب في الناس بعد استشهاد أبيه أمير المؤمنين عليه السلام وقال: «أنا من أهل البيت الذين فرض اللّه مودتهم عليكم»[3].

وروايات أخرى كثيرة مذكورة في الكتب ومصادر الحديث الإسلامية هذا على صعيد الآية الكريمة.

---

(١) أبو القاسم الزمخشري. تفسير الكشاف ج٤، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٢١٣.

(٢) ابن حجر الهيثمي. الصواعق المحرقة ج٢، الطبعة الأولى١٤٠٧هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص٤٨٧ .

(٣) المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٨٩، حديث٤٨٠١ .

الأحاديث الشريفة ودعوتها لحب أهل البيت

أما على صعيد الأحاديث والنصوص الواردة في مصادر الحديث فهي كثيرة، ومنها الحديث الوارد عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أحبوا اللّه لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب اللّه وأحبوا أهل بيتي لحبي»[١]، وفي حديث آخر صححه الشيخ الألباني[٢] عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يبغضنا أهل البيت أحدٌ إلا أدخله اللّه النار»، وهناك أحاديث كثيرة تتحدث عن أفراد أهل البيت، فمثلا عن الصديقة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، أن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال فيها: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»[٣].

أما في حق علي، ففي صحيح ابن ماجة عن علي عليه السلام قال: «عهد إليَّ النبي الأمي صلى الله عليه وآله وسلم أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق»[٤]. قال الشيخ الألباني: (وهذا حديث صحيح).

وأما في حقَّ الحسنين عليهما السلام فالأحاديث كثيرة، ومنها قوله: «من أحب الحسن والحسين فقد أحبّني، ومن أبغضهما فقد أبغضني»[٥].

إذا هناك نصوص شرعية، وهي تؤصل لأصل ديني يدفع كل مسلم للولاء لأهل البيت ولمحبتهم.

---

(١) المستدرك على الصحيحين. ج ٣، ص ١٦٢، حديث ٤٧١٦.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ج٥، ص٦٤٣، حديث٢٤٨٨.

(٣) صحيح البخاري، ج٢، ص٤٧٠، حديث٣٧١٤.

(٤) محمد ناصر الدين الألباني. صحيح سنن ابن ماجه، ج١، الطبعة الأولى١٤١٧هـ، (الرياض: مكتبة المعارف)، ص ٥٦، حديث٩٢.

(٥) المصدر نفسه. ج١، ص ٦٤، حديث١١٧.

□ مكانة أهل البيت في الأمة

انطلاقًا من هذه النصوص ومن شخصيات أهل البيت عليهم السلام التي فرضت نفسها بعلمها وفضلها، فإن الأمة كانت ولا تزال تحترم أهل البيت وتحبهم، فقد اتفقت الأمة في جميع عصورها على محبة أهل البيت وتعظيمهم. صحيح أن هناك فئة قليلة من الأمة كانت تظهر العداء والبغض لأهل البيت، أطلق المسلمون عليهم مصطلح النواصب، وهذا المصطلح يعني تلك الفئة التي تبغض أهل البيت.

في بداية الأمر كان هناك نوع من الصراع السياسي فالحاكمون رأوا في أهل البيت منافسة لهم في حكمهم في نفوذهم، ورأوا أن الأمة تنجذب وتنشد إليهم، ولذلك أقصوا أهل البيت وجفوهم.

وهناك رأي للسيد الخوئي رحمه الله: عندما يتحدث عن معنى النواصب ـ الذين ينصبون العداء لآل البيت ـ يقول كلامًا مؤداه: أنه ليس بالضرورة أن الخلفاء الحاكمين ـ الذين كانوا في عصر أهل البيت ـ نواصب، نعم، هم يؤذون أهل البيت، لكن طلب المصلحة والعرش والحكم والسلطة جعلهم يؤذونهم، ولكن داخل قلوبهم ليس لديهم عداوة لأهل البيت، بل ربما كان هناك إعجاب ومحبة لهم، كما قال هارون الرشيد لولده في القصة المنقولة لما رآه يحترم الإمام الكاظم عليه السلام في ذلك الكلام الطويل: «إن الملك عقيم ولو نازعتني فيه أنت لأخذت الذي فيه عينيك»، هذا ليس ناصب العداوة لولده، ولكن إذا اقتضت المصلحة يقتل ولده. وقد نقل هذا الرأي عن السيد الخوئي الشيخ نصر اللّه الخلخالي في تقريره لدرسه بعنوان دروس في فقه الشيعة، ومما جاء فيه: «من هنا يحكم بإسلام الأولين الغاصبين لحق أمير المؤمنين عليه السلام إسلامًا ظاهريًا لعدم نصبهم ـ ظاهرًا ـ عداوة أهل البيت وإنما نازعوهم في تحصيل المقام والرياسة العامة»[1].

---

(١) فقه الشيعة ج٣، ص١٢٦، وأيضًا مباني منهاج الصالحين، السيد تقي القمي ج٣، طبعة ١٩٩٧م ـ ١٤١٨هـ، (بيروت: دار السرور)، ص٢٥٠.

والمشكلة أن هناك من حوّل هذا الصراع السياسي إلى دين، وهؤلاء مغرضون، حصل ذلك منهم تملقًا إلى الحكام، أو غفلة منهم، أو من أجل مصلحة عندهم، حيث حوّلوا الجفاء لأهل البيت إلى دين، وصاروا يبغضون أهل البيت ويناوئونهم بتأثير الأجواء السياسية. ومن نتائج ذلك شُتم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام سبعين سنة على منابر المسلمين، وهذا نوع من التضليل، والناس بطبيعتهم يتأثرون بالأجواء الإعلامية المصنوعة.

والتاريخ ينقل لنا بعض القصص والشواهد على ذلك، ومنها ما قاله أحد أعلام المسلمين عن أحد الرواة وهو: حريز بن عثمان الحمصي[1]، أنه شامي ثقة وكان يحمل على علي بن أبي طالب، ويا عجبًا فكيف يكون هذا الراوي ثقة، وهو يحمل على علي بن أبي طالب عليه السلام ويصرح ببغضه لأمير المؤمنين، قال عمران بن أبان: سمعت حريز بن عثمان يقول: لا أحبه قتل آبائي ـ يعني عليًا ـ، ويُنقل في ترجمته أنه كان في كل يوم يلعن عليًّا في الغداة سبعين مرة وفي الليل سبعين مرة.

ومن طريف ما ينقل في قصص العلماء أن نجيب باشا والي بغداد ذهب إلى النجف الأشرف، وطلب من الشيخ محمد حسن (صاحب الجواهر)، أن يأخذه إلى زيارة قبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وعند وصولهما وقف الوالي أمام ضريح الإمام ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم بحرمة لحيتي البيضاء تجاوز عن ذنوب الإمام علي إذ أهرق الكثير من دماء المسلمين[2].

خلاصةً، هناك فئة محدودة من الأمة كانت تظهر العداء لأهل البيت، ولكن أغلب الأمة يُعلنون حبهم لأهل البيت، صحيح أن المحبة لأهل البيت درجات، وأن أغلب

(١) راجع سيرته في: تهذيب الكمال، ج٥، ص ٥٧٢، والكامل في ضعفاء الرجال. ج٢، ص٤٥١، والضعفاء والمتروكين لابن الجوزي، ج١، ص١٩٧، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج٨، ص٢٦٥.
(٢) الميرزا محمد بن سليمان التنكابني، قصص العلماء، الطبعة الأولى١٤١٣هـ، (بيروت: دار المحجة البيضاء)، ص١١٩.

المسلمين يحبون أهل البيت قلبيًّا ونفسيًّا، لكنهم لا يعتقدون بأنهم قيادة الأمة، وأنهم خلفاء رسول اللّه ﷺ وأن أقوالهم واجبة الاتباع، فهذه عقيدة اختص بها شيعة أهل البيت.

فأصل محبة أهل البيت يتفق عليها المسلمون، أما دورهم ومكانتهم فهي محل نقاش، وكما يقول السيد الخوئي ﵀ في موسوعته الاستدلالية: «الضروري من الولاية إنما هي الولاية بمعنى الحب والولاء، وهم ـ أي أهل السنة ـ غير منكرين لها ـ بهذا المعنى ـ بل قد يظهرون حبهم لأهل البيت ﵈. وأما الولاية بمعنى الخلافة فهي ليست بضرورية بوجه وإنما هي مسألة نظرية وقد فسروها بمعنى الحب والولاء ولو تقليدًا لآبائهم وعلمائهم وإنكارهم للولاية بمعنى الخلافة مستند إلى الشبهة كما عرفت، وقد أسلفنا أن إنكار الضروري إنما يستتبع الكفر والنجاسة فيما إذا كان مستلزمًا لتكذيب النبي ﷺ كما إذا كان عالمًا بأن ما ينكره مما ثبت من الدين بالضرورة، وهذا لم يتحقق في حق أهل الخلاف لعدم ثبوت الخلافة عندهم بالضرورة لأهل البيت ﵈، نعم الولاية ـ بمعنى الخلافة ـ من ضروريات المذهب لا من ضروريات الدين»[١].

وقال الإمام الخميني ﵀: «إن الإمامة بالمعنى الذي عند الإمامية، ليست من ضروريات الدين، فإنها [أي الضروريات] عبارة عن أمور واضحة بديهية عند جميع طبقات المسلمين، ولعلّ الضرورة عند كثيرٍ على خلافها، فضلاً عن كونها ضرورة، نعم، هي من أصول المذهب، ومنكرها خارج عنه، لا عن الإسلام»[٢].

فالمعنى واضح: خلافة أهل البيت ﵈ وقيادتهم للأمة من ضرورات المذهب الجعفري، وهو ما اقتنع وآمن به شيعة أهل البيت، أما بقية المسلمين عندهم قناعة ورأي آخر، بالطبع المجال مفتوح للنقاش وللحوار، فنحن لنا أدلتنا، ولنا براهيننا، وبقية

(١) السيد أبو القاسم الخوئي. التنقيح في شرح العروة الوثقى، كتاب الطهارة ج٢، الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ، (قم المقدسة: مؤسسة أنصاريان)، ص٨٦.

(٢) روح اللّه الخميني، كتاب الطهارة، ج٣، طبعة ١٩٧٠م، (النجف الأشرف: مطبعة الآداب)، ص٤٤١.

المسلمين عندهم تأوّل لهذه النصوص.

وأئمتنا عليهم السلام ما كانوا يرون أن من كان له رأي آخر حول إمامتهم لتأوّل أو لشبهة يكون خارج الدين، وإنما تجري عليه أحكام الإسلام، بل إنه ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن علي عليه السلام قال: «إن للجنة ثمانية أبواب باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منه شيعتنا ومحبونا، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا اللّه ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت»[1]، يعني أنه مخالف لأهل البيت ولكن ليس في قلبه بغض لهم عليهم السلام.

العلاقة مع الآخر بحسن الظن

وهنا مسألة مهمَّة ينبغي تسليط الأضواء عليها في العلاقة بين المسلمين على تنوع مذاهبهم، إذ ينبغي أن يكون هناك حسن ظن بين المسلمين، ولا يفترض الواحد من أتباع مذهب بأن أتباع المذهب الآخر معاندون جاحدون، يعرفون الحق ولا يتبعون، وهذا الاعتقاد خطأ، فأغلبية الناس لا يعرفون الحق، فهم قد عاشوا في بيئة وأصبحوا ضمن نهج تلك البيئة المذهبية، وبسبب القصور لم تتضح لهم الحقيقة، وإلا ليس كل واحد يريد أن يدخل النار، وهو يعرف طريق النجاة ويتركه. صحيح هناك بعض الأشخاص يتضح لهم الحق لكنهم يكابرون ويجحدون، وهذا لا ينطبق على كل الناس. ولذلك ينبغي أن يتعامل المسلمون فيما بينهم على أساس حسن الظن في بعضهم بعضًا، ولا يفترض السني أن الشيعي يسير على طريق وهو يعلم أنه خطأ، بل عليه أن يعتقد أن الشيعي يسير على طريق وهو مقتنع أنه صحيح وإلا ما سار عليه. ولا يعتقد الشيعي أن السني يسير على طريق وهو يعلم أنه باطل، كلا! فالسني يسير على طريق وهو يعتقد أنه حق، ولو اتضح له أنه باطل لما سار عليه. وهذا الكلام لا ينفي وجود أشخاص في هذا الطرف وذاك

(١) الشيخ الصدوق. الخصال، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ، (بيروت: دار المرتضى)، ص٤٣٢.

الطرف مكابرين وجاحدين.

تاريخ الأمة ومحبة أهل البيت

إذا قرأنا في تاريخ الأمة نرى أن هناك تقديرًا وتعظيمًا واضحًا عند المسلمين، في كل عصر وجيل، لأهل البيت، فنجد ذلك حتى عند الحاكمين السابقين المناوئين لأهل البيت، نعم منعوا أهل البيت ﬷ من حقهم الطبيعي في إدارة الأمة، ولكن في أعماق نفوسهم يعرفون مكانة أهل البيت، وهناك رواية تنقل عن المأمون العباسي أنه قال: إنما تعلّم فضل أهل البيت من أبيه هارون، وذلك أنه رأى أباه وهو يجل ويقدر الإمام موسى بن جعفر فتعجب من ذلك.

يقول: وكنت أجرأ وُلدِ أبي عليه فلما خلا المجلس قلت يا أمير المؤمنين: من هذا الرجل الذي قد أعظمته وأجللته وقمت من مجلسك إليه فاستقبلته وأقعدته في صدر المجلس وجلست دونه ثم أمرتنا بأخذ الركاب له؟ قال: هذا إمام الناس وحجة اللّه على خلقه وخليفته على عباده. فقلت يا أمير المؤمنين: أو ليست هذه الصفات كلها لك وفيك؟ فقال: أنا إمام الجماعة في الظاهر والغلبة والقهر، وموسى بن جعفر إمام حق، واللّه يا بني إنه لأحق بمقام رسول اللّه ﷺ مني ومن الخلق جميعًا واللّه لو نازعتني هذا الأمر لأخذت الذي فيه عيناك فإن الملك عقيم[1].

فالأمة تعرف مكانة أهل البيت السامقة، وهنا نماذج من تقدير أئمة المذاهب لأهل البيت.

أئمة المذاهب الأربعة واحترام أهل البيت

لو أخذنا نموذجًا أئمة المذاهب الأربعة، وقرأنا حياتهم وسيرتهم لوجدنا أنهم كانوا يعلنون أمام الناس احترامهم وحبهم لأهل البيت ﬷، وتعظيمهم للمكانة الرفيعة

---

(١) الشيخ الصدوق ابن بابويه، عيون أخبار الرضا ج١، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٨٤.

التي يتسنمونها في الأمة.

الإمام مالك

يتحدث الإمام مالك عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فيقول: «ما رأت عين، ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادةً وورعًا»(١)، وقال: «كان كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر عنده رسول اللّه صلى الله عليه وآله أصفّر، وما رأيته يحدث عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زمانًا، فما كنت أراه إلّا على ثلاث خصال: إما مصليًا وإما صائماً وإما يقرأ القرآن»(٢).

الإمام أبو حنيفة

للإمام لأبي حنيفة كلمة معروفة ومشهورة: «لو لا السنتان لهلك النعمان»(٣) أي لو لا السنتان اللتان كان يحضر فيهما مجلس الإمام جعفر الصادق.

وحينما ألزمه المنصور العباسي بأن يناظر الإمام الصادق اعترف واعتبرها فرصة للإشادة بالإمام الصادق، قال: دعاني أبو جعفر المنصور حينما كان في الحيرة وقال لي: إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيئ له من المسائل الشداد. يقول فهيأت له أربعين مسألة. ثم بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته فدخلت عليه، وجعفر بن محمد جالس على يمينه، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر المنصور، ثم يكمل ـ أبو حنيفة ـ بأنه سأل الإمام عليه السلام والإمام يجيبه فيقول: أنتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا، فربما تابعنا وربما تابعهم وربما

---

(١) أسد حيدر. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، المجلد٤، ج٨، الطبعة الخامسة ١٤٢٢هـ، (بيروت: دار التعارف)، ص٣٧١. وأيضًا: التوسل والوسيلة لابن تيمية، ص٥٢.

(٢) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، المجلد ٤، ج٨ ص ٣٧١-٣٧٢. وأيضًا: مناقب الزواوي، ص٣٣ـ٣٤.

(٣) عبدالحليم الجندي، الإمام جعفر الصادق، الطبعة الأولى١٩٧٧م، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية)، ص٢٥٢.

خالفنا جميعًا، حتى أتيت على الأربعين مسألة، ويُضيف أبو حنيفة: ألسنا روينا: إن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس[١].

الإمام الشافعي

عُرف الإمام الشافعي بحبه لأهل البيت فهو صاحب الشعر المعروف[٢]:

يا آل بيت رسول اللّه حبكم فرض من اللّه في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم الشأن أنكم من لم يصلِّ عليكم لا صلاة له

وهو صاحب الشعر الذي يقول[٣]:

يا راكبًا قف بالمحصب من منى واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحرًا إذا فاض الحجيج إلى منى فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضًا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

الإمام أحمد بن حنبل

في مسند الإمام أحمد عدد كبير من الروايات في فضل أهل البيت، ولعله ليس في كتب الصحاح والمسانيد كتاب فيه من فضائل أهل البيت ما في مسند الإمام أحمد بن حنبل، وله كتاب أفرده في فضائل علي بن أبي طالب، وله كلمات ومواقف تنقل على هذا الصعيد: فمرة ينقل ولده عبد اللّه بن أحمد بن حنبل يقول: حدث أبي بحديث سفينة، فقلت: يا أبت ما تقول في التفضيل؟ قال: في الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان. فقلت: وعلي بن أبي طالب! قال: يا بني، علي بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة. المجلد ١، ج١، ص٥٦. وأيضًا: تذكرة الحفاظ للذهبي، ج١، ص١٥٧.

(٢) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة. المجلد ٤، ج٨، ص٤١٦. وأيضًا: سليمان بن إبراهيم القندوزي. ينابيع المودة، ج٢، (بيروت: مؤسسة الأعلمي)، ص٣٤٣.

(٣) محمد بن أحمد الذهبي. تاريخ الإسلام، ج١٤، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ، (بيروت: دار الكتاب العربي)، ص٣٣٨.

بهم أحد[١].

صلاة المسلمين تشهد بمحبة أهل البيت

هذا بالنسبة لأئمة المذاهب، والمسلمون بمختلف مذاهبهم يُقرّون بمحبة أهل البيت، ويشهدون لهم بالفضل، فكل المسلمين في تشهدهم في الصلاة يقولون: «اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد»[٢]، وهذا واجب عند الشافعي، وعند أحمد بن حنبل على قول[٣]. والملاحظ هنا لم يُذكر أحد في إطار الصلاة على رسول اللّه في التشهد سوى أهل البيت، وهذا بسبب صريح النص الذي ورد عن رسول اللّه ﷺ في كيفية الصلاة عليه، فحينما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّه وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾، سُئل: كيف نصلي عليك؟ فعلمهم هذه الصيغة التي تشمل النبي وآله، قال: «قولوا: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[٤]، ولذلك فإن عدم ذكر الآل في الصلاة يجعلها بتراء فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تصلوا علي الصلاة البتراء». قالوا: وما الصلاة البتراء يا رسول اللّه؟ قال: تقولون: «اللهم صل على محمد وتسكتون، بل قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد»[٥]، واقتصار الصلاة على النبي وآله في التشهد دون ذكر الآخرين ميزة واضحة.

---

(١) القاضي السيد نور الله الحسيني المرعشي التستري. شرح إحقاق الحق، ج ١٥، (بيروت: دار الكتاب الإسلامي)، ص٦٩٩. وأيضًا: مناقب أحمد لابن الجوزي، ص١٦٣.

(٢) الموسوعة الفقهية. الطبعة الأولى١٩٩٢م، (الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية)، ص٩٧.

(٣) عبداللّه بن أحمد المقدسي بن قدامة. المغني، ج٢ ص٢٢٨، الطبعة الثانية١٤١٢هـ، (القاهرة: هجر للطباعة). قال ابن قدامة ص٢٢٩: «وظاهر مذهب أحمد رحمه اللّه وجوبه، فإن أبا زرعة الدمشقي نقل عن أحمد أنه قال: كنت أتهيب ذلك، ثم تبينت، فإذا الصلاة واجبة. فظاهر هذا أنه رجع عن قوله الأول إلى هذا».

(٤) مسلم بن الحجاج النيسابوري. صحيح مسلم، الطبعة الأولى١٩٩٨م، (الرياض: دار المغني)، ص٢١٦، حديث٦٦، «باب الصلاة على النبي بعد التشهد».

(٥) ينابيع المودة، ج ١، ص ٣٧.

كتب العلماء تزخر بفضائل أهل البيت

أما الكتب فقد أفرد كثير من علماء السنة كتبًا في فضل أهل البيت، وأكتفي بذكر نماذج معاصرة، مع العلم أن الماضي يحفل بكتب كثيرة، كنور الأبصار للشبلنجي، وذخائر العقبى للطبري، وينابيع المودة للقندوزي، والمناقب للخوارزمي وغيرها.

أما الكتب المعاصرة فكثيرة أيضًا، ومنها: كتابٌ لعالم معاصر من علماء الحديث المعروفين وهو الشيخ محمود سعيد بن محمد ممدوح من علماء مصر، ويعتبر ضمن المدرسة السلفية في مجال الحديث، وهو من المحدثين ويعترف جميع علماء الحديث بمكانته العلمية، وله كتب تباع في المملكة، وكتبه من الكتب العلمية في مجال الحديث، هذا العالم قبل سنتين طبع كتابًا مهمًّا جدًّا، قدّم له مستشار رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة السيد علي الهاشم، والكتاب مطبوع من قبل مؤسسة الفقيه في أبو ظبي عام ١٤٢٥هـ، وهو كتاب جميل ورائع، عنوانه: (غاية التبجيل وترك القطع في التفضيل)[١]، يقع في (٣١٤) صفحة.

في هذا الكتاب يؤكد على حقائق كثيرة مهمَّة من أبرزها هذه الحقيقة، يقول في(ص٣٦): ما نقل عن الإمام أحمد بن حنبل أنه لم يُروَ في فضائل أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان ما روي في فضائل علي بن أبي طالب، ويقرر أيضًا حقيقة أخرى: أن الذين يرون أفضلية الخلفاء على الإمام علي عليه السلام فيه نقاش، فالتقدم في الخلافة تقدم زمني لا يدل على الأفضلية، يقول في (ص٦٧): وفد يحتج أو يستأنس بعضهم على الأفضلية بترتيبهم في الخلافة، فيقال: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، كترتيبهم في الخلافة، وهذا التلازم فيه نظر، فبعد الاتفاق على أنه ظني، فإنه لا يصلح دليلًا على تفضيل متقدّم في الخلافة على متأخر؛ لأن الخلافة بعد انتقال النبي، والناس لا يتفاضلون بالمناصب بل بكثرة الفضائل والخصائص.

---

(١) الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ، (أبو ظبي: مكتبة الفقيه) .

ويأتي بآراء بعض الصحابة حول أفضلية علي بن أبي طالب على جميع الصحابة، ويذكر منها هذا الحديث ويصححه، يقول: سئل أبو ذر صاحب رسول اللّه، الذي قال فيه: «ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر»[1]، يقول في (ص١٢٩): «جاء رجل أبا ذر وهو في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا أبا ذر ألا تخبرني بأحب الناس إليك، فإني أعرف أن أحبّهم إليك أحبهم إلى رسول اللّه ؟ قال: إي ورب الكعبة إن أحبهم إليَّ أحبّهم إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وهو ذاك الشيخ، وأشار بيده إلى علي عليه السلام وهو يصلي أمامه».

وذكر في (ص ١٣٥) عن عبداللّه بن مسعود أنه قال: كنّا نتحدث أن أفضل أهل المدينة علي بن أبي طالب.

والجميل أن المؤلف أفرد في كتابه فصلًا حول فاطمة الزهراء عليها السلام تحت عنوان: تنوير الأفئدة الذكية بتفضيل البضعة النبوية في(ص٩٥)، يقول فيه: ومنهم ـ أي العلماء ـ من يفضل فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الجميع باعتبارها بضعته الشريفة المنيفة.

وذكر أن هذا مذهب أم المؤمنين عائشة، فقد صح عنها أنها قالت: ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها، ثم يذكر قول رسول اللّه: «فاطمة بضعة مني» ويقول: لا نعدل ببضعة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أحدًا، ثم يذكر قول الألوسي: إن فاطمة من حيث البضعية لا يعدلها أحد، ويضيف في (ص٩٦) أن الإمام مالك قال: لا أفضِّل على بضعة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أحدًا.

نموذج ثانٍ نذكره لأحد العلماء السلفيين في المملكة، وهو قاضٍ في المحكمة الكبرى بالقطيف الشيخ صالح الدرويش، فقد ألّف كتابًا حول الإمام الصادق، نختلف معه في بعض الجوانب المذكورة في الكتاب باعتبار رؤيتنا وعقيدتنا حول الإمام، لكن من حيث المجمل فإن الكتاب يتضمن الإشادة بالإمام والإقرار بأفضليته في زمانه، يقول: هو

(١) صحيح سنن ابن ماجه. ج١، ص ٦٨، حديث١٢٧.

إمام أهل زمانه جعفر الملقب بالصادق وأبوه إمام أهل زمانه محمد بن علي الملقب بالباقر ابن إمام التابعين في زمانه علي بن الحسين زين العابدين"(١).

هكذا يقرر هذا العالم السلفي أن كل واحد منهم ﷺ هو إمام زمانه، وماذا يعني ذلك سوى أنه هو الأفضل في زمانه، ونقل نصوصًا كثيرة عن العلماء ومن التاريخ في فضل الإمام جعفر بن محمد الصادق.

وهناك قاضٍ سلفي آخر وهو الشيخ عبدالعزيز العمير في المحكمة الشرعية الكبرى بالقطيف أيضًا، ألّف كتابًا تحت عنوان: نجي كربلاء ﷺ، يعني الإمام زين العابدين ﷺ وفي كتابه الكثير من التعظيم والتجليل في الإمام، يقول في مقدمته: اللهم إني أشهدك على محبتي لأهل بيت نبيك"(٢).

أقول: هذا لا يعني أننا نتفق معه في كل ما ذكره في الكتاب من آراء، فمعروف أن هناك خلافًا بين الشيعة وغيرهم فيما يرتبط في مقام أهل البيت ومكانتهم، ولكن نريد الإشارة إلى أن فضل أهل البيت وعظمتهم لا يستطيع أن ينكرها أحد.

□ مسؤولية التعريف بأهل البيت ﷺ

في أزمنة سابقة كان هناك حظر على الحديث عن أهل البيت ﷺ والإشادة بمكانتهم والتعريف بعلومهم للناس، ولذلك فإن قسمًا كبيرًا من الأمة لا يعرفون فضل أهل البيت ﷺ، ولم تصلهم معارفهم. ونحن الآن نعيش في عصر أصبح المجال فيه مفتوحًا من أجل أن تتعرف الأمة أكثر إلى أهل البيت ﷺ، وهذه مسؤولية على عاتق كل عالم واعٍ من السنة والشيعة؛ لأن التعريف بأهل البيت جزء من محبتهم ومودتهم المفروضة على كل مسلم، بحكم القرآن الكريم والأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ.

---

(١) الشيخ صالح بن عبدالله الدرويش، الإمام جعفر الصادق، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ، (الدمام: دار ابن الجوزي)، ص١٥.

(٢) عبدالعزيز بن أحمد العمير، نجي كربلاء ﷺ، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ، (الرياض: المؤلف)، ص٧.

وتختص الشيعة بمسؤولية أكبر للتعريف بأهل البيت عليهم السلام لأنهم أتباعهم، فعليهم أن يوصلوا صوت أهل البيت عليهم السلام إلى كل العالم الإسلامي بل العالم الإنساني.

والسؤال: كيف يُمكن لنا أن نقوم بواجبنا في التعريف بأهل البيت عليهم السلام ؟

في الروايات الواردة عن أهل البيت أن هناك ثلاثة توجيهات أساس في تحمل المسؤولية لنشر معارف أهل البيت عليهم السلام والتعريف بهم:

أولًا: إيصال معارفهم للناس

ففي الرواية عن عبدالسلام بن صالح الهروي قال سمعت علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه يقول: «رحم اللّه عبدًا أحيى أمرنا، قلت: كيف يحيي أمركم؟ قال: يتعلّم علومنا، ويعلّمها الناس، فإنَّ الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتّبعونا»[1]، وفي هذه الرواية أمر من الإمام أن نحيي أمرهم بإيصال معارفهم للناس، وعلينا أن نعترف بالتقصير على هذا الصعيد، حيث إننا لم نولِ هذا الجانب الاهتمام المطلوب، فعلى صعيد الطباعة والنشر، كم من النسخ نُشر من الصحيفة السجادية ونهج البلاغة، وإلى كم لغة تُرجما، وهذا أمرٌ في غاية السهولة، ناهيك عن الجوانب الأخرى التي ما زال العالم الشيعي متجاهلًا لها.

ثانيًا: التحذير من تعريض أهل البيت للإساءة

فنجد في روايات أهل البيت عليهم السلام تحذيرًا لشيعتهم من أن يرووا عنهم ما يسيء لهم. فقد ورد في عيون أخبار الرضا عليه السلام عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «يا ابن أبي محمود إن مخالفينا وضعوا أخبارًا في فضائلنا وجعلوها على ثلاثة أقسام، أحدها: الغلو، وثانيها: التقصير في أمرنا، وثالثها: التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلو فينا كفروا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا، وقد قال اللّه عز وجل: ﴿وَلا تَسُبُّوا

(١) محمد بن الحسن الحر العاملي. وسائل الشيعة. ج٢٧، الطبعة الأولى١٩٩٣م، (بيروت: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث)، ص٩٢.

الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّه فَيَسُبُّوا اللّه عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[سورة الأنعام، الآية: ١٠٨]»[1].

ثالثًا: الدعوة لأهل البيت بالسلوك الإيجابي

أهل البيت عليهم السلام كانوا يريدون من شيعتهم أن يكونوا بسلوكهم نموذجًا في التعريف بأهل البيت، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم»[2].

وقال: «إن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفري فيسرني ذلك ويدخل عليَّ منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر، وإذا كان على غير ذلك دخل عليَّ بلاؤه وعاره وقيل: هذا أدب جعفر»[3].

وفي رواية أخرى عن أبي عبد اللّه جعفر بن محمد صلوات اللّه عليه أنه قال للمفضل: أي مفضل، قل لشيعتنا: «كونوا دعاة إلينا بالكف عن محارم اللّه واجتناب معاصيه، واتباع رضوان اللّه، فإنهم إذا كانوا كذلك، كان الناس إلينا مسارعين»[4].

وعن سليمان بن مهران، قال: دخلت على الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام وعنده نفر من الشيعة وهو يقول: «معاشر الشيعة، كونوا لنا زينًا، ولا تكونوا لنا شينًا، قولوا للناس حسنًا، واحفظوا ألسنتكم وكفوها عن الفضول، وقبيح القول»[5].

ورواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام: «رحم اللّه عبدًا استجرَّ مودة الناس إلى

---

(١) عيون أخبار الرضا. ج ٢، ص ٢٧٢.

(٢) محمد بن يعقوب الكليني. الكافي، ج٢، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ، (بيروت: دار الأضواء)، ص٧٨.

(٣) الكافي. ج ٢، ص ٦٣٦.

(٤) القاضي أبو حنيفة المغربي النعمان. دعائم الإسلام. ج ١، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي)، ص ٥٨.

(٥) الشيخ الطوسي. الأمالي، الطبعة الأولى١٤١٤هـ، (قم: دار الثقافة)، ص ٤٤٠.

نفسه وإلينا»[١]، وجاء في نص آخر: «حببونا إلى الناس ولا تبغّضونا إليهم»[٢].

موقعية الإمام الحسين عليه السلام في الأمة

واضحٌ من خلال البحث كيف أن الأمة كانت تنظر إلى أهل البيت نظرة إجلال وتعظيم، والإمام الحسين بن علي عليه السلام كانت له موقعيته المميزة بين الأصحاب، حيث كانوا يجلونه ويحترمونه ويقدرونه، تقول كتب السير كما ورد في الإصابة عن الإمام الحسين عليه السلام أنه دخل مسجد جده رسول اللّه صلى الله عليه وآله وهو صغير يقول: «أتيت عمر وهو يخطب على المنبر فصعدت إليه فقلت: انزل عن منبر أبي واذهب إلى منبر أبيك. فقال عمر: لم يكن لأبي منبر، وأخذني فأجلسني معه أقلب حصى بيدي فلما نزل انطلق بي إلى منزله، فقال لي: من علمك؟ قلت: واللّه ما علمني أحد»[٣].

وفي الإصابة أن عمر قال للإمام الحسين عليه السلام: «إنما أنبت ما ترى في رؤوسنا اللّه ثم أنتم»[٤].

وفي التاريخ فاضل الخليفة عمر بين الناس في العطاء، لكنه أعطى الحسن والحسين مثل عطاء أهل بدر مع أنهم لم يشهدوا بدرًا فسئل عن ذلك، فأجاب لمكانتهما من رسول اللّه.

وهذا ابن عباس يزجر مدرك بن زياد أو ابن عمارة بسبب لومه إياه على مسكه الركاب وتسويته الثياب للحسن والحسين، قائلًا له: «يا لكع أو تدري مَن هذان؟ هذان ابنا رسول اللّه، أوليس مما أنعم اللّه به عليَّ أن أمسك لهما الركاب وأسوي

(١) ميرزا حسين النوري الطبرسي. مستدرك الوسائل ج١٢، الطبعة الثالثة١٩٩١م، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)، ص ٢٧٥، حديث١٤٠٨٦.

(٢) المصدر نفسه. ج٨، ص٣١١، حديث٩٥٢١.

(٣) ابن حجر العسقلاني. الإصابة في تمييز الصحابة ج ٢، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، (بيروت: دار الجيل)، ص ٦٩.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة. ج ٢، ص ٦٩.

عليهما الثياب»[١].

وها هو عبد اللّه بن عمرو بن العاص يُخبر أصحابه لما اجتاز عليهم الحسين عليه السلام في مسجد جده صلى الله عليه وآله وسلم قائلًا:

ألا أخبركم بأحبِّ أهل الأرض إلى أهل السماء؟

قالوا: بلى.

قال: هذا الماشي ـ وأشار إلى الحسين ـ[٢].

وهذا أبو هريرة يحتفي بالإمام الحسين، كما جاء عن أبي المهزم، قال: كنا مع جنازة امرأة، ومعنا أبو هريرة، فجيء بجنازة رجل، فجعله بينه وبين المرأة، فصلى عليهما، فلما أقبلنا أعيا الحسين فقعد في الطريق، فجعل أبو هريرة ينفض التراب عن قدميه بطرف ثوبه، فقال الحسين: يا أبا هريرة وأنت تفعل هذا ؟ قال أبو هريرة: «دعني فواللّه لو يعلم الناس منك ما أعلم لحملوك على رقابهم»[٣].

فسلام اللّه على الحسين يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حيًّا.

---

(١) حياة الإمام الحسين. ج١، ص١٠٦.

(٢) المصدر نفسه. ج١، ص١٠٧.

(٣) علي بن الحسين بن هبة الله الدمشقي المشهور بابن عساكر. ترجمة الإمام الحسين، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ (بيروت: مؤسسة المحمودي)، ص ٢١٤.

الإمام الحسين ونهجه في الدعوة والحوار

- سبيل التأثير على الآخرين
- أزمة الحوار في المجتمع الإسلامي
- قبسات من رؤية الإمام الحسين عليه السلام وسيرته

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[سورة النحل، الآية: ١٢٥].

□ سبيل التأثير على الآخرين

من الطبيعي أن يجد الإنسان نفسه في هذه الحياة أمام من يختلف معه في الرأي، ومن تتضارب مصالحه مع مصالحه، فالناس يختلفون في آرائهم وتوجهاتهم، وكل واحد من الناس يريد أن يحوز على أكبر قدرٍ ممكن من المكاسب في هذه الدنيا، مما يسبب نوعًا من التضارب في المصالح بين الناس.

وحينما يكون الإنسان أمام من يخالفه في الرأي فإنه قد يسعى لإقناعه برأيه، إما انطلاقًا من حالة دينية، باعتبار أن الدين يدفع المؤمن للتبشير به، والنصوص الواردة تؤكد ذلك، فعن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «لأن يهدي اللّه على يديك رجلًا خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت»[1].

وفي بعض الأحيان يتجسد حب الذات لدى الإنسان في سعيه لنشر آرائه باعتبارها نوعًا من الانتصار للذات، وبذلك ينتابه السرور والفرح.

والسؤال المهم: ما هو السبيل للتأثير على الآخرين؟ وكيف أحافظ على مصلحتي حينما تتضارب مع مصلحة الآخرين؟

(١) الكافي. ج٥، ص٢٨، حديث٤.

هناك طريقان:

الأول: استخدام القوة والفرض

وهنا يلجأ الإنسان للقوة حتى يفرض رأيه، بالطبع الفرض في المجال الفكري ومجال الرأي ليس صحيحًا وغير ممكن، فكما أن لك عقلًا، فإن لغيرك عقلًا، قد يختلف معك في التفكير، واللّه تعالى خلق الناس أحرارًا، فلا يصح لأحد أن يسعى لفرض رأيه على الآخرين، حتى وإن كان معتقدًا بأن رأيه حق، إذ كل واحدٍ يعتقد أن رأيه حق، وهذا الاعتقاد لا يبرر فرض الآراء على الآخرين، فاللّه سبحانه وهو رب البشر لم يفرض على الناس الإيمان به بالقسر والقوة، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[سورة يونس: الآية ٩٩].

وكذلك الأنبياء والرسل الذين يحملون رسالة الحق للناس من قبل اللّه تعالى، لم يسمح لهم أن يفرضوا دعواتهم على الآخرين بالقوة، وإنما دورهم ينحصر في التبليغ: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[سورة النور: الآية ٥٤]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصيْطِرٍ﴾[سورة الغاشية: الآية ٢٢].

فإذا كان الأنبياء والرسل لا يحق لهم أن يفرضوا رأي الحق ورسالة الحق على الناس، فهل يصح لأي واحد أن يقوم بهذا الدور؟

لكن بعض المتجبرين يسعون لفرض الرأي بالقوة، وفي تاريخنا الإسلامي نجد كيف أن بعض الحاكمين كانوا يسعون لذلك. وفي الواقع ليس ذلك إخلاصًا منهم لتلك الآراء، ولكنه ممارسة للتسلط والهيمنة على الناس، فلا يكتفون بالتسلط على أجساد الناس، وإنما يريدون أيضًا التسلط على أفكارهم والتحكم بآرائهم.

وهنا نذكر مثلًا واحدًا:

المهدي العباسي الذي حكم الأمة الإسلامية ١١ سنة (منذ ١٥٨هـ حتى ١٦٩هـ)،

تبنى إبان حكمه شعار مواجهة الزنادقة، وهم الذين لديهم آراء تخالف الإسلام، فكيف واجههم؟ لم تكن المواجهة بالمنطق وبالحوار والدليل، ولكن بالسيوف. فأي اتهامٍ يصله ضدّ أحدٍ بأنه زنديق، يأمر بقتله. وبهذه السياسة صار هناك مجال للوشايات ولتصفية الحسابات، ويذكر أن وزيره أبا عبيد اللّه معاوية بن يسار، وكان أديبًا عالمًا وهو أول من صنف كتابًا في الخراج، هذا الوزير حصل بينه وبين الربيع الحاجب سوء تفاهم، فأراد الحاجب أن يصفي حسابه معه، فوشى إلى المهدي أن وزيرك له ابن اسمه محمد، وهو متهم في دينه. فقال المهدي: عليَّ به، وقال: يا محمد اقرأ ـ القرآن ـ فاستعجم عليه القرآن (باعتباره شابًا وفي حضرة الخليفة ارتبك ولم يستطع القراءة)، فالتفت إلى أبيه وقال له: يا معاوية ألم تخبرني أن ابنك جامع للقرآن؟ فقال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكنه فارقني منذ سنين وفي هذه المدة نسي القرآن.

فقال المهدي: قم فتقرب إلى اللّه بدمه، فذهب ليقوم فوقع.

فتدخل أحد الحاضرين وهو العباس بن محمد قال: يا أمير المؤمنين إن شئت أن تعفي الشيخ، ففعل، وأمر المهدي بابنه فضُرب عنقه[1].

هذه الطريقة لا يقبل بها العقل والدين، فما هو السبيل إذن؟

الآخر: التأثير على الآخرين عن طريق الحوار والإقناع

وهو الطريق الذي يأمر به القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

الحكمة: من الإحكام، وهي وضع الشيء في موضعه. فحينما تريد أن تقنع شخصًا فاختر الكلام المناسب، والدليل المناسب، وبالأسلوب المناسب، والحكمة تعني مخاطبة

---

(١) محمد الخضري بك. الدولة العباسية، ١٩٧٠م (القاهرة: المكتبة التجارية)، ص٨٩.

العقل مع دليل وبرهان.

الموعظة الحسنة: تعني إثارة الوجدان والمشاعر الطيبة، بحيث لا تكون الموعظة خشنة.

وقد يكون لدى الطرف الآخر شبهة فكن مستعدًا واستقبل رأيه وتناقش معه، فهذا هو هدي السماء وتوجيهها، بأن تتناقش وتتجادل معه بأفضل أسلوب وأحسن خطاب ﴿وجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

□ أزمة الحوار في المجتمع الإسلامي

نحن نرى في هذا العصر، أن المجتمعات المتقدمة قطعت شوطًا في النضج في تعاملها الداخلي مع مشاكلها الفكرية، والسياسية، وفي المصالح المختلفة، فهم يختلفون، ولكن يتناقشون ويتحاورون ويصلون إلى حل وسط، ويتعايشون مع اختلافاتهم المتنوعة في مختلف الميادين والأبعاد. أمّا في مجتمعنا الإسلامي، هذا المجتمع الذي كان يجب أن يكون نموذجًا في علاقاته الداخلية، بنص القرآن الكريم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١١٠]، نجد واقعنا لا يعكس تلك الصورة المشرقة التي يريدها لنا القرآن الكريم. ولذا تجد مجتمعاتنا تعيش أزمات متعددة على هذا الصعيد، وهذه الأزمات على نوعين: أزمات متفجرة، وأخرى بمثابة نار تحت الرماد يُمكن أن تتفجر في أي وقت. لماذا؟

لأننا لا نسلك طريق الحوار، وهذا قد يكون من تأثير العصبية الجاهلية، بعكس الهدي الإسلامي، والذي من أبرز معالمه: التسامح، والاحترام المتبادل، ولكن رواسب العصبية الجاهلية لم تتلاشَ.

وفي بعض الأحيان تحصل فتن ومشاكل وصراعات دون مبرر وسبب.

فقد نقل عن سبب إحدى المعارك الكبيرة في تاريخ العرب أن رجلا مدَّ رجليه في

وسط الطريق وصاح: من كان رجلًا فليبعد رجلي عن هذا الطريق. أحد المارّة لم يتحمل هذا الكلام، فأخذ سيفه وقطع رجله. وبسبب هذا الحدث البسيط حصلت بين القبيلتين حربٌ شعواء نتيجة تصرف أحمق.

وفي واقعنا الاجتماعي نطلَّع أحيانًا على بعض المشاكل وعند التدخل لحلها نجد أن أصلها تافه لا يستحق أن تحصل بسببه مشكلة.

وتجد هذه الحالة سائدة في محيطنا الإسلامي والعربي على مختلف الصُّعد والمستويات، سواءً: العائلي أو السياسي أو الاجتماعي أو المذهبي، ولذلك ترى في بلدان المسلمين كأفغانستان وفلسطين ولبنان والعراق والصومال والسودان مشاكل متعددة.

والسؤال لماذا هذه المشاكل المتراكمة في المحيط الإسلامي والعربي؟ بينما نجد انخفاض مستوى المشاكل في المجتمعات الأخرى، أليس عندهم تضارب في المصالح أيضًا؟

بلى، والمصالح هناك أضخم بكثير مما هي عليه في مجتمعاتنا الإسلامية والعربية. ونجدهم يختلفون وتتضارب مصالحهم، وما يُميزهم امتلاكهم لمنهجية في التعامل مع مشاكلهم. ونحن مع الأسف ليست عندنا هذه المنهجية.

وبلادنا لا تخلو من هذا النوع من المشاكل الاجتماعية التي لا مبرر لها، ففي تاريخ ١٧/ ١٢/ ١٤٢٧هـ قرأت في (جريدة اليوم) خبرين عن مناسبتين متباينتين.

الخبر الأول: يتحدث عن صراع في إحدى مناطق المملكة بين أشخاص حصل بينهم اختلاف في المقبرة، جاء في الخبر: أن المعزين اشتبكوا مع بعضهم البعض خلال تشييع الجنائز، بسبب ملاسنة بين عدد منهم وأسفر الشجار عن إصابة البعض بإصابات مختلفة.

وتعود تفاصيل الواقعة إلى مشادة كلامية بين اثنين من المعزين، إثر خلاف قديم

بينهما، تحول إلى تشابك بالأيدي. ثم تدخل بعض الحضور، وتطور التشابك إلى استخدام العصي، وتحولت المقبرة إلى حلبة مصارعة، وقد ساهمت الدوريات الأمنية في تهدئة الخلاف، وأسفر التشاجر عن إصابة أربعة أشخاص إصابة أحدهم بالغة.

مع العلم أن الإنسان في المقبرة ينبغي أن يتذكر الموت والحساب فيخشع قلبه، ولكن هذا ما حصل وكما قال الشاعر القديم: فإن الحرب أولها كلام.

الخبر الآخر: نشرته الجريدة وفي اليوم نفسه عن مدينة الخبر، يتحدث عن خلاف حوّل حفلة عرس إلى مأتم بسبب خلاف بين أهل العريس وأهل العروس، وسالت فيه الدماء، وتحول الفرح إلى حزن وانتهى في مركز للشرطة.

ما هذه الحالة المتخلفة؟

وتبرز حالة الخلاف واضحةً في المجال المذهبي، ومن آخر الأحداث، مؤتمر الدوحة في التقريب بين المذاهب الإسلامية[١]، ومع أن المؤتمر للتقريب، إلا أننا وجدنا حالة التشنج واضحة في بعض الكلمات التي ألقيت في المؤتمر. بالطبع وجود هذا اللقاء أفضل من عدمه، والمصارحة طريقٌ للتعارف وإيضاح الصورة للجميع، وهذا أفضل من أن تبقى الخلافات محبوسة في النفوس، فيعيش الجميع حالة التباعد والاحتقان.

وكما ذكرت، فإن الأفراد والجماعات في المجتمعات الناضجة إذا اختلفوا، يلتقون ويتحاورون حتى يصلوا إلى حل وسط، ويتفقون على نقاط مشتركة، بينما في المجتمعات التي لا تمتلك هذا النضج، فإن الاختلاف بين أفرادها يؤدي إلى القطيعة والتباعد.

وهنا نذكر حادثةً حصلت في التاريخ العربي لنبينا محمد ﷺ قبل البعثة، وكان عمره الشريف خمسًا وثلاثين سنة، عندما أراد العرب تجديد بناء الكعبة، وحصل بين القبائل

(١) مؤتمر الدوحة للتقريب بين المذاهب الإسلامية، نظمته جامعة قطر بالتعاون مع جامعة الأزهر بمصر والمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية بإيران، في الفترة من ٢٠ ـ ٢٢ يناير ٢٠٠٧م الموافق ٣-٥ محرم ١٤٢٨هـ في العاصمة القطرية الدوحة.

خلاف حول أي قبيلة يكون لها شرف وضع الحجر الأسود في مكانه. هذا الخلاف كاد أن يؤدي إلى حرب ضروس، لولا أن أحد الحكماء أشار عليهم أن يحتكموا لأول من يدخل عليهم المسجد الحرام، واتفقوا على ذلك، فكان أول من دخل عليهم رسول اللّه، فلما أن رأوه قالوا: جاء الصادق الأمين، قبلنا به حكمًا. فطرحوا عليه المشكلة. فقال: آتوني برداء واسع ووضع الحجر فيه، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة طرفًا من الرداء، حتى إذا اقتربوا من مكان الحجر استلمه رسول اللّه ﷺ ووضعه في موضعه.

فالمشاكل لا تستعصي على الحل إذا أتيح للعقل أن يتدخل في الأمر.

واليوم تعيش أمتنا الإسلامية المشكلة المذهبية الطائفية التي يراد تفجيرها في هذا الوقت العصيب. ولو كانت المسألة بيد العقلاء لهان الأمر كثيرًا، إلا أن الساحة متروكة للمتطرفين وللمتشنجين، إضافة لوجود إرادات مصلحية، سياسية، تريد أن تفجر أوضاع الأمة، وتشغلها بهذه المشكلة. وإلاّ فإن المذاهب ليست جديدة، والاختلاف المذهبي أمر تاريخي منذ أربعة عشر قرنًا، وكنت أقول لبعض العلماء السنة كل الإشكالات التي عندكم على المذهب الشيعي قديمة، والإجابات التي لدينا قديمة قالها علماؤنا، فإلى متى نبقى في هذه القوقعة العمياء؟

هنا تكمن أهمية الحوار والتقارب. فلماذا التباعد؟ ولماذا الاتهامات؟ ولماذا نترك الفرصة للأعداء ليستفيدوا من هذه الخلافات على حساب مصالحنا وكرامتنا ومستقبلنا؟

وهناك علماء في هذا العصر تحدثوا بصوت العقل والمنطق، منهم الشيخ علي ـ أبو الحسن ـ الخنيزي رحمه الله (١٢٩١هـ – ١٣٦٣هـ) الذي ألف كتاب (الدعوة الإسلامية إلى وحدة أهل السنة والإمامية)[1] فيما يزيد على الألف صفحة.

---

(١) الشيخ علي أبو الحسن الخنيزي.الدعوة الإسلامية إلى وحدة أهل السنة والإمامية، الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ، (بيروت: مطبعة الإقبال).

وكذلك الشيخ محمد صالح بن الشيخ علي بن الشيخ سليمان آل الشيخ مبارك (١٣١٨هـ ـ ١٣٩٤هـ) الذي تولى القضاء في منطقتنا عام ١٣٧٦هـ حتى وفاته، يعني ثمانية عشر عامًا.

له كتاب اسمه (الدعوة في كلمة التوحيد)[1] اتبع فيه طريق التقريب بين المسلمين ودعوتهم إلى فهم بعضهم بعضًا، قبل أن يكيل أحدهم الاتهامات الجائرة لإخوانه، مؤكدًا على أهمية الوحدة في كل حال وزمان ومكان.

فما أحوجنا إلى الأصوات التي تتحدث بصوت العقل والمنطق، حتى نعالج الأمور بالحوار وليس بالتهييج وبالتهريج. وعلينا أن نعي الأمر جيدًا فإلى أين ستصل بنا هذه التعبئة والتعبئة المضادة؟

نحن أبناء وطن واحد، وكلنا في قارب واحد، فلماذا نعطي الفرصة للأعداء؟ والمشكلة الكبرى أن آثار التعبئة تظهر على حياة المواطنين وعلاقاتهم مع بعضهم، عندما يلتقي أبناء الوطن في مختلف الأماكن، كالدوائر الحكومية، والجامعات، والمدارس، والأماكن العامة، وهذا خطرٌ كبير يجب علينا أن نُجنّب بلادنا الوقوع فيه.

□ قبسات من رؤية الإمام الحسين عليه السلام وسيرته

كثير من الناس يعرفون عن الحسين عليه السلام بأنه مظلوم، ويعرفون عن المآسي والآلام التي تحملها، وهي عظيمة ومهمَّة. ولكننا يجب أن نتعرف أيضًا على مدرسة الإمام الحسين عليه السلام ونهجه على صعيد الدعوة والحوار.

فمن كلماته عليه السلام أنه قال: «لا تتكلّمنَّ فيما لا يعنيك، فإني أخاف عليك الوزر، ولا تتكلّمنَّ فيما يعنيك حتى ترى للكلام موضعًا، فرب متكلم قد تكلم بالحق فعِيب. ولا

(١) الشيخ محمد صالح آل الشيخ مبارك الخطي الصفواني. الدعوة في كلمة التوحيد، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، (بيروت: شركة دار المصطفى لأحياء التراث).

تمارين حليماً ولا سفيهًا، فإن الحليم يقليك، والسفيه يؤذيك»[١].

وفي الفقرات التالية بعض القبسات من سيرة الإمام الحسين عليه السلام في إطار الموضوع الذي نتحدث فيه.

اللباقة في النقد

حينما ترى إنسانًا مخطئًا في رأيه أو تصرفه، ينبغي أن تحاول إرشاده، ولكن بلباقة، والبعض من الناس لا يجيدون هذا الأسلوب، فتراهم يستخدمون التوبيخ والردع فورًا وهذا خطأ.

فلنتأمل هذا الموقف من سيرة الإمام الحسين: مرّ الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام وهما صغيران على شيخ يتوضأ وهو لا يحسن الوضوء، طبعًا المسؤولية تقتضي توجيهه وإرشاده، وباعتبار أن الرجل كبير في السن وهما صغيران، فكّرا في أسلوبٍ لبق بحيث لا يجرحان مشاعر الرجل وأحاسيسه، فالهدف إرشاده، أقبل أحدهما عليه وقال: «أيها الشيخ كن حكما بيننا يتوضأ كل واحد منا»، فتوضآ ثم قالا: «أيُّنا أحسن؟»، قال: كلاكما تحسنان الوضوء ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يكن يحسن وقد تعلم الآن منكما وتاب على يديكما ببركتكما وشفقتكما على أمة جدّكما[٢].

تجنب الجدل العقيم

روي أن رجلًا قال للإمام الحسين: اجلس حتى نتناظر في الدين. فقال: «يا هذا أنا بصير بديني مكشوف عليّ هداي فإن كنت جاهلًا بدينك فاذهب واطلبه؟، مالي وللمماراة! وإن الشيطان ليوسوس للرجل ويناجيه ويقول: ناظر الناس في الدين كيلا

---

(١) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار ج٧٥، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ، (بيروت: دار إحياء التراث الإسلامي)، ص١٢٧، حديث١٠.

(٢) بحار الأنوار. ج٤٣، ص٣١٩.

يظنوا بك العجز والجهل»[١].

وهذا درس بليغ يجب أن نتأمل فيه، إن الإنسان ينبغي أن لا ينساق إلى الجدل العقيم. وأحب أن ألفت النظر إلى أن هذا الكلام الطائفي المذهبي الذي يملأ الأجواء يريد إشغال الناس بالجدل العقيم، ونصيحتي لنفسي ولجميع إخواني المواطنين بأن يتجنبوا الدخول في هذا الجدل.

في بعض الأحيان ترى في المدرسة، أو الجامعة، أو في أي مكان جدلًا من وحي ما يسمعه الناس من الفضائيات، ويتصور البعض أن واجبه الدفاع، وإذا لم يناقش يُصبح ضعيفًا، ومن هذا المنطلق يندفع البعض للتجاوب مع هذه المجادلات العقيمة، التي لا يُعلم إلى أين ستنتهي. فلا يتصور أحد أنه باستجابته يخدم المذهب والعقيدة، فهذا التصور خطأ.

وفي كثير من الأحيان يكون هدف الطرف الآخر من النقاش التعبئة واصطناع المشكلة، وقد شاهدنا وسمعنا الكثير على هذا الصعيد. ولهذا يصف القرآن الكريم المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[سورة الفرقان، الآية: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾[سورة الفرقان، الآية: ٦٣].

لوا قرأنا كتب الحديث، كالكافي وبحار الأنوار، لوجدنا روايات كثيرة عن أئمتنا عليهم السلام حول المناظرة والجدل والمراء في الدين، وهي تنهى عن هذه الحالة، الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إياكم والخصومة في الدين فإنها تشغل القلب عن ذكر اللّه عز وجل»[٢]، «لا تخاصموا الناس لدينكم، فإن المخاصمة ممرضة للقلب... ذروا الناس فإن الناس أخذوا عن الناس»[٣]. والواضح أنك لا تستطيع تغيير قناعات الآخرين لأنهم

---

(١) المصدر نفسه. ج٢، ص١٣٥، حديث٣٢.

(٢) بحار الأنوار. ج٢، ص١٢٨، حديث٦.

(٣) المصدر نفسه. ج٢، ص١٣٣، حديث٢٤.

أخذوا معارفهم من مشايخ يعتبرونهم أجلاء ويحترمونهم، وهناك رواية عن الإمام الباقر عليه السلام تؤكد على ضرورة الابتعاد عن الجدل والمناظرات العقيمة فتصف الشيعة بوصفٍ عجيب، يقول الإمام: «إنما شيعتنا الخرس»(١)، تعبيرًا عن ابتعادهم عن هذه الحالة العقيمة.

حتى إن بعض تلامذة الإمام الصادق عليه السلام قال للإمام: بلغني أنك كرهت مناظرة الناس؟ قال: «أما كلام مثلك فلا يكره، من إذا طار يحسن أن يقع، وإن وقع يحسن أن يطير، فمن هكذا لا نكرهه»(٢)، وقال عبدالأعلى: قلت لأبي جعفر: إن الناس يعيبون عليّ بالكلام، وأنا أكلم الناس. فقال: «أما مثلك من يقع ثم يطير فنعم، وأما من يقع ثم لا يطير فلا»(٣).

من هنا نؤكد على أن أي شخص لديه المقدرة على معالجة الموقف بالطريقة السليمة يصح له أن يناقش، أما إذا كان عاجزًا عن ذلك كأن تكون معارفه محدودة، أو لا يقدر على ضبط أعصابه فإن الجدل ليس من مصلحته، وإن المذهب لا ينتصر بالجدل، إنما ينتصر بالعمل الصالح.

إثارة الوجدان والضمير والقيم الهادية

في طريق الإمام الحسين إلى العراق مرّ بمنطقة تسمى (زرود) ووجد هناك خيمة زهير بن القين، وكان عثماني الهوى، أي ممن يؤيدون الطلب بثأر عثمان، وبالتالي موقفه متأثر بالموقف الأموي. تُشير الروايات إلى أن زهيرًا كان حريصًا على مخالفة الحسين عليه السلام في الطريق، حتى لا يتورط في لقائه، ولذا لم يتفق أن وقف ركب الحسين عليه السلام وركب زهير في مكانٍ واحد، طيلة طريق الحسين عليه السلام إلى العراق، إلا في هذه المنطقة (زرود)، إذ لم يكن

(١) بحار الأنوار. ج٢، ص١٣٥، حديث٣٣.
(٢) المصدر نفسه. ج٢، ص١٣٦، حديث٣٩.
(٣) المصدر نفسه. ج٢، ص١٣٦، حديث٣٨.

لزهير خيارٌ آخر.

فبعث إليه الإمام عليه السلام رسولًا يدعوه إليه، قال الراوي: فبينا نحن جلوس نتغذى إذ أقبل رسول الحسين فسلم، وقال: يا زهير بن القين إن أبا عبد اللّه الحسين بن علي بعثني إليك لتأتيه، قال: فطرح كل إنسان ما في يده حتى كأننا على رؤوسنا الطير.

فقالت له زوجته: أيبعث إليك ابن رسول اللّه ثم لا تأتيه؟ سبحان اللّه لو أتيته فسمعت من كلامه ! فأتاه زهير بن القين، فما لبث أن جاء مستبشرًا قد أسفر وجهه، فأمر بفسطاطه ومتاعه فحمل إلى الحسين، ثم قال لامرأته: أنت طالق! الحقي بأهلك، فإني لا أحب أن يصيبك من سببي إلا خير، ثم قال لأصحابه: من أحب منكم أن يتبعني وإلا فإنه آخر العهد.

وفي رواية: من أحب منكم الشهادة فليقم ومن كرهها فليتقدم.

إني سأحدثكم حديثًا، غزونا (بلنجر) ففتح اللّه علينا وأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان الفارسي: أفرحتم بما فتح اللّه عليكم وأصبتم من المغانم؟ فقلنا: نعم. فقال لنا: إذا أدركتم شباب آل محمد ـ وفي رواية: سيد شباب أهل محمد ـ فكونوا أشد فرحًا بقتالكم معهم بما أصبتم من الغنائم، فأما أنا فأستودعكم اللّه، فقالت له زوجته: خار اللّه لك وأسألك أن تذكرني يوم القيامة عند جد الحسين [1].

وفي موقف آخر مع أشد الأعداء للحسين عليه السلام، الذي قاد الجيش ضده، وهو عمر بن سعد، مع ذلك تجد الإمام الحسين عليه السلام وفي اليوم التاسع من المحرم يطلب من ابن سعد اللقاء، فيتمنع، وفي الأخير وافق، تقول الرواية:

قال له الحسين: ويحك يا بن سعد ! أما تتقي اللّه الذي إليه معادك أراك تقاتلني وتريد قتلي، وأنا ابن من قد علمت، دع هؤلاء القوم واتركهم وكن معي، فإنه أقرب لك

---

(١) حياة الإمام الحسين. ج٣، ص٦٧.

إلى اللّه تعالى.

فقال له: يا حسين إني أخاف أن تُهدم داري بالكوفة، وتنهب أموالي.

فقال له الحسين: أنا أبني لك خيرًا من دارك.

فقال: أخشى أن تؤخذ ضياعي بالسواد.

فقال له الحسين: أنا أعطيك من مالي البغيبغة وهي عين عظيمة بأرض الحجاز، وكان معاوية، أعطاني في ثمنها ألف ألف دينار من الذهب فلم أبعه إياها، فلم يقبل عمر بن سعد شيئًا من ذلك.

فانصرف عنه الحسين عليه السلام وهو غضبان وهو يقول: ذبحك اللّه يا بن سعد على فراشك عاجلًا، ولا غفر لك يوم حشرك ونشرك، فو اللّه إني لأرجو أن لا تأكل من بر العراق إلا يسيرًا.

فقال له عمر بن سعد مستهزئًا: يا حسين إن في الشعير عوضًا عن البر[1].

هذا هو نهج الإمام وسيرته، فحريٌّ بالأمة أن تستقي من هذا النهج النبوي ما ينير لها طريق التقدم والازدهار.

---

(١) حياة الإمام الحسين. ج٣، ص١٣٣.

الإمام الحسين وحركته السلمية

- ثقافة السلم وثقافة العنف
- العنف وتهديد الأمن الاجتماعي
- التزام الإمام الحسين بالسلم في نهضته

"﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٠٨]"

□ ثقافة السلم وثقافة العنف

الإنسان باعتباره مدنيًّا يعيش ضمن محيط اجتماعي، فإن الأجواء التي يتربى فيها، والثقافة التي يعيش ضمنها توجه نفسه وتؤثر على سلوكه. فإذا نشأ في مجتمع تسوده الرحمة والمحبة والتكافل، فإن ذلك يهيئه نفسيًّا لكي يسلك طريق السلم والمحبة والتعامل الصحيح في حياته. أما إذا نشأ في أجواء قاسية جافة، أو كانت الثقافة السائدة في مجتمعه ثقافة تشجع على العنف، فإن هذا المجتمع ينتج أشخاصًا متمردين وعنفيين.

ولهذا نجد أن الإسلام يحرص على أن يوفّر أجواء اجتماعية محاطة بالرحمة والمحبة، فيُشجّع الوالدين على أن يغمرا الطفل بالعطف والحنان، وقد ورد في الأحاديث أن تقبيل الأب لولده له فيه أجر، ففي الحديث عن رسول اللّه ﷺ قال: «من قبّل ولده كتب اللّه له حسنة»[1]، وعنه ﷺ أنه قال: «أكثروا من قبلة أولادكم فإن لكم بكل قبلة درجة في الجنة»[2].

وفي روايةٍ أن أحدهم رأى رسول اللّه ﷺ وقد أجلس الحسنين على فخذيه وكان

(١) وسائل الشيعة. ج٢١، ص٤٨٥، حديث٢٧٦٥٥.

(٢) رضي الدين أبي نصر الحسن بن الفضل. مكارم الأخلاق، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي)، ص٢١١.

يقبل هذا تارة ويقبل هذا أخرى، فقال: يا رسول اللّه إن لي عشرة من الأولاد ما قبلت واحدًا منهم، فقال رسول اللّه: «ما عليّ منك أن نزع اللّه الرحمة منك»[١]، وفي الوسائل[٢] قال: «من لا يرحم لا يرحم».

فينبغي أن يعيش الولد في ظل المحبة والحنان منذ صغره.

والإسلام يأمر كل أبناء المجتمع أن يعطفوا على الصغير، وهذه من آداب الإسلام ومن توجيهاته السامية، كما قال رسول اللّه ﷺ: «وقروا كباركم وارحموا صغاركم»[٣].

إنه يُريد للإنسان أن يعيش في مجتمع تسوده الرحمة وليس فقط ضمن العائلة، وبذلك تنعكس هذه التربية على سلوكه فتراه يحترم هذا ويُقدّر ذاك، ويصل أرحامه، ولا يُؤذي جيرانه.

وفي الإسلام تعاليم خاصة باليتيم لأنه فقد أحد الوالدين أو كليهما باعتبارهما الجهة التي تغمره بالعطف والرحمة بشكل أساس، لذا يأمر الإسلام بأن تكون لليتيم معاملة خاصة، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ [سورة الضحى، الآية: ٩]، لكي يتربى هذا اليتيم في أجواء الرحمة والسلام.

أما إذا تربى الإنسان في أجواء قاسية جافة، لا أحد يعتني به، أويعطف عليه، فهذا الإنسان لا يُمكن أن تتوقّع منه إلا ذات الطريقة التي عاشها في صغره، فقد يكون عنده حس انتقام من المجتمع ومن المحيط حوله، يتعامل بنفس الجفاف والقسوة.

ولهذا تجد الإسلام يحذر من وجود حالات الفقر والحاجة والظلم في المجتمع، لما تنتجه هذه الحالات من ردات فعل سلبية تجاه المجتمع، ولهذا ورد في الحديث عن رسول

(١) مكارم الأخلاق. ص٢٢٠.
(٢) وسائل الشيعة. ج٢١، ص٤٨٥، حديث٢٧٦٥٧.
(٣) بحار الأنوار. ج٩٣، ص٣٥٧.

اللّه ﷺ قال: «كاد الفقر أن يكون كفرًا»[١]. كما أن لأبي ذر الغفاري كلمة جميلة يقول فيها: إذا ذهب الفقر إلى بلدٍ قال له الكفر خذني معك[٢].

تحية الإسلام

ولأن الإسلام يحرص على أن يعيش الإنسان في ظل ثقافة السلم والسلام، لذا شرّع المبادرة بالتحية بالسلام: (السلام عليكم)، فقد ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «إن السلام اسم من أسماء اللّه تعالى فأفشوه بينكم»[٣]، وورد عنه: «أبخل الناس من بخل بالسلام»[٤]. وجاء عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «إنّ اللّه عز وجل يحب إفشاء السلام»[٥]، وتعاليم الإسلام تشجّع على البدء بالسلام، حيث جعلته مستحبًا، ورد عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «السلام تطوع والرد فريضة»[٦]، وبالسلام يُرسل الإنسان رسالة اطمئنان لمن يلتقيه وكأنه يقول له: لن تنال مني إلا خيرًا.

هكذا يوفر الإسلام هذه الثقافة للإنسان بحيث يكون مهيأً للسلم والتعاون مع الآخرين في حياته، فتدفعه هذه الثقافة للتفكير في الآخرين لا أن يركز على ذاته فقط، وفي المقابل فإن الثقافة التي تنتج العنف، هي ثقافة تجعل الإنسان أنانيًا متمحورًا حول ذاته ورغباته، ولا يهمه أمر الآخرين، هذه الثقافة تهيئ أرضية العنف لدى الإنسان، لأنه لا يبالي بالآخرين ويهتم بنفسه فقط. وقد تكون مصالحه تقتضي منه أن يعتدي على الآخرين.

وهنا مسألة مهمة: ثقافة الإسلام تُربي الإنسان على أن لا يهتم بنفسه فقط، إذ عليه

(١) الكافي. ج٢، ص٣٠٧.
(٢) محمد جواد مغنية. الشيعة في الميزان، الطبعة الرابعة ١٣٩٩هـ، (بيروت: دار التعارف)، ص٣٦٤.
(٣) آقا حسين البروجردي. جامع أحاديث الشيعة. ج٢٠، الطبعة الأولى١٤١٦هـ، (قم المقدسة)، ص١١٨، حديث١٢.
(٤) مستدرك الوسائل. ج٨، ص٣٥٨، حديث١.
(٥) جامع أحاديث الشيعة. ج٢٠، ص١١٦، حديث١.
(٦) وسائل الشيعة. ج١٢، ص٥٨.

أن يهتم بالآخرين: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[سورة النحل، الآية: ٩]، أي الإحسان إلى الآخرين. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الخلق عيال الله عز وجل فأحبهم إليه أنفعهم لعياله»[1].

وهذه الثقافة توجه الإنسان إلى أن أهم لذة تحققها ليست تحقيق رغباتك الشخصية المادية، بل هي تلك اللذة المعنوية التي تكمن في خدمتك الآخرين.

وقد سئل أحد العلماء الصالحين: إذا لم يبقَ من عمرك إلا ساعة واحدة ففيم كنت تصرفها؟

قال: أجلس على باب داري أنتظر صاحب حاجة فأقضي له حاجته. وهذه هي ثمرة تعاليم الإسلام.

وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ توجّه الإنسان للاهتمام بحاجات الآخرين، بل يحض القرآن على الإيثار ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَو كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[سورة الحشر، الآية: ٩]، ويروي لنا من سيرة أهل البيت أروع الأمثلة في ذلك، يقول تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّه لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا﴾[سورة الإنسان، الآيتان ٨-٩]، هذه الآية تحكي القصة المعروفة[2] عن أهل البيت عليهم السلام، عائلة كاملة أفرادها صائمون: علي وفاطمة والحسنان عليهم السلام وخادمتهم، وعند الإفطار يقدّمون كل الطعام لمسكين ويبيتون جوعًا، وفي اليوم الثاني يأتيهم يتيم، وفي اليوم الثالث يأتيهم أسير، وفي الثلاثة أيام يقدمون طعامهم إلى آخرين إيثارًا منهم، ولذا خلّد القرآن هذه الحادثة العظيمة.

وفي التاريخ الإسلامي أحداث كثيرة تُجسّد هذه الثقافة، ففي إحدى المعارك

---

(١) الشريف الرضي. المجازات النبوية، ٠قم: منشورات مكتبة بصيرتي)، ص٢٤١.

(٢) لتفاصيل القصة يراجع تفسير مجمع البيان. ج١٠، ص٢٠٩، وبحار الأنوار. ج٣٥، ص٢٤٥، بالإضافة إلى كتب أسباب النزول.

الإسلامية، قال أحدهم: أتيت أتفقد الجرحى وكان عندي ماء، فأتيت ابن عمي وقلت له: أسقيك؟ فأشار برأسه أن نعم، فإذا أنا برجل يقول: آه! آه!

فأشار إليَّ أن انطلق إليه، فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم. فسمع آخر يقول: آه! آه!

فأشار أن انطلق إليه فجئته فإذا هو قد مات. فرجعت إلى الثاني فإذا هو قد مات. فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات(١).

هكذا نجد عمق الإيثار لدى أصحاب رسول اللّه.

هذه الثقافة تجعل الإنسان يمتنع عن الاعتداء على الآخرين، على دمائهم أو أرواحهم أو أموالهم. ففي الحديث عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه»(٢).

من جانب آخر فإن ثقافة القرآن تعتبر الاعتداء على شخص واحد اعتداءً على البشرية كلها: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَو فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[سورة المائدة، الآية: ٣٢]. وفي الحديث عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «لزوال الدنيا جميعًا أهون عند اللّه من دم يسفك بغير حق»(٣).

فهذه الثقافة تربي على رعاية حقوق الآخرين وعدم الاعتداء عليهم، قال تعالى: ﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[سورة المائدة، الآية: ٨٧]، وورد في الحديث عن أبي عبداللّه عليه السلام أنه قال: «من شرك في دم حرام بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين

(١) أبو عبداللّه محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. تفسير القرطبي ج١٨، الطبعة الأولى١٤٢٠هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٢٨.

(٢) الشيخ الصدوق. صفات الشيعة، (طهران: كانون انتشارات عابدي)، ص٣١.

(٣) المزي. تهذيب الكمال. ج٩، الطبعة الرابعة١٤١٣هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص٢٣٧، وكنز العمال. حديث ٣٩٩٤٧.

عينيه: آيس من رحمة اللّه»[١].

وفي الرواية أن النبي ﷺ بعد إكمال أعمال منى وقف بالمسلمين وقال: «يا أيها الناس أي يوم هذا؟» قالوا: يوم حرام، ثم قال: «يا أيها الناس فأي شهر هذا؟» قالوا: شهر حرام، قال: «أيها الناس أي بلد هذا؟» قالوا: بلد حرام، قال: «فإن اللّه عز وجل حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه»[٢].

ثقافة العصر المادية

ومن المؤسف أن البشرية اليوم تعيش في ظل ثقافة تنتج العنف وتربي على العنف، هذه الثقافة المادية التي تركز على محورية الذات، وتحرّض شهوات الإنسان وغرائزه، وتوفر عبر الإعلام مختلف الوسائل التي تدعم هذا التوجه.

هذه الثقافة التي تمجّد القوة والغلبة، وتغرس في الناس هذا التوجه، حتى الأطفال، من خلال أفلام الكرتون التي في غالبها ثقافة عنف.

إضافةً إلى أن مناظر العنف والدماء والقتل ما عادت مستنكرة كما في الماضي، فيوميًّا في نشرات الأخبار يرى الإنسان الأشلاء والجثث والقتلى والدمار، هذه المناظر التي كان الإنسان في الماضي ينهار بمجرد أن يسمع عنها لا أن يراها، أصبحت اليوم أمرًا مألوفًا وطبيعيًا عند الصغار والكبار. هذه المظاهر تنتج العنف وتروج له في المجتمعات. ولذلك تعاني مختلف المجتمعات من العنف والجريمة.

ففي أمريكا في كل ثانيتين ونصف تقع جريمة.

ويوجد في أمريكا أكثر من ٥ آلاف عصابة إجرامية منظمة.

---

(١) علاء الدين علي المتقي الهندي. كنز العمال، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، حديث ٣٩٩٣٥.

(٢) الخصال. ص٤٨٧.

وفي إحصائية استبيانية أجريت على مجموعة كبيرة من الأمريكيين، وقد سئلوا: ما أبرز المشاكل التي تواجهونها؟ فكان ما نسبته ٢١٪ أجابوا: جرائم العنف. و٤٠ ٪ من الأمريكيين يضطرون إلى تغيير نمط حياتهم خوفًا من الجرائم والمجرمين.

ومجتمعنا باعتباره جزءًا من هذا العالم، وتصله عبر الإعلام ووسائل الاتصال هذه الثقافة وأنماط السلوك المختلفة، لذلك أصبحنا نعيش مثل هذه المشكلة في مجتمعاتنا.

□ العنف وتهديد الأمن الاجتماعي

حينما تصبح حالات العنف طبيعية أمام الناس، وحينما يمجّد أصحاب القوة بدلًا من الوقوف مع المظلوم، هنا يُهدد أمن المجتمع. في حين أن ثقافة الإسلام تأمر المجتمع بالتعاطف مع المظلوم وإدانة الظالم. والقرآن الكريم يُخلّد إدانة لظلم وقع قبل آلاف السنين، لاعتداء وقع على مجموعة مؤمنة بغير حق، يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [سورة البروج، الآيات: ١-٤]. هكذا يُبرز القرآن هذه الحادثة وبهذا التهويل.

ونحن إذ نذكر المآسي والمظالم التي وقعت على أهل البيت إنما من أجل ترسيخ هذه القاعدة، وهي: التعاطف مع المظلومين.

وفي المقابل هناك ثقافة تُمجّد الظالمين، ولا تستنكر ما يقومون به من ظلم، وعند موت الظالم تكفيه الشهادتان!

وفي بعض كتب التراث نجد مقولات غريبة، ففي كتاب التهذيب، مثلًا، هناك روايات عن عمر بن سعد، وفي الترجمة يقال عنه: عمر بن سعد تابعي ثقة قتل الحسين[١]. وكأن جريمة قتل الإمام الحسين لا تعني شيئًا، ولا تستدعي الخدش بوثاقة فاعلها!!

(١) لقد استنكر بعض رجال الحديث توثيق عمر بن سعد، منهم ابن معين حيث قال: «كيف يكون من قتل الحسين ثقة؟»، تهذيب التهذيب. ج٧، ص٣٩٦.

أمن مجتمعنا... إلى أين؟

الأمن الاجتماعي موضوعٌ مهم جدًّا، فالإنسان يتطلع للعيش في مجتمع يأمن فيه على نفسه، وماله وعرضه، وهذا أهم معلم لسعادة الإنسان. ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «النعيم في الدنيا الأمن، وصحة الجسم، وتمام النعمة في الآخرة دخول الجنة»[1].

في الماضي كان الأمن في مجتمعنا متوفرًا، فالناس يأمنون على أنفسهم وبيوتهم وعيالهم وأموالهم، لم يكن مجتمعنا ملائكيًا، فقد تحدث جرائم وسرقات واعتداءات. ولكن هناك فرق بين أن تكون هذه حالات فردية محدودة، وبين أن تكثر وتقترب أن تكون ظاهرة.

ويستغرب الإنسان مما يسمعه بين آونة وأخرى من حالات الاعتداء على النفوس والأعراض والأموال، حتى لا نكاد نصّدق أن ما يحصل بالفعل يحدث في مجتمعنا الذي كنا نفخر به، ونتباهى أمام الآخرين. والحوادث في هذا الإطار كثيرة ومنها الاعتداء على النساء بسرقة حقائبهن وإيذائهن حال سيرهن في الشوارع والأسواق، وكذلك الاعتداء على الأطفال بالاختطاف، والاعتداء على العمالة الوافدة، التي كانت إلى وقت قريب تشعر بالاطمئنان لكونها تعمل في هذه المنطقة، وبعض هذه الجرائم تنقلها وسائل الإعلام والصحف المحلية، مما يؤكد أننا نعيش وضعًا خطيرًا مرعبًا، ويجب أن نعلن جميعًا حالة الطوارئ، ونعيد النظر في ثقافتنا وبرامجنا ومناهج تعليمنا، وكذلك أداء الأجهزة الأمنية والقضائية، فهذه الظاهرة بدأت تنمو، وقد سألت أحد المسؤولين في الجهات الرسمية، هل ما ينشر في الجرائد أمر مضخم؟ أجابني: بل إن ما يُنقل جزءٌ مما يحدث في المجتمع!

وتُشير التقارير الدولية أن أفضل بلد في العالم نجحت في تخفيض نسبة الجريمة هي اليابان، فما هو السبب؟

(١) الشيخ الصدوق. معاني الأخبار، طبعة ١٣٧٩هـ، (قم: مؤسسة النشر الإسلامي)، ص٤٠٨.

تقول الدراسات يكمن السبب في كثرة المؤسسات الشبابية في اليابان حيث يوجد (٥٤٠) ألف مؤسسة تهتم بالشباب، واحدة من تلك المؤسسات اسمها «وحدة الإرشاد والتوجيه للشباب»، فيها (١٢٦) ألف متطوع من الشباب، وهناك مؤسسة المرأة للتأهيل، تخص النساء فقط، وفيها (٣٦٠) ألف امرأة متطوعة.

فوجود المؤسسات التي تعنى بالشباب وتستقطبهم أمرٌ ضروري، ويُساعد على تخفيف حدّة الجرائم في المجتمع. وعلينا أن نغتنم فرصة تواجد الشباب في المجالس الحسينية لتوجيه الشباب وتشجيع المجتمع لمثل هذه المؤسسات.

كما أن علينا أن لا نُسرّ كثيرًا بما يحدث في عاشوراء من تفاعل مع الشعائر إذا لم نستثمرها في إصلاح السلوك الاجتماعي، إن هذا التفاعل يُحملنا مسؤولية كبيرة، وهي أن لا نغفل عمّا يجري في المجتمع، فالكلُّ مسؤول، والأجهزة الأمنية مطالبة ببذل المزيد من الجهد، صحيح أنها انشغلت بمواجهة الإرهاب، ولكن المواطنين يتوقعون دورًا أكبر في حماية الأمن الاجتماعي. والجهات القضائية كذلك عليها أن تكون أكثر صرامة في إصدار الأحكام، لأن العابثين إذا شعروا بوجود تساهل فإن ذلك يدفعهم لممارسة الجرائم وعدم الاكتراث بالعقوبة.

فينبغي أن يكون الردع بالمستوى المطلوب الذي يستحقه المجرم، لا أن نتساهل مع المجرمين، ونسمح للوساطات، فنحن في مرحلة نحتاج فيها للصرامة.

□ التزام الإمام الحسين بالسلم في نهضته

لماذا تحرك الإمام الحسين؟ هل في نهضته مخالفة لمنهج السلم؟

الإمام الحسين عليه السلام إنما تحرك حفاظًا على أمن الأمة، وحماية مصالحها، وقد رأى أن سلطة بني أمية لا تُقدّم للناس أمنًا، بل تعتدي عليهم، وقد قال فيهم أمير المؤمنين علي أبي طالب: «واللّه لا يزالون حتى لا يدعوا للّه محرمًا إلا استحلوه، ولا عقدًا إلا حلوه.

وحتى لا يبقى بيت مدر، ولا وبر، إلا دخله ظلمهم ونبا به سوء رعيهم، وحتى يقوم الباكيان يبكيان: باك يبكي لدينه، وباك يبكي لدنياه»[١].

بين الخلافة والملك

هذه الأمة التي كانت تعيش في ظل الخلافة الراشدة، التي انتهت باستشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وفجأة يُصبح يزيد أميرًا للمؤمنين!

الإمام الحسين عليه السلام التزم بوثيقة الصلح التي عقدها الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية، رغم نكث الطرف الآخر للوثيقة، ورغم كل التلاعب الذي حصل في بيت مال المسلمين، وقد أعلن ذلك معاوية حينما خاطب المسلمين بقوله: ما قاتلتكم لكي تصوموا ولا لتصلوا ولا لتزكوا ولا لتحجوا، وأعلم أنكم تفعلون ذلك، وإنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم، ولقد مكنني اللّه من رقابكم وأنتم كارهون.

وأشير هنا إلى كتاب جميل لمفكر إسلامي وداعية معروف وهو الشيخ أبو الأعلى المودودي وهو من كبار علماء المسلمين في هذا العصر، حصل على جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام سنة ١٩٩٧م. هذا العالم لديه كتاب مهم جدًّا اسمه (الخلافة والملك)[٢]، يتحدث فيه عن الخلافة التي انتهت بمقتل الإمام علي عليه السلام، ويقارنها بالملك العضوض الذي بدأته بنو أمية. ويُشير أبو الأعلى في كتابه إلى أن الدولة الأموية إنما تأسست بسبب الأرضية التي هيأتها البطانة التي أحاطت بالخليفة عثمان.

وقد انزعج البعض من هذا الكتاب بسبب تعرضه للصحابة، وقام الشيخ المودودي برد مفصل ألحقه في الطبعة الثانية وهي المتداولة، أشار فيه إلى أن احترام الصحابة، لا يمنع أن نأخذ الدروس من حياتهم، ولا يعني أن نسكت على الأخطاء، فبسكوتنا تُصبح شرعًا يسير عليه الناس.

---

(١) نهج البلاغة شرح محمد عبده، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، (بيروت: دار البلاغة)، خطبة رقم ٩٨.
(٢) أبو الأعلى المودودي، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ، (الكويت: دار القلم).

وأيضًا هناك كتاب للشيخ محمد قطب وهو عالم معروف من مصر أقام في المملكة وشارك في إعداد المناهج الدينية، عنوان كتابه: (كيف نكتب التاريخ الإسلامي)، يقول فيه: «مما لا شك فيه أن التاريخ السياسي للمسلمين هو أسوأ ما في تاريخهم كله ...، فما لا شك فيه أنه قد وقعت انحرافات كثيرة في المجال السياسي عن الخط الإسلامي الأصيل، وأن هذه الانحرافات قد وقعت في وقت مبكر من تاريخ الإسلام لم يكن ينبغي أن تقع فيه»[١].

والعجيب في أمر يزيد أنه كان يُمارس انحرافه تحت عنوان الإسلام، يقول ابن كثير في (البداية والنهاية) عن يزيد بن معاوية: «فيه خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك، وكان فيه أيضًا إقبال على الشهوات، وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات، وإماتتها في غالب الأوقات»[٢].

ويروي ـ ابن كثير ـ أيضًا: «أن يزيد كان قد اشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغنا والصيد واتخاذ الغلمان والقيان والكلاب والنطاح بين الكباش والدباب والقرود، وما من يوم إلا يصبح فيه مخمورًا، وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوق به، ويلبس القرد قلانس الذهب، وكذلك الغلمان، وكان يسابق بين الخيل، وكان إذا مات القرد حزن عليه»[٣].

هذا هو أمير المؤمنين!

وأعظم مما سبق، عندما أراد معاوية أن يجعل يزيدَ وليًا للعهد، خاطبه قائلا[٤]: يا

(١) محمد قطب. كيف نكتب التاريخ الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، (القاهرة: دار الشروق)، ص١٦.

(٢) ابن كثير الدمشقي. البداية والنهاية. ج٨، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٢٣٩.

(٣) المصدر نفسه. ج٨، ص٢٤٤.

(٤) البداية والنهاية. ج٨، ص٢٣٦.

بنيّ ما أقدرك على أن تصل حاجتك من غير تهتك يذهب بمروءتك وقدرك، ثم أنشده:

انصب نهارك في طلاب العلا واصبر على هجر الحبيب القريب
فباشر الليل بما تشتهي فإنما الليل نهار الأريب
غطى عليه الليل أستاره فبات في أمن وعيش خصيب
حتى إذا الليل أتى بالدجا واكتحلت بالغمض عين الرقيب
كم فاسق تحسبه ناسكًا قد باشر الليل بأمر عجيب
ولذة الأحمق مكشوفة يسعى بها كل عدو مريب

وحتى إن زياد بن أبيه عندما شاوره معاوية في أمر يزيد أشار عليه أن يتمهل عسى أن يتغير سلوك يزيد فيكون بالإمكان تسويقه، تقول الرواية التاريخية التي يرويها اليعقوبي في تاريخه[1] أن ابن زياد قال لمعاوية: ما يقول الناس إذا دعوناهم إلى بيعة يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبغات، ويدمن الشراب، ويمشي على الدفوف، وبحضرتهم الحسين بن علي، وعبد اللّه بن عباس، وعبد اللّه بن الزبير، وعبد اللّه بن عمر، ولكن تأمره، ويتخلق بأخلاق هؤلاء حولًا وحولين، فعسينا أن نموه على الناس.

هذا هو يزيد ملاعب القردة، وشارب الخمر، والمعلن للفسق، وقاتل النفس المحرّمة، وفي الأخير يُصبح أميرًا للمؤمنين، ولقد أجاد شاعر أهل البيت السيد جعفر الحلي حيث يصف الحالة بقوله:

لم أدر أين رجال المسلمين مضوا وكيف صار يزيد بينهم ملكا
العاصر الخمر من لؤم بعنصره ومن خساسة طبعٍ يعصر الودكا

لذلك أعلن الإمام الحسين موقفه من أول يوم في دار الوليد الوالي على المدينة حين طلب منه أن يبايع، عندها قال: «أيها الأمير إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف

---

(١) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر. تاريخ اليعقوبي. ج٢، طبعة ١٣٨٤هـ، (النجف: منشورات المكتبة الحيدرية)، ص٢٢٠.

الملائكة بنا فتح اللّه وبنا ختم اللّه ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله»[(١)].

وبالفعل أصرّ الإمام عليه السلام على موقفه، ولكن يزيدَ لم يستسغ ذلك، فأمر بفرقةٍ أن تمضي إلى مكة وأن تقتل الإمام الحسين عليه السلام ولو كان متعلقًا بالكعبة.

الحسين والنهضة السلمية

وعندما علم الإمام الحسين عليه السلام بالأمر تحرّك لتوعية الأمة لكي تتحمّل مسؤوليتها، أعلن حركته السلمية للتغيير دون أن يستخدم سلاحًا، وقال كلمته المشهورة التي تبين سبب خروجه: «أني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي وأبي[(٢)]».

وفي أكثر من مورد يعلن الإمام الحسين عليه السلام أن حركته سلمية وليست للحرب، ومن ذلك موقفه مع الحر بن يزيد الرياحي الذي قدم بألف فارس قد أنهكهم العطش[(٣)]، وقفوا أمام الإمام عليه السلام وقت الظهيرة، في شدة الحر، ورآهم الإمام عليه السلام وقد أشرفوا على الهلاك من شدة الظمأ، وكانت فرصة سانحة للإمام عليه السلام أن يقاتلهم ويستولي على عتادهم، لكنه رقّ لحالهم، وغضَّ النظر عنهم، وهو يعلم أنهم جاؤوا لقتاله وسفك دمه، وقد أشار عليه بعض أصحابه بذلك، إلا أن نهج الإمام ليس كذلك، وذلك لأن شعاره: «إني أكره أن أبدأهم بقتال»[(٤)]، ثم أمر أصحابه أن يسقوهم وأن يرشفوا خيولهم ترشيفًا.

من هنا يؤكد الإمام الحسين عليه السلام للأمة أنه لا ينبغي استخدام العنف والسلاح في

(١) السيد ابن طاووس. اللهوف في قتلى الطفوف، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، (قم: أنوار الهدى)، ص١٧.
(٢) لجنة الحديث في معهد باقر العلوم. موسوعة كلمات الإمام الحسين، الطبعة الثالثة١٤١٦هـ، (قم: دار المعروف)، ص٣٥٤.
(٣) حياة الإمام الحسين. ج٣، ص٧٤.
(٤) بحار الأنوار. ج٤٥، ص٥.

التغيير السياسي؛ لأن ذلك ليس في مصلحة المجتمع. وقد تحدث علماؤنا وفقهاؤنا عن هذا الجانب، ومن أبرزهم، المرجع الراحل السيد محمد الشيرازي ﷺ، الذي كتب في هذا المجال كتب عدة حول (اللاعنف في الإسلام) [1] وحول (السلم والسلام) [2]، وأكد فيها أنه لا مجال لفرض الرأي والتسلّط على الناس بالسلاح والقوة، وأن هذه الممارسات ليست من الإسلام في شيء.

ومع الأسف في عصرنا هذا شُوّهت سمعة الإسلام والمسلمين بسبب التصرفات الإرهابية التي لا تُريد للإسلام ولا للمسلين خيرًا، وبسببها فقدت الأمة أمنها واستقرارها، ولم يبق بلدٌ من بلاد المسلمين إلا وتضرر منها.

نسأل اللّه تعالى أن يقي الأمة شر الفتن، إنه على كل شيءٍ قدير.

(١) السيد محمد الشيرازي. اللاعنف في الإسلام، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، (بيروت: دار العلوم).
(٢) السيد محمد الشيرازي. السلم والسلام، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ، (بيروت: دار العلوم).

التنافس الإيجابي وتقدم المجتمع

- طموح التفوق
- مشروعية التنافس
- بين الصراع السلبي والتنافس الإيجابي

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[سورة الملك، الآية: ٢].

□ طموح التفوق

الإنسان من حبه لذاته يرغب أن يحوز أكبر قدر ممكن من المكاسب والمصالح، وفي بعض الأحيان قد لا يلتفت الإنسان إلى مكسب معين، فإذا ما رأى أن غيره قد أحرز هذا المكسب يحصل لديه تحفز نحو ذلك المكسب، وبالتالي فإن أي تقدم يحرزه إنسان في المجتمع قد يحفز الآخرين حتى يصلوا إلى مستواه، لوجود طموح التفوق.

وكحالة طبيعية في الإنسان السوي أنه يسعى جاهدًا ليكون هو المتقدم على الآخرين، وفي مختلف الميادين، بعكس الإنسان الخامل، فما الفرق بين الشخصيتين؟

الإنسان السوي يكون لديه طموح، والذي لا يملك طموحًا للتفوق هو إنسان خامل.

الإنسان السوي يتمنى الخير لنفسه، ويتمنى المصلحة الأكثر لذاته، ويرغب فيها، ويفتش عن الطرق التي يتقدم من خلالها كما تقدم الآخرون.

لكن الإنسان الخامل عادة ما يكون فاقدًا للثقة بنفسه، فيبحث عن المبررات، التي يُبرر بها تقاعسه.

المحور الأساس للتفوق

هناك عوامل مساعدة للتفوق والتقدم، ولكن المحور الأساس للتفوق هو إرادة الإنسان. فالإنسان الذي لديه إرادة يتجاوز الصعوبات والعوائق.

وهنا نذكر هذه القصة التي تكشف قيمة الإرادة: منذ ما يقرب من سنة كانت هناك إحدى الطالبات المتفوقات من المنطقة الشرقية في المملكة (مي الملحم)[1] التي حازت جائزة الأمير محمد بن فهد للتفوق العلمي (وهي جائزة تهدف لتحفيز الطلاب والطالبات للتفوق والتقدم في دراستهم) أربع مرات متتالية، في المرحلة الابتدائية (١٤١٢هـ) والمتوسطة (١٤١٨هـ) والثانوية (١٤٢١هـ) والمرحلة الجامعية (١٤٢٦هـ)، رغم أنها كانت مبتلاة بمرض مزعج وهو المرض المعروف بـ (أنيميا البحر الأبيض المتوسط) وهو مرض يصيب الدم ويحرم الإنسان من كريات الدم الحمراء التي تحمل الأوكسجين إلى القلب.

وقد اكتشف والداها مرضها بعد ولادتها بثلاثة أشهر وأصبحت بذلك تحتاج إلى نقل دم شهريًا.

وتبديل الدم ليس بالأمر اليسير فهو مرض صعب، ولكنها مع هذا المرض تفوقت في كل المراحل، وقد نشرت عنها الصحف في حينها.

هكذا إذا كانت لدى الإنسان إرادة للتقدم والتفوق يستطيع أن يتخطى العوائق وصعوبات الظروف التي يعيشها.

قصة من التراث

يقول الأصمعي: كنت أطوف بالبيت فوجدت شخصًا متعلقًا بأستار الكعبة وهو يدعو بإلحاح ويبكي: اللهم إني أسألك ميتة أبي خارجة، ويُكرر هذا الدعاء ببكاء.

يقول: تساءلت في نفسي ما هي ميتة أبي خارجة!! فهل هو حقق فتحًا كبيرًا

---

(١) جريدة اليوم، العدد ١٢٠٢٢، الصادر بتاريخ الاثنين١٧/ ٤/ ١٤٢٧هـ.

واستشهد، أو قام بإنجاز علمي ضخم ومات،.... يقول: بعد أن أكملت طوافي، جئت عند ذلك الرجل وتركته يهدأ قليلًا من بكائه وتضرعه وتهجده، ووجهت السؤال إليه: كيف كانت موتة أبي خارجه؟!

قال: ألا تعلم؟ قلت: لا!

قال: إن أبا خارجة أكل حتى امتلأ، وشرب حتى ارتوى، ونام في الشمس. فمات شبعان، ريان، دفآن.

بعض الناس ليس لديهم طموح فتراه يراوح مكانه فيقبل بأقل مستوى دراسي، وأقل مستوى وظيفي، وهذه طبيعة الإنسان الخامل، بينما الإنسان السوي يتطلع لأعلى مستويات الطموح في مختلف المجالات، يقول «أبو الطيب المتنبي»:

إذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير ... كطعم الموت في أمر عظيم

ووردت روايات ونصوص كثيرة تشجع الإنسان على علو الهمة، يقول الإمام علي: «خير الهمم أعلاها»، ويقول: «من رقى درجات الهمم عظمته الأمم»، وقال: «من شرفت همته عظمت قيمته»[1].

ونقرأ في دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام إذ يقول: «اللهم صل على محمد وآل محمد وبلغ بإيماني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين، وانته بنيتي إلى أحسن النيات، وبعملي إلى أحسن الأعمال»[2].

(١) عبدالواحد الآمدي التميمي. غرر الحكم ودرر الكلم، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي).
(٢) الإمام زين العابدين علي بن الحسين. الصحيفة السجادية، ص١٤٥.

□ مشروعية التنافس

إذا فكر كل إنسان سوي في أن يكون متفوقًا متقدمًا، فإن ذلك يؤدي إلى حصول تنافس في المجتمع، وهذه ميزة المجتمعات المتقدمة. بعكس المجتمعات الراكدة، فالناس فيها يميلون إلى السكون، فإذا كان هناك رأي سائد، أو فكرة رائجة، أو زعامة متمكنة، فإنهم ينزعجون من ظهور رأي آخر، أو فكرة أخرى، أو بروز زعامة جديدة.

والسبب في ذلك أن بروز أفكار جديدة، أو ظهور قوة جديدة في المجتمع، تخلق حالة من التنافس، وهذه الحالة غير مقبولة في المجتمعات الراكدة؛ لأنهم في الغالب يحملون شعار الحفاظ على الوحدة ضمن مجتمع واحد، وضمن حالة واحدة، معتقدين أن تعدد الآراء والأفكار والزعامات تُسبب تمزق المجتمع.

وفي الواقع فإن أي تقدم بالفعل يسبب مشكلات، وتحوطه عوائق، ولكن الركود بحد ذاته مشكلة أكبر، ويُحدث تخلفًا عظيمًا في المجتمع.

التنافس: حالة فطرية طبيعية يدعمها العقل، والمتنافس إنسان لديه طاقة وكفاءة، وهذا المتنافس إذا كان في مجتمعٍ متقدم تنمو طاقاته وقدراته، أما إذا كان في مجتمع راكدٍ متخلف فإن طاقاته تخبو وتوأد. وهذا الكلام يجري على الأفراد والجماعات.

وهنا كلمة رائعة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «الناس بخير ما تفاوتوا فإذا تساووا هلكوا»[1].

فالتفاوت هو الذي يذكي روح التنافس والتقدم.

والتنافس في مصلحة المجتمع، حيث يفجر كل إنسان طاقته وقدراته، وكل جهة من جهات المجتمع تسعى للتقدم، وهذا من مصلحة المجتمع.

(١) محمد بن علي بن بابويه القمي. أمالي الشيخ الصدوق، طبعة ١٣٨٩هـ، (النجف: المطبعة الحيدرية)، ص٥٣١.

ونحن نرى في الأمور الاقتصادية إذا كان هناك جهة واحده تحتكر السوق ولا يوجد من يُنافسها، فإن ذلك ليس في صالح المجتمع، لأن هذه الجهة ستتحكم في السوق، وتتحكم في الأسعار، ولا تهتم يتطوير منتوجها، وفي ذلك ضرر على الناس. ولكن إذا كان هناك تنافس وكان أمام الناس أكثر من خيار، فذلك من مصلحتهم. وهو دافع للمؤسسات لتقوي نفسها، وتطور إنتاجها، وأسلوب تعاملها، وهذا في صالح المجتمع.

والتنافس هو الذي ينضج الآراء، إذا كانت فكرة سائدة في المجتمع، فكيف نضمن أن هذه الفكرة ناضجة وأنها الأفضل والأصوب؟ لا يُمكن ذلك إلا من خلال ظهور فكرة أخرى، عندها سيكون نقاش حول الأفكار، فيتبين أي الأفكار أصوب وأحسن، وهذا الكلام ليس على صعيد الآراء والأفكار فقط، بل حتى على صعيد الزعامات والقوى في المجتمع.

تعاليم الإسلام تشجع على التنافس، وتدفع الناس نحوه في العمل، وفي مختلف المجالات، يقول تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، بمعنى أن الحياة هدفها أن تتفجر الطاقات والكفاءات، وهذا لا يحصل إلا بالتنافس، وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾، أي فليتنافس الناس في أعمال الخير ـ فالمجال مفتوح، والتنافس مطلوب. وفي آية أخرى، يقول اللّه تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٤٨]، استبقوا من المسابقة بمعنى كل شخص يحاول أن يصل قبل الآخر إلى الخيرات. وفي آية أخرى، يقول تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[سورة المؤمنون، الآية: ٦١].

مسألة فقهية:

هناك مسألة فقهيه يذكرها الفقهاء في كتاب صلاة الجماعة حول من يُصلي بالناس

جماعة وهي: إذا تشاح الأئمة رغبة في ثواب الإمامة[١].

قد يستغرب البعض: كيف يتنافس أئمة على صلاة الجماعة ؟! – الفقهاء يقولون نعم؛ لأن صلاة الجماعة فيها أجر، والإنسان يكون إمامًا أفضل له من أن يكون مأمومًا. أنا أريد أن أكون إمامًا حتى يكون ثوابي أكثر.

يقول الفقهاء: يتقدم من يقدّمه المأمومون. فإذا اختلفوا، فهناك مقاييس للتقديم: الأفقه ـ ثم الأورع ـ ثم الأكبر سنًّا، في حال تساويهم في مختلف المقاييس.

وبالتالي فالتنافس مشروع حتى في أعمال العبادة. والإسلام لا يقمع حالة التنافس بل يذكي حالة التنافس في الاتجاه الإيجابي.

ونحن نقرأ في سيرة نبينا محمد ﷺ كيف كان يثير التنافس الإيجابي في نفوس أصحابه، ويقر هذه الحالة، كما في مشهد حديثه مع الأنصار بعد غزوة حنين.

تقول الرواية: أعطى الرسول ﷺ ما أعطى من العطايا لقريش من المؤلفة قلوبهم، ولم يكن للأنصار منها شيء، حتى كثرت منهم القالة، وقال قائلهم: (لقي والله رسول الله ﷺ قومه)... وقال سعد للرسول: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

فقال الرسول: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟».

قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي. قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة».

فلما اجتمعوا أتاهم الرسول ﷺ فحمد الله وأثنى عليه وقال: «يا معشر الأنصار، ما مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم! ألم آتكم ضُلَّالًا فهداكم الله،

---

(١) محمد كاظم الطباطبائي اليزدي. العروة الوثقى، ج٢، الطبعة الأولى١٤١٠هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي)، ص ٥٧١، شرائط إمام الجماعة، مسألة ١٨.

وعالة فأغناكم اللّه، وأعداء فألف اللّه بين قلوبكم!».

فقالوا: بلى، اللّه ورسوله أمن وأفضل. ثم قال: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟».

قالوا: «بماذا نجيبك يا رسول اللّه؟ للّه ولرسوله المن والفضل!». قال: «أما واللّه لو شئتم لقلتم، فلصَدقتم ولصُدّقتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكَلْتكم إلى إسلامكم! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول اللّه إلى رحالكم؟... فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»... فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم[1].

إذن التنافس الإيجابي مشروع ولا يخل بالوحدة، فالوحدة لا تعني أن يذوب الناس جميعًا في اتجاه واحد، ورأي واحد، إنما التعدد أمر مفيد ومشروع، والتعددية لا تعني التمزق والتفرق. نختلف في الرأي والتوجه والانتماء، ولكن تجمعنا مصلحة واحدة وقواسم مشتركة، فلا مشكلة في الأمر. وجود التعدد ليس سيئًا، إنما المهم كيف ندير هذه الحالة من خلال التنافس الإيجابي.

□ بين الصراع السلبي والتنافس الإيجابي

البعض من الناس إذا رأوا منافسين لهم يصبح لديهم حالة سلبية تجاه المنافسة، ولهذه الحالة السلبية أو الصراع السلبي مظاهر، من أبرزها:

---

(١) محمد بن جرير الطبري. تاريخ الطبري، ج٢، الطبعة الخامسة ١٤٠٩هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي)، ص٣٦١.

أولًا: كراهة المنافس وقطيعته

فبعض الناس يكره أن يبرز منافس له، وينزعج ويتألم، لا يريد أن يكون له منافس. ويغفل عن أنه كما من حقه أن يعمل، فمن حق غيره أن يعمل أيضًا. وهذه حالة سلبية يمقتها الإسلام، وقد تصل بالإنسان إلى الحسد، بيد أن الإنسان المؤمن لا يحسد، بل يغبط أخاه المؤمن بأن يتمنى أن يتقدم كما تقدم غيره، وهذا أمرٌ مشروع، أما أن تصل المسألة إلى الحقد والكراهية فهذا يُسمى حسدًا، وفي كلمة جميلة لأمير المؤمنين عليه السلام يقول: «الحاسد مغتاظ على من لاذنب له»[1].

والقرآن الكريم يحكي لنا قصة ابني آدم وكيف أن أحدهما وهو (قابيل) قرر قتل أخيه (هابيل) لا لشيء إلا لأن اللّه تقبل قربانه، يقول تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢٧].

ثانيًا:الإساءة والعدوان على المنافس

قد يتجرأ البعض فيسيء للمنافس ويعتدي عليه، سواءٌ بتسقيط شخصيته أو تشويه سمعته، أو عرقلة أعماله، أو أن يسيء له بأي طريق كان.

هذه الإساءة لا مبرر لها ـ والمشكلة أن الإنسان إذا سار بهذا الاتجاه يتأخر أكثر. هناك رواية جميلة عن أهل البيت عليهم السلام، هذه الرواية في بحار الأنوار، جاء فيها: «إن من يبني ولا يهدم يرتفع بناؤه، وإن كان يسيرًا. ومن يبني ويهدم يوشك أن لا يرتفع بناؤه»[2].

لماذا يتجه البعض لتسقيط الآخرين؟ لماذا تتعدى على الآخرين وتسيء لهم وتشوه سمعتهم؟ لأنهم سبقوك؟ لأنهم تفوقوا عليك؟ لأنهم أحرزوا ما لم تحرز؟ هذا لا يُخوّلك

(١) ابن أبي جمهور الأحسائي. عوالي اللئالي، ج١، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، (قم المقدسة: سيد الشهداء)، ص٢٩٢.

(٢) بحار الأنوار. ج٦٧، ص٢٨٦.

ولا يُبرر لك الاعتداء عليهم.

فالصراع السلبي من جانب يؤثر على الجهة نفسها، ويضر بالمجتمع، ومن جهةٍ أخرى يخلق صراعات وعداوات، مما يؤدي إلى تفريق المجتمع وتمزيقه.

التنافس الإيجابي طريق العقلاء

عندما نتكلم عن التنافس الإيجابي لا نتكلم عن حاله مثالية خيالية، فنحن نرى المجتمعات الأخرى المتقدمة، قد فتحت الباب للمنافسة في كل المجالات، سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، والأهم من ذلك كله هم يتنافسون على أشياء مهمة، وعلى أرفع المستويات، كإدارة الحكم وقيادة المؤسسات الدولية. أما في عالمنا العربي والإسلامي فالمنافسة على أشياء محدودة، ومع ذلك نجد الصراعات والعداوات قائمة.

ولعل بعض المؤمنين كان يتوقع من اللّه سبحانه وتعالى أن يُغلق الأبواب أمام تلك المجتمعات كي لا تتقدم نظرًا لاعتبارهم لا يؤمنون برسالة الإسلام، ولكن اللّه تعالى يؤكد عدله العظيم فيقول تعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

فالإيمان ليس ساحة للركود، وإنما ساحة للعمل والجهاد، وهذه هي سنة الحياة: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

صور التنافس الإيجابي

أولًا: الاعتراف بالآخر واحترامه.

ثانيًا: المراهنة على بذل الجهد

إذا كنت تحب أن تتقدم، ولا يتفوق عليك الآخرون، عليك أن تضاعف جهدك وتطور عملك وإنجازك، فهذا هو السبيل والطريق للنجاح والتنافس الإيجابي، وهو ما تدعو إليه آيات القرآن الكريم: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ

وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾.

كم هو عميق معنى هذه الآية الكريمة، وهي تؤكد على العاملين والناشطين أن لا يعبئوا بما يشغلهم عن إنجازاتهم وتقدمهم، وإن واجهوا من يُعرقل طريقهم فعليهم أن يتمسّكوا بهذا النهج الذي تُقدمه الآية المباركة: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾. أما إذا انشغل العاملون بالمهاترات التي يُراد لها عرقلة نشاطهم، فإنهم بذلك يُحقّقون أهداف المغرضين، ويتأخرون في مسيرتهم.

وفي آية أخرى يأمر اللّه تعالى النبي ﷺ بأن يخاطب أهل الكتاب قائلًا: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

وما نجده من مهاترات السجال المذهبي لا يخدم الإسلام ولا المسلمين، وقد انشغلت الأمة خلال أكثر من ١٤٠٠ سنة بهذا السجال، وإلى متى نبقى في هذا النفق؟ فلنتجه نحو البناء والتنافس الإيجابي، في خدمة قضايا أمتنا، وخدمة مصالحنا، وكل واحد يسير على منهجه ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، والساحة هي التي تقوّم، والناس هم الذين يراقبون، والتاريخ هو الذي يحكم، ويوم القيامة يفصل اللّه تعالى بين الناس، هذا هو المنطق العقلائي، وهذا هو المنطق الصحيح.

ثالثًا: التعاون في خدمة القضايا المشتركة

نحن إذا كنا أبناء مجتمع واحد، وتهمنا خدمة مجتمعنا، فعلينا أن نتعاون في خدمة المجتمع. لماذا تحطّمني وأحطمك؟ لماذا تعرقل طريقي وأعرقل طريقك؟ لماذا تشوّه سمعتي وأشوه سمعتك؟ نحن من مجتمع واحد، أي قوة تنشأ هي قوة لنا جميعًا، وأي نشاط هو لصالح الجميع. فالمهم أن يكون هناك تعاون وتواصل بين مختلف التيارات.

في الماضي كان مجتمعنا راكدًا، لا يوجد فيه تيارات، ولا توجهات، وليست فيه أفكار جديدة، ولا قيادات شابة.

أما الآن ـ والحمد للّه ـ تطور الوضع في مجتمعنا على المستوى الديني والأدبي والاقتصادي والتجاري وعلى مختلف الصُّعُد والميادين، وهذا تطور جيّد.

والمهم هنا أن نتجه نحو التنافس الإيجابي حتى نخدم مجتمعنا، وعلينا أن نتعاون إيجابيا لا أن نتصارع صراعًا سلبيًا نهدد به وحدة المجتمع.

وفي بعض الأحيان يحصل صراع على قضايا محدودة (مسجد، أو حسينية، أو موكب). علينا أن لا ننشغل بالصراعات، وإنما نتجه نحو فتح أطر جديدة للعمل، ونحو قضايا أرحب وأوسع، دون الانغلاق في قضايا ضيقة محدودة.

هذا هو التنافس الإيجابي الذي ينبغي أن نهتم ونتعاون من أجل تعميق جذوره في المجتمع.

وأخيرًا علينا أن نبذل الجهد في نشر ثقافة التنافس الإيجابي، وعلى الواعين من المجتمع تحمل المسؤولية سواءً العلماء أو المثقفين.

ومن المؤسف أن تكون هناك حالة من التفرج على المشاكل التي تحصل بين الفئات والجماعات، وهذا أمرٌ خطأ، فالإسلام يدفعنا باتجاه الإصلاح، يقول رسول اللّه: «إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام»[1].

فمن الضروري أن نتوجه لإصلاح ذات البين، ونشر ثقافة التنافس الإيجابي، وأن نخلق بيئة في مجتمعنا تتسع للجميع، وتذكي التنافس الايجابي لصالح الجميع، وعلى مختلف الصُّعُد.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٨، ص٤٤١.

التواصل الاجتماعي

- التواصل بين الشكل والمضمون
- نحو أطر جديدة للتواصل الاجتماعي
- الجانب الاجتماعي في العبادات

﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٦].

□ التواصل بين الشكل والمضمون

طبيعة حياة الإنسان البشرية تفرض عليه نوعًا من التواصل مع المجتمع الذي يعيش فيه.

أولًا: لأن الإنسان يأنس بأبناء جنسه، ولا يستطيع أن يعيش من دونهم، أو بعيدًا عنهم. وقد ذكر بعض اللّغويين أن كلمة الإنسان مشتقة من الأنس، على اعتبار أن الإنسان يأنس بمثله. ولو أنك وفّرت لإنسان كل ما يحتاجه في حياته وعزلته عن الناس، بحيث يعيش بمفرده، فإن ذلك بالتأكيد لن يريحه، ولهذا فإن من أقسى أنواع العقوبات السجن الانفرادي.

فالإنسان بشكل طبيعي يميل إلى أبناء جنسه ويأنس معهم، وبالتالي لديه دافع طبيعي للتواصل مع الناس.

ثانيًا: حاجات الإنسان الحياتية تفرض عليه أن يتواصل مع الآخرين، فهو لا يستطيع أن يوفّر كل حاجاته بنفسه، فقد يمرض فيحتاج إلى الطبيب، وهو بحاجة إلى

العامل في البناء وغيره، وهو يشتري من السوق، وقد يعمل لدى أحد أو يعمل لديه أحد، إن طبيعة الحياة تجعل المصالح مشتركة، والحاجات متداخلة بين الناس، وهذا يفرض على الإنسان حالة من التواصل مع الآخرين.

ولكن هذا التواصل يبقى في مستواه الأدنى وفي حالته الأولية الساذجة. ويحتاج المجتمع إلى نوع أرقى من التواصل، وهذا يختلف من مجتمع إلى آخر.

وقد كنا نعيش تواصلًا مكثفًا في مجتمعنا حين كانت الحياة على بساطتها، وكان الناس يعيشون في مناطق جغرافية محدودة، وضمن اهتمامات محدودة، لكننا الآن، ومع التطور الذي حصل على واقع حياتنا، لم نعد نعيش درجة التواصل الاجتماعي السابقة. ولعلّ من أبرز الأسباب:

- انتشار الناس جغرافيًا، فما عاد الإنسان مقيمًا في نفس الحي الذي نشأ فيه.
- انشغالات الناس واهتماماتهم تشعبت في هذا العصر، بعكس ما كانت عليه حياتهم في الماضي، حيث تنتهي جميع أعمالهم بحلول الظلام، ويُصبح الوقت متاحًا للتواصل، وحتى في النهار فإن دائرة الاهتمامات محدودة. أما في زمننا المعاصر فقد انشغل الإنسان باهتمامات مختلفة، معرفية وعملية وغيرها، ما قلل من حصة العلاقات الاجتماعية.
- انخفاض الروح الاجتماعية عند أكثر الناس لصالح الاهتمام الفردي، حيث أصبح كل واحدٍ مشغولًا بنفسه، وفي بعض الأحيان ينشغل حتى عن عائلته وأسرته، بانشغالات بعضها لا تستحق التفريط بحق الأسرة لأجلها، كمتابعة بعض الأفلام على التلفاز، أو الانغماس في المتابعة على الإنترنت. وقد أثّر هذا حتى على علاقة الأم مع أطفالها، إذ لم تعد العلاقة وثيقة وحميمة كما كانت عليه في الماضي. والأب كذلك أصبح بعيدًا عن أسرته بسبب هذه الاهتمامات ذات الطابع السلبي في حالات كثيرة.

هذه الاهتمامات زادت عند الناس على حساب توجههم الاجتماعي، وإن كنا لا زلنا نحتفظ بدرجة من التواصل، لكنه في الغالب تواصل مناسباتي كمناسبة الزواج والعزاء. وهو تواصل شكلي، غير أن ما نحتاج إليه التفكير في التواصل ذي المضمون.

وأشير هنا إلى أبرز معالم التواصل الاجتماعي المطلوب:

أولًا: التقارب النفسي الروحي

الحياة بطبيعتها لا تخلو من ضغوط ومشاكل، خصوصًا في هذا العصر، فيحتاج الإنسان إلى من يتضامن معه نفسيًّا، وإلى من يقترب منه روحيًّا، ليخفف عنه الآلام، ويرفع معنوياته. ويحتاج الإنسان إلى من يستشيره ويأخذ برأيه. وتُشير روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا المضمون، وتُعبّر عنه بإدخال السرور إلى قلب الأخ المؤمن، فعن رسول الله ﷺ قال: «من لقي أخاه بما يسره سرّه اللّه يوم القيامة»[1]، وعن الإمام جعفر الصادق: أنه قال: «من سرَّ مسلمًا سرَّه اللّه يوم القيامة»[2]، وعنه عليه السلام قال: «لا يرى أحدكم إذا أدخل على مؤمن سرورًا أنه عليه أدخله فقط، بل واللّه علينا، بل واللّه على رسول اللّه »[3].

ثانيًا: التعاون في تيسير شؤون الحياة

كل مجتمع يواجه مشاكل، وكل قوم في منطقتهم لهم احتياجات، ولا يستطيع الإنسان بمفرده أن يحلّها ويعالجها، وإنما يحتاج أن يتعاون مع الآخرين. وكمثال تقريبي: تربية الأبناء في عصرنا الحاضر في الغالب تكون عملية شاقّة، إذا أراد الأب أو الأم وحدهما القيام بهذا الدور، ولكن عندما تكون هناك برامج ولجان تخلق الأجواء الصالحة، وتسعى من أجل بناء الجيل الجديد بناءً سليمًا، فهذا يكون أكبر إعانة للأسرة على تربية أبنائها. ويؤكد القرآن الكريم على هذا المضمون في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى﴾

---

(١) وسائل الشيعة. ج١٦، ص٣٥٦.

(٢) مستدرك الوسائل. ج٢، ص٤١٥.

(٣) وسائل الشيعة. ج١٦، ص٣٤٩.

[سورة المائدة: الآية ٢].

ثالثًا: المشاركة في خدمه الأهداف المجتمعية:

كل مجتمع لديه تطلعات وأهداف مشتركة، دينية أو سياسية أو اجتماعية. هذه الأهداف المشتركة تحتاج إلى تعاون وتواصل اجتماعي، يحمل هذا المضمون، ويساعد المجتمع على تحقيق الأهداف والتطلعات المشتركة التي يبحث عنها ويسعى من أجلها. والإمام علي عليه السلام يُوصي بهذا المضمون في آخر وصيةٍ له، فيقول: «وعليكم بالتواصل والتباذل وإياكم والتدابر والتقاطع»[1]، والتباذل هنا بمعنى البذل والعطاء.

□ نحو أطر جديدة للتواصل الاجتماعي

المجتمعات المتقدمة تبحث عن الأطر التي من شأنها أن تُحقق تطلعاتها، ونحن كمجتمع متدين ينبغي أن يكون الأولى بنا السعي لذلك، لكي تكون في المجتمع أطر للتواصل الاجتماعي، من شأنها أن تُحقق المضامين التي سبق الحديث عنها.

ومن المناسب هنا الإشارة إلى أنه في المملكة هناك توجه نحو بناء مؤسسات المجتمع المدني، ففي مجلس الشورى يتم التطرق لهذا الموضوع، وكذلك وزارة الشؤون الاجتماعية أصدرت كتابًا يضم (١٧٦) مشروعًا مقترحًا للتنمية الاجتماعية، ترتبط بالأطفال والشباب والنساء وكبار السن، ولمختلف المجالات المعرفية والتربوية والاجتماعية تحت عنوان (دليل المشروعات الاجتماعية في لجان التنمية الاجتماعية) ١٤٢٥هـ بإعداد نخبة من المختصين والمختصات.

والعالم اليوم يزخر بالأطر الجديدة والناجعة في هذا المجال، وقد نشرت (جريدة اليوم) في ٢ ذي القعدة ١٤٢٧هـ، ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٦م، تقريرًا عن إطارٍ جديد تشكّل في نيو دلهي بالهند قبل ٦ سنوات، تحت عنوان (مشروع بها جيتاري) ويعني المشاركة. هذا

(١) الشريف الرضي. نهج البلاغة، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ، (بيروت: دار الكتاب اللبناني)، ص٣٦١.

الإطار تبنته مجموعة من المتقاعدين، وهدفه متابعة الأجهزة والدوائر الحكومية، ومراقبة سير الإدارات فيها، وتوجيه الملاحظات التي يرون أنه من الضروري الانتباه لها. في بداية الأمر لم يكن هناك تجاوب معهم، بل لم يكن يسمع لهم، ولكن فيما بعد أصبح معهم (١٤) ألف عضو، وحققوا خلال ٦ سنوات ألف قصة نجاح، وفي عام ٢٠٠٥م خصصت الأمم المتحدة لهم جائزة باعتبارهم أفضل جماعة في العالم في خدمة النشاط الاجتماعي. حيث يعقد الأعضاء اجتماعات مع أعضاء البرلمان، ومسؤولين كبار في الحكومة، والوكالات المدنية، لحل مشكلات الخدمات، ومناقشة الخطط المطروحة في موضوعات منها توفير إمدادات الكهرباء والمياه، وعزل المواد الصلبة في القمامة، وقضايا الصحة، وتمكين المرأة من ممارسة حقوقها، والاهتمام بالبيئة، كتنمية الحدائق، مما زاد المساحة الخضراء في نيودلهي عشرة أضعاف.

وهنا كلمة أوجّهها للمتقاعدين بأن يُفكّروا كما الآخرون، لماذا نجد في العالم مؤسسات للمتقاعدين، وفي مجتمعنا الكثير من المتقاعدين غاية ما يقومون به تكرار الحج وزيارة المراقد المقدّسة، وهذه الأمور مع أهميتها إلا أن خدمة المجتمع لا تقل ثوابًا عنها إن لم يكن ثوابها أكبر.

ويتعجب الإنسان من طبيعة الأطر التي تُطرح في تلك المجتمعات، ومنها ما نشرته (جريدة الحياة) في ٩/ ٢/ ١٤٢٢هـ عن تأسيس نادٍ في (مدينة نيم) الفرنسية، اسمه: (نادي الأغبياء الفخورين بغبائهم)، ومن شروط الانضمام لهذا النادي أن يكون الشخص غبيًّا ويفتخر بغبائه، ولديهم شعار: الغبي ذكي يجهل ذكاءه.

ونشرت (جريدة الحياة) أيضًا في ٢٣/ ١٢/ ١٤٢٣هـ خبرًا عن مسيرة للدفاع عن كرامة القطط في روما، تجمع فيها نحو (٢٠٠٠) شخص.

في تراثنا الإسلامي هناك أوقاف كبيرة تهتم بمثل هذه القضايا، ومنها أن أحد التجّار وقف قطعة نخلٍ كبير من أجل إطعام القطط الجائعة عند مرقد الإمام علي بن

موسى الرضا ﷺ، والسبب أنه عند زيارته للمرقد الشريف ترك بعض حاجياته عند مدخل المقام وفيها كمية من اللحم كان اشتراها لغذائه، وعند خروجه لم يجدها، لأن القطط الموجودة في تلك المنطقة أخذتها(١).

وما نخلص إليه من هذا الطرح، أنه في مجتمعنا ينبغي التفكير في أطر جديدة لمعالجة قضايا المجتمع، وحل مشاكله، ولا يكفي أن نجلس في المجالس وننتقد الأوضاع دون أن يكون لنا أي تحرك. ثم إن الدولة تتحمل الجزء الأساس من معالجة المشاكل، والمجتمع بجميع فئاته يتحمل جزءًا أيضًا، فليس هناك دولة تستطيع أن تُعالج كل المشاكل، ما لم يكن هناك تعاون من قبل المواطنين.

من هنا على الجميع تحمل المسؤولية في هذا الجانب بأن يتعاون المجتمع مع الأطر القائمة، كالجمعيات الخيرية واللجان الاجتماعية، والأندية الرياضية، والمجلس البلدي، ولا يُبرر أحد بأنه لا وقت لديه لهذه الأمور، فنحن نجد أن الكثير من أبناء المجتمع يصرفون غالب أوقاتهم على قضايا هامشية، كالسهر مع الشلل، وذلك على حساب أعمالهم وعوائلهم ومجتمعهم.

وأذكر هنا بعض النماذج لأطر جديدة:

أولًا: مجالس العائلة

من الأطر الجميلة (مجالس العائلة) التي بدأت تتشكل وتقدم تجارب ناجحة على هذا الصعيد، وهذا الإطار مهم جدًّا لما فيه من تأصيل لصلة الرحم، التي يؤكد عليها الإسلام تأكيدًا بالغًا، وأحاديث رسول اللّه ﷺ وأهل بيته الكرام ﷺ تزخر بالعديد من النصوص التي تؤكد أهمية صلة الرحم، يقول رسول اللّه ﷺ: «أسرع الخير ثوابًا صلة

---

(١) حسن موسى الصفار. الأوقاف وتطوير الاستفادة منها، الطبعة الأولى١٤٢٧هـ، (القطيف: أطياف للنشروالتوزيع)، ص١٦.

الرحم»[١]. وفي حديث آخر عنه ﷺ أنه قال: «إن الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين، فيصيرها الله عز وجل ثلاثين سنة، ويقطعها وقد بقي من عمره ثلاثون سنة، فيصيرها الله عز وجل ثلاث سنين، ثم تلا ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾»[٢].

وفي رواية أن الإمام الصادق عليه السلام التفت إلى أحد أصحابه وهو ميسّر وقال له: «يا ميسر لقد زيد في عمرك، فأي شيء، تعمل»؟ قال: كنت أجيرًا وأنا غلام بخمسة دراهم، فكنت أجريها على خالي[٣]. وفي رواية أخرى: «يا ميسر لقد حضر أجلك غير مرة كل ذلك يؤخرك الله لصلتك لقرابتك»[٤].

وسأل أحدهم الإمام الصادق عليه السلام وهو الجهم بن حميد قال: قلت لأبي عبد الله: تكون لي القرابة على غير أمري، ألهم عليَّ حق؟ قال: «نعم، حق الرحم لا يقطعه شيء، وإذا كانوا على أمرك كان لهم حقان: حق الرحم، وحق الإسلام»[٥].

فصلة الرحم قضية مهمة جدًّا، واعتذار البعض بالانشغالات أمرٌ غير مقبول، وفيه ضياع للأجر والثواب الجزيل، وعدم استجابة لتعاليم الإسلام، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أوصي الشاهد من أمتي والغائب منهم، ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء، إلى يوم القيامة، أن يصل الرحم وإن كانت منه على مسيرة سنة»[٦].

فمجالس العائلة من الأطر التي ينبغي السعي باتجاهها، وليس بالضرورة أن يجتمع جميع أفراد العائلة، إذ يكفي تكوين لجنة تجتمع دوريًّا وهي تتفقد شؤون العائلة، ويُمكن

---

(١) تفسير الرازي. ج١٧، ص٧١، ومثله في وسائل الشيعة ج٢١، ص٥٣٦ بعبارة (إن أعجل...).
(٢) مستدرك الوسائل. ج١٥، ص ٢٤١، الآية ٣٩ من سورة الرعد.
(٣) بحار الأنوار. ج٤٧، ص٧٨.
(٤) المصدر نفسه. ج٧١، ص١٠٢.
(٥) الكافي. ج٢، ص١٥٧.
(٦) مستدرك الوسائل. ج١٥، ص٢٣٧

عن طريق هذه اللجنة تجميع العائلة في مناسبات منتظمة.

ثانيًا: لجان ومراكز الأحياء

تكونت في مجتمعنا الآن أحياء جديدة، والساكنون فيها من مناطق مختلفة، وفي بعض الأحيان لا يعرف بعضهم بعضًا، مع العلم أن الإسلام قد أوصى بالجار وأكد على حقوقه، يقول تعالى: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾، و﴿الْجُنُبِ﴾ تعني ليس من أقربائك، وبعض المفسرين قالوا: ليس على دينك. وبعض الروايات تُشير إلى أن حد الجوار أربعون بيتًا من جميع الاتجاهات، ورد عن معاوية بن عمار أنه سأل الإمام الصادق: جعلت فداك ما حد الجار؟ قال: «أربعين دارًا من كل جنب»[(١)].

وفي الحديث عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «واللّه لا يؤمن باللّه، واللّه لا يؤمن باللّه، واللّه لا يؤمن باللّه» قالوا ومن يا رسول اللّه؟ قال: «جار لا يأمن جاره بوائقه» قالوا: يا رسول اللّه وما البوائق؟ قال: «شره»[(٢)].

من هنا فإن وجود لجان لهذه الأحياء الجديدة أمرٌ في غاية الأهمية، وهذه اللجان من شأنها تفعيل النشاط الاجتماعي في هذه الأحياء، وطريق لتعارف أهل الحي مع بعضهم بعضًا. ووزارة التنمية الاجتماعية تعهدت بدعم هذه اللجان. ومن البرامج المطروحة: متابعة أمور ومصالح الحي، توثيق العلاقة بين أبناء الحي، إنشاء مكتبة عامة للحي، إنشاء نادٍ رياضي للنساء. وقد طبعت الوزارة كتابًا حول الموضوع بعنوان (مراكز الأحياء) ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

إن مجتمعنا بحاجة ماسّة لتجديد أطر التواصل الاجتماعي، فما عادت الأطر

(١) وسائل الشيعة. ج١٢، ص١٣٢.
(٢) ابن حجر الهيثمي مجمع الزوائد، ج٨، طبعة ١٤٠٨هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص١٦٩، باب جار السوء.

القديمة قادرة على تفعيل هذا الجانب بالشكل المطلوب.

□ الجانب الاجتماعي في العبادات

العبادات الإسلامية فيها بعد اجتماعي واضح، ولعل أبرز هذه العبادات وضوحًا الحج، إذ إن المسلمين يحجون إلى بيت اللّه الحرام في زمن واحد، ويجتمعون على صعيد واحد.

ومن البرامج العبادية المهمة، ذات الطابع الاجتماعي: صلاة الجماعة، يقول تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[سورة البقرة: الآية ٤٣]. ويتّفق جميع المسلمين على تشريع صلاة الجماعة في الصلوات الواجبة، كما يتفقون على عدم صحة صلاة الجمعة والعيدين ـ في حال وجوب صلاة العيدين ـ إلاّ جماعة.

ووقع الخلاف بين الفقهاء في حكم صلاة الجماعة في الفرائض اليومية، والآراء في حكمها ثلاثة:

الأول: واجبة فرض عين: وهو رأي المذهب الحنبلي وبعض الأحناف[١].

الثاني: واجبة فرض كفاية: وهو رأي الشافعية[٢].

الثالث: سنّة مؤكّدة:وهو رأي الجعفرية[٣]، والمالكية وبعض فقهاء الحنفية[٤].

هذا وقد وردت أحاديث وروايات كثيرة تؤكّد على أهمية صلاة الجماعة، ومنها ما جاء عن رسول اللّه ﷺ في حديث ذكرته المصادر من الفريقين: «صلاة الجماعة أفضل من

(١) الموسوعة الفقهية. ج١٥، ص٢٨١.

(٢) وهبة الزحيلي.الفقه الإسلامي وأدلته. ج٢، الطبعة الثالثة١٤٠٩هـ، (دمشق: دار الفكر)، ص ١٥٠، قال: «في الأصح المنصوص».

(٣) محمد بن جمال الدين مكي العاملي. اللمعة الدمشقية ج١، ص ٣٧٧، محمد كاظم الطباطبائي اليزدي، العروة الوثقى ج١، ص٥٤٣.

(٤) الفقه الإسلامي وأدلته. ج٢، ص١٤٩.

صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة»[١] وفي صحيح مسلم «صلاةٌ مع الإمام أفضل من خمس وعشرين صلاة يصليها وحده»[٢].

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «من ترك الجماعة رغبة عنها وعن جماعة المسلمين من غير علّة فلا صلاة له»[٣].

وكذلك ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ لم يصلِّ جماعة فلا صلاة له بين المسلمين، لأن رسول اللّه صلى الله عليه وآله قال: لا صلاة لمن لم يصلِّ في المسجد مع المسلمين إلا من علة»[٤].

وقد سأل زرارة الإمام الصادق عليه السلام: عن ما يروي الناس أن الصلاة في جماعة أفضل من صلاة الرجل وحده بخمس وعشرين صلاة، فقال: «نعم، صدقوا»[٥].

وعنه عليه السلام: «إن اللّه يستحي من عبده إذا صلّى في جماعة ثم سأله حاجته أن ينصرف حتى يقضيها»[٦].

وفي هذا المجال ينقل الشيخ الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين): روي أن السلف كانوا يعزّون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى، ويعزون أنفسهم سبعًا إذا فاتتهم الجماعة[٧].

وقد تحدث الفقيه المعروف السيد محمد كاظم اليزدي رحمه الله في العروة الوثقى عن الترغيب في صلاة الجماعة بشكل تفصيلي ومن عباراته ما يلي: (هي من المستحبات

---

(١) وسائل الشيعة. ج٨، ص ٢٨٩.
(٢) صحيح مسلم. ص ٣٢٦، حديث ٢٤٨.
(٣) وسائل الشيعة. ج٧، ص ٢٩٩.
(٤) المصدر نفسه. ج٨، ص ٢٩٣.
(٥) المصدر نفسه. ج٨، ص ٢٨٦.
(٦) المصدر نفسه.ج٨، ص٢٨٩.
(٧) محمد بن محمد الغزالي. إحياء علوم الدين، ج١، الطبعة الأولى١٤١٢هـ، (بيروت: دار الهادي)، ص٢٢٦.

الأكيدة في جميع الفرائض، خصوصًا اليومية منها وخصوصًا في الأدائية، ولا سيّما في الصبح والعشاءين، وخصوصًا لجيران المسجد أومن يسمع النداء، وقد ورد في فضلها وذم تاركها من ضروب التأكيدات ما كاد يلحقها بالواجبات) إلى أن قال رحمه اللّه: (وكلما كان المأمومون أكثر كان الأجر أزيد، ولا يجوز تركها رغبة عنها أو استخفافًا بها... فمقتضى الإيمان عدم الترك من غير عذر سيما مع الاستمرار عليه، فإنه كما ورد لا يمنع الشيطان من شيء من العبادات منعها)[1].

فوائد صلاة الجماعة

لصلاة الجماعة فوائد جمّة في حياة المسلمين، نذكر منها:

١. تعزيز الحالة الدينية

حينما يحضر المسلمون المسجد، ويصلون مع بعضهم بعضًا، تتعزز الحالة الدينية في نفس كل واحد منهم، فمن طبيعة الإنسان أنه عندما يرى كثرة من الناس تمارس عملًا معينًا، يعطيه ذلك دافعًا للقيام بهذا العمل الذي يجد الآخرين يقبلون عليه، فالعمل الجمعي له وقع وقيمة في النفوس، وبما أن صلاة الجماعة هي في الأصل أداء للواجب والتكليف الشرعي، ومظهر من مظاهر التديّن، فتعزيزها تعزيز للحالة الدينية الاجتماعية. وهذا ما أشار إليه الإمام الرضا عليه السلام بقوله: «إنما جعلت الجماعة لئلا يكون الإخلاص والتوحيد والإسلام والعبادة للّه إلا ظاهرًا مكشوفًا مشهورًا، لأن في إظهاره حجّة على أهل الشرق والغرب»[2].

٢. تأكيد التداخل بين اتصال العبد باللّه وصلته بالناس

فالمصلي عندما يأتي للجماعة في المسجد ينوي الصلاة مخلصًا للّه سبحانه، ولكنه يؤديها مع جماعة المؤمنين، وهذا يؤكّد ـ وبشكل جليّ ـ أن للدين بعدين، البعد

(١) العروة الوثقى. ج١، ص ٥٤٣، فصل في الجماعة.
(٢) وسائل الشيعة. ج٥، ص ٣٧٢.

العبادي المتعلّق بالصلة باللّه تعالى، والبعد الاجتماعي المتعلّق بعمق العلاقة بين الفرد وبني مجتمعه.

٣. توثيق الروابط الاجتماعية

ففي صلاة الجماعة يلتقي المؤمنون ويتعرف بعضهم على بعض، وتكون فرصة للتواصل اليومي، وتبادل الأحاديث والأوضاع الاجتماعية، كما يعيش المصلون حينما يقفون خلف إمام واحد، وبجانب بعضهم بعضًا، حالة من المساواة وانعدام الطبقية بين مختلف فئاتهم وشرائحهم، وهو أمر يعزز حالة التوادّ والمحبة بين الناس.

٤. التربية على النظام

صلاة الجماعة تربي الإنسان على النظام والانضباط الجماعي، فإذا واظب المصلي على الجماعة، فسينضبط في أداء الصلاة في وقتها، وعلى العكس من ذلك الصلاة فرادى، حيث لا يكون هناك أي مُلزم لأدائها في أول وقتها.

وفي الجماعة تعويد على النظام، حيث يكبر المأمومون بعد الإمام ويؤدون جميع أفعال الصلاة بعده، إلى أن تنتهي الصلاة ويقفون صفوفًا منتظمة متراصة.

٥. التوجيه والمعرفة الدينية

توفر صلاة الجماعة فرصة جيّدة للتوجيه والمعرفة الدينية، حيث يستفيد المصلون من حضورهم للصلاة باستماع الخطب والمواعظ الدينية، وعرض أسئلتهم واستفتاءاتهم على إمام الجماعة، إذا كان من أهل المعرفة والعلم.

العزوف عن صلاة الجماعة

وقد يتساءل البعض: ما دامت لصلاة الجماعة هذه الفوائد والآثار الطيبة على المجتمع، إضافة إلى ما ورد من النصوص الدينية في الحث عليها، وتبيين عظيم ثوابها عند اللّه تعالى، فلماذا نجد العزوف عند الكثيرين عن حضورها، حيث لا يمثل الحضور

لصلاة الجماعة إلا نسبة قليلة محدودة من المجتمع؟

لا بدّ أن هناك أسبابًا لعل من أبرزها ما يلي:

الأول: ضعف الاهتمام الديني

فمن يهتم بتعاليم الدين لا يترك صلاة الجماعة، إذا كان عارفًا بقيمتها وفضلها عند اللّه، ومن يرغب في ثواب اللّه تعالى، لا يتأخر عن صلاة الجماعة، مع ما ورد فيها من الأجر العظيم والثواب الكبير.

لكن يبدو أن الكثيرين يفتقدون رغبة الإقبال على هذه الشعيرة العظيمة، بسبب ضعف الاهتمام الديني في نفوسهم.

الثاني: ضعف التشجيع

حيث لا نجد في المجتمع حثًّا وتشجيعًا كافيًا على أداء صلاة الجماعة، فالكتابات حولها قليلة، والخطباء نادرًا ما يتعرضون لفضل صلاة الجماعة، ولحث الناس على المواظبة عليها.

بل إن بعض الخطباء وطلاب العلوم الدينية قلّ أن يرى الناس حضورهم في صلاة الجماعة، فيما عدا تصديهم للإمامة، وكأن طالب العلم لا صلة له بهذه الشعيرة إلا إذا كان إمامًا.

الثالث: الكسل

إن قسمًا من الناس يستثقل الذهاب إلى صلاة الجماعة، لأنها تأخذ جزءًا من وقته، وتصرف شيئًا من جهده، فيرى صلاته منفردًا في البيت أسهل وأيسر، مع أن الوقت والجهد اللذين تستلزمهما صلاة الجماعة محدود ضئيل، وهو يصرف أضعاف ذلك الوقت والجهد على سائر شؤون حياته من الكماليات والرفاهيات.

الدعوة لصلاة الجماعة

يحتاج مجتمعنا إلى حملة مكثفة من التوعية والتوجيه لحث الناس على صلاة الجماعة، بنشر الكتب والمقالات التي تتناول فضلها وأهميتها، وينبغي أن تفتح المنتديات على مواقع الانترنت باب النقاش والبحث حول أسباب العزوف عن صلاة الجماعة في المجتمع، وطرق التشجيع على المواظبة عليها، والعلماء والخطباء عليهم أن يكرروا الدعوة إليها والحث على الاهتمام بهذه الشعيرة العظيمة.

ويمكن الاستفادة من الجوال، بإرسال رسائل قصيرة إلى الأصدقاء والأقرباء، لدعوتهم لصلاة الجماعة.

ولو تشكلت في كل مسجد لجنة للدعاية والإعلام لصلاة الجماعة، وابتكار الوسائل والأساليب المؤثرة في جذب الناس لها، فإنها ستحقق نتائج جيدة.

وعلى كل فرد منا أن يحث ويشجع أقرباءه وأصدقاءه، ولا يسأم من دعوتهم لصلاة الجماعة، فإن الدال على الخير كفاعله. وذلك مصداق من مصاديق الدعوة إلى اللّه والأمر بالمعروف.

وأما شرط العدالة الذي يشترطه الإمامية في إمام الجماعة فليس بمستوى التعقيد الموجود، وهي لا تعني العصمة، بل تعني ألا يفعل المحرمات ويترك الواجبات، يقول السيد اليزدي: العدالة ملكة الاجتناب عن الكبائر وعن الإصرار على الصغائر، وعن منافيات المروّة الدالة على عدم مبالاة مرتكبها بالدين، ويكفي حسن الظاهر الكاشف ظنًا عن تلك الملكة[(١)].

وقد ترتفع العدالة عن إمام الجماعة بفعل المحرّم وتعود إليه بالتوبة، يقول السيد السيستاني: ترتفع العدالة بمجرد وقوع المعصية وتعود بالتوبة والندم[(٢)].

---

(١) العروة الوثقى. ج١، ص٥٧٠، مسألة ١٢.

(٢) السيد علي الحسيني السيستاني. منهاج الصالحين، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ، (قم المقدسة: مدين)،

ويكفي في إثبات العدالة للإمام شهادة عادلين، قال السيد اليزدي في العروة الوثقى ووافقه السيد السيستاني ما يلي: بل يكفي الاطمئنان إذا حصل من شهادة عدل واحد، وكذلك إذا حصل من اقتداء عدلين به، أو من اقتداء جماعة مجهولين به[1]، وهناك بعض المذاهب الإسلامية لا يرون شرط العدالة.

وأسوأ ما في الأمر أن ترتبط صلاة الجماعة في مجتمعنا بالانتماءات وبمراجع التقليد التي لا دخل لها في صلاة الجماعة، ولا تؤثر على إمام الجماعة لا من قريب ولا من بعيد. والقصص في هذا الجانب كثيرة: وقد كنا في مجلس المرجع الراحل السيد الشيرازي ﵀ ووجّه إليه سؤال من الحاضرين قالوا: سيدنا في مجتمعنا إمام مسجد عادل، ولا نجد عليه مأخذًا سوى أنه يُعلن أن تقليد سماحتكم غير جائز، فهل نُصلّي خلفه؟ أجابهم السيد الشيرازي: إذا كان ما يتحدث به عن قناعة، وهو يُعبّر بذلك عن رأيه، فهذا لا يخدش عدالته، فلا مانع من الصلاة خلفه.

ورائع جدًّا موقف الفقيه المحدّث الشيخ يوسف البحراني صاحب (الحدائق الناضرة) توفي سنة ١١٨٦هـ، الذي كان على خلاف شديد مع العلامة الشيخ محمد باقر الشهير بالوحيد البهبهاني، في موضوع الأصوليين والإخباريين، فالشيخ البحراني زعيم مدرسة المحدثين الإخباريين، والوحيد البهبهاني، زعيم المدرسة الأصولية، وكان يردّ آراء الشيخ يوسف بعنف، ووصل به الأمر إلى أن أفتى ببطلان الصلاة خلف الشيخ يوسف البحراني، لكن الشيخ يوسف أفتى بصحة الصلاة خلف الوحيد[2]. والعجيب أنه في وصيّته أوصى بأن الذي يُصلي على جنازته هو الشيخ البهبهاني.

وفي الأخير تجدر بنا الإشارة إلى أن صلاة الجماعة لا تقتصر على أن يكون إمام

مسألة ٣٠.

(١) العروة الوثقى، مع تعليقة السيد السيستاني، مسألة ١٩٧٥.

(٢) الشيخ علي البلادي البحراني. أنوار البدرين ج ١، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، (بيروت: مؤسسة الهداية)، تحقيق عبدالكريم البلادي، ص ٤٣٥.

الجماعة من مذهبك، حيث أفتى فقهاؤنا بأنك إذا كنت في مكان أقيمت فيه صلاة الجماعة لإخوانك المسلمين، وإن لم يكونوا على مذهبك فعليك بالمشاركة معهم في صلاة الجماعة، حيث تقرأ لنفسك الفاتحة والسورة، وأي حكم يختلف عنهم كالتكتف والسجود على ما لا يصح السجود عليه في المذهب، لك أن تتركه إذا كان في التزامه حرج، وصلاتك صحيحة ومجزية، من هنا لا ينبغي الخروج من المسجد الحرام، أو المسجد النبوي وقت صلاة الجماعة، كما لا ينبغي لمن يعمل أو يتواجد في أي مكان أن ينفرد بصلاته عند إقامة الجماعة.

التأثير المتبادل بين القيادة الدينية والجمهور

- واقع التأثير المتبادل
- ضغوط الجمهور والموقف الشرعي
- نماذج من سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّه وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا﴾

[سورة الأحزاب آية: ٣٩].

□ واقع التأثير المتبادل

الالتفاف الشعبي حول القيادة الدينية

من الواضح أن القيادات الدينية ـ التي تتمثّل في هذه العصور في علماء الدين ـ تمارس تأثيرها على الجمهور، وذلك لما يتمتّع به علماء الدين من وثاقة لدى عامّة الجمهور، وكذلك باعتبارها تمثّل وجهة نظر الدين فيما تطرحه من آراء وأحكام ومواقف، ولأنّ الناس متديّنون بطبيعتهم، ويريدون الالتزام بدينهم، فإنهم يأخذون معالم دينهم من هذه القيادات الدينية، ويتابعونها في مواقفها وآرائها.

ورغم ما مرّت به المجتمعات الإسلامية من محاولات لإبعاد أبنائها عن الدين، وعن الالتفاف حول علماء الدين، من قبيل تلك التيارات الفكرية التي عصفت بالأمة، وأرادت أن تشكّك أبناء الأمّة بدينها، وكذلك الإشاعات والدعاوى والاتهامات التي أثيرت بشِكْل واسع ضدّ القيادات الدينية، رغم كل ذلك لم تفلح في إبعاد جماهير الأمة عن قياداتها الدينية لالتزامهم بدينهم من جهة، ومن جهة أخرى لأن الأمّة رأت أن تلك البدائل المطروحة لم تكن بالدرجة المرجوّة، ولم تكن تتمتّع بالإخلاص والحكمة.

فقد جرّبت الأمّة الإسلامية الأحزاب التي جاءت بمختلف الشعارات والتوجّهات والدعاوى، فما حصدت الأمة من ورائها إلاّ الويلات، ولم تستطع هذه التوجّهات أن تصلح

ولا أن تغيّر ولا أن تطوّر، وإنما أصابت الأمّة بالكثير من المشاكل والمصاعب والأزمات، ولذلك ازدادت ثقة الناس بدينهم وبقياداتهم الدينية.

وما حصل في العراق أنموذج لهذه التجارب، حيث كانت الاتجاهات المناوئة للإسلام تشيع الدعايات ضدّ الدين، والأفكار المناوئة له ولرموزه، فالسلطات التي حكمت العراق طيلة عقود باسم تلك التيارات والأحزاب، سعت لإبعاد العلماء عن الناس، وحاولت تحجيم دور الحوزة العلمية، ودور المراجع والعلماء، وأمعنوا في الحوزة تنكيلًا وتبعيدًا وقتلًا واعتقالاتٍ، فكم قتلوا من علماء الحوزة وفقهائها في العراق؟ وكم سجنوا وطردوا وأبعدوا وأقصوا؟ ولكنّ لّما انكشف الغطاء، وانجلت الغبرة، تبيّن أن الساحة في العراق توالي قيادتها الدينية، وتلتفّ حولها بشِكْلٍ أذهل العالَم.

هذا الالتفاف حول القيادات الدينية موجود في كثير من البقاع والمناطق وفي مختلف المذاهب، ولكنّ الدرجات تتفاوت من مكان لآخر ومن مجتمع لآخر.

وما نريد أن نوضّحه هنا أن هناك تأثيرًا واضحًا من قبل القيادات الدينية على الجمهور، في الأحكام الشرعية، وفي المواقف السياسية والاجتماعية.

تأثير الجمهور على نخبه وقياداته

ولكن ما ينبغي بحثه هو مسألة تأثير الجمهور على القيادات الدينية، حيث لا يمكن إنكار ما يمارسه الجمهور على هذه القيادات من تأثير، وهذا التأثير قد يكون في بعض وجوهه إيجابيًّا وفي بعضها سلبيًّا. وهو أمر يمكن أن نرجعه لسببين:

السبب الأول: أن القيادات الدينية بشريّة وإنسانية، وبالتالي لها مشاعرها وأحاسيسها تتأثر بالبيئة التي تعيش فيها، والمحيط الذي تنشأ فيه، وذلك يؤثّر في تقويمها للأمور، وتشخيصها للحالات، وفي درجة المواقف التي تتخذها.

وهذا أمر نخصّ به علماء الدين دون القيادات الدينية المعصومة، فهذه القيادات

لها وضعيتها الخاصّة، فالأنبياء والرسل والأئمة المعصومون مسدّدون بعناية إلهية خاصّة، تعصمهم وتوجّهم لتجنّب الوقوع في الخطأ.

لكنّ الإنسان بشَكْل طبيعي يتأثّر بالمحيط الذي يعيش فيه، فالدرجة العلمية للعالِم لا تمنعه من التأثُّر بمحيطه وبيئته.

السبب الثاني: تطبيق الأحكام الشرعية على موضوعاتها الخارجية، فهناك أحكام شرعية، وهذه الأحكام تطبّق على موضوعات خارجية، والموضوعات الخارجية تحتاج إلى تشخيص وتحديد، وهذه المهمّة يحتاج فيها العالِم لرأي الناس ومشورتهم، ولا يمكنه الاستغناء عن هذه المشورة في كثير من المواضع.

كما أن هنالك أحكامًا للموضوعات أولية، وأخرى ثانوية، وتحديد أيٍّ منهما يحتاج إلى تشخيص دقيق للواقع، قد يستعين الفقيه في تحديده بأصحاب التخصص والكفاءة من الجمهور، والفقيه مطلوب منه أن يستفيد من آراء هؤلاء المتخصِّصين.

وهذه نقطة من المهمّ الإشارة إليها والتنبيه عليها، وذلك لما يعتقده البعض من أن العالِم والفقيه لا يحتاج إلى الناس، فهو من يقرِّر كل شيء ويحدّده، وهذا الاعتقاد خطأ، فالقيادات الدينية عليها أن تستفيد من خبرات وتجارب الآخرين، خاصّة عندما تعيش وسط مجتمع يملك الكفاءات والخبرات والمثقفين وأصحاب التجارب، فإن هذه الخبرات لا ينبغي لعالِم الدين أن يتجاهلها في تشخيص الموضوعات ودراسة الظروف.

ومن أبرز ما يحتاج فيه عالِم الدين إلى الناس هو القيام بإدارة شؤونهم الدينية والحياتية، من قبيل المؤسسات الدينية الاجتماعية. وكذلك مسألة إدارة أموال الحقوق الشرعية، التي يُطلب صرفها في وجوهها المستحَقَّة، إذ إن تحديد الموارد الأكثر إلحاحًا وحاجةً قد لا يتأتّى لعالم الدين بمفرده أن يقوم به، وفي هذه الحالة على عالِم الدين أن يستعين بآراء الخبراء والاقتصاديين الموجودين في المجتمع.

ومن الموارد التي يحتاج فيها عالم الدين لرأي الجمهور برامج التوجيه والتوعية،

ومن أبرزها المنبر الحسيني، حيث يحتاج الخطيب ـ ليؤدّي دوره في خدمة المجتمع ـ أن يأخذ بآراء المتخصِّصين في علم النفس والاجتماع، حيث تساعد آراؤهم في إعطاء صورة جيّدة تستند إلى الدراسات والأبحاث.

ومجتمعنا ـ للأسف ـ يعيش نقصًا واضحًا في مؤسساته الدينية في هذا الجانب، حيث لا تستفيد هذه المؤسسات من الخبرات والتجارب الموجودة في المجتمع، وذلك بسبب تجاهل علماء الدين لمثل هذه الكفاءات في بعض الأحيان، كما يتحمّل أصحاب الكفاءات بعض المسؤولية في هذا الاتجاه، فلا ينبغي أن يبعدوا أنفسهم عن التواصل مع العلماء لترشيد المسيرة، ولإفادة المجتمع من خلال تجاربهم وطاقاتهم، فالحالة الدينية يجب أن تمتلك مؤسسات، وتستفيد هذه المؤسسات من الخبرات والتجارب العصرية.

النبي ﷺ القدوة في المشورة

وإذا ما عدنا للنبي محمد ﷺ نراه وهو النبي المسدَّد من اللّه سبحانه، ويملك كمال العقل وسداد الرأي يُؤْمَرُ من قبل اللّه تعالى أن يستشير الناس. يقول تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٥٩].

وقد كان النبي ﷺ أكثر أصحابه مشاورة لهم، يروى عن أبي هريرة أنه قال: «ما رأيت أحدًا أكثر مشاورة لأصحابه من رسول اللّه »[١]. ومثل هذا الحديث يروى عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: «ما رأيت رجلًا أكثر استشارة للرجال من رسول اللّه»[٢]. كما كان يقول لأصحابه في مواقف عديدة: «أشيروا عليَّ» أو «أشيروا علينا»[٣].

---

(١) محمّد بن إدريس الشافعي. كتاب الأم، الطبعة الثانية١٤٢٤هـ، (دمشق: دار قتيبة)، باب المشاورة، ص١٠٠.

(٢) أحمد بن علي المقريزي. إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، باب مشاورته لأصحابه، ج٢، ص ٧٧٩.

(٣) محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ج٩، الطبعة الأولى١٤١١هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي)، ص٢٥، الدر ا لمنثور للسيوطي ج٣ ص١٦٦ تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ يعدكم اللّه...﴾ سورة الأنفال آية٧.

وفي الطبقات الكبرى لابن سعد أن النبي ﷺ كان يخطب إلى جذع في المسجد قائمًا، فقال ﷺ إن القيام قد شقّ عليّ، فقال تميم الداري: ألا أعمل لك منبرًا كما رأيت يصنع في الشام؟.

تقول الرواية: فشاور ﷺ المسلمين فرأوا أن يتخذوه[1].

وينقل لنا التاريخ كيف كان رسول اللّه ﷺ يأخذ بالآراء التي يطرحها بعض أصحابه عليه، ومن ذلك ما ينقل في واقعة بدر، حينما جاء رسول اللّه ﷺ ومَن معه من المسلمين وعسكروا في منطقة عند بئر بدر، فجاء له من أصحابه الحُبَاب بن المنذر بن الجَموح، فقال له: «يا رسول اللّه أرأيتَ هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه اللّه ليس لنا أن نتقدّمه، ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟!» فقال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال الحباب: «يا رسول اللّه، فإنَّ هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء القوم فنَنْزله». فقال رسول اللّه: «لقد أشرتَ بالرأي»، فنهض رسول اللّه ﷺ ومن معه من الناس[2].

وهكذا في قضية حفر الخندق في معركة الأحزاب، حينما حاصر المشركون واليهود المدينة، فجمع الرسول ﷺ أصحابه وطلب منهم المشورة، فقام سلمان الفارسي وقال: «يا رسول اللّه إن القليل لا يقاوم الكثير في المطاولة»، فقال: «فما نصنع؟» فقال سلمان: «نحفر خندقًا يكون بيننا وبينهم حجابًا، فيمكنك منعهم في المطاولة، ولا يمكنهم أن يأتونا من كل وجه، فإنا كنّا معاشر العجم في بلاد فارس إذا دهمنا دهم من عدونا نحفر الخنادق فتكون الحرب في مواضع معروفة»، فأمر النبي ﷺ أن يحفروا الخندق حول المدينة عملًا برأي سلمان[3].

---

(١) ابن سعد . الطبقات الكبرى، ج١، طبعة ١٣٨٠هـ، (بيروت: دار صادر، دار بيروت)، ص٢٥٠.

(٢) ابن هشام. السيرة النبوية، (تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي)، ج ١، الطبعة الأولى١٤١٥هـ، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص٦٢٠.

(٣) بحار الأنوار. ج ٢٠، الباب ١٧: غزوة الأحزاب وبني قريظة، ص ١٨٦.

ويروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من قصار كلماته أنه قال: «من استبدّ برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها»(١).

وقد استشار الإمام الصادق عليه السلام مرة أحد أصحابه فقال له: أصلحك اللّه مثلي يشير على مثلك؟ قال عليه السلام نعم إذا استشرتك(٢).

وهذا أمر لا ينبغي للقيادات الدينية أن تغفله أو تتجاهله، وفي الجهة المقابلة على الجمهور أن يطرحوا رأيهم أمام هذه القيادات، ففي بعض الأحيان يكون لدى بعض الناس تهيُّب من طرح وجهة النظر التي قد يخالف فيها عالم الدين، ويكتفي بالتذمّر أو الحديث عنها في المجالس المغلقة، بينما المفترض أن تصل هذه الاقتراحات وآراء الناس للعلماء والمرجعيات الدينية، فهذه مسؤولية، وعلينا كجمهور أن نقوم بهذه المسؤولية كما أن على العلماء أن يقوموا بمسؤوليتهم.

والقيام بهذه المسؤولية له أثر على العالِم ومن ثمّ الشريحة الأوسع من الجمهور، فعندما يرى العالم أو الخطيب كثرة من الناس تعترض عليه أو تنتقده لرأي أو كلمة أو موقف أو ممارسة، سيضطر لإعادة بحث الموضوع وتقييم مواقفه، وقد يقتنع بأن المسألة تحتاج إلى تصحيح أو مراجعة.

☐ ضغوط الجمهور والموقف الشرعي

القيادة الدينية بين الجرأة والحذر

في بعض الأحيان تكون الجهة الدينية لديها رأي شرعي، أو موقف ترى فيه المصلحة الاجتماعية، ولكنّ الجمهور ـ غالبيتهم أو الشريحة الأوسع منهم ـ يعارضون هذا الرأي أو ذلك الموقف.

---

(١) نهج البلاغة. الكلمة ١٦١، ص ٣٨.

(٢) وسائل الشيعة. ج١٢، ص٤٤، حديث١٥٦٠١.

وفي هذه الحالة تتنوّع ردود أفعال القيادات الدينية، فالبعض منهم تكون لديه درجة عالية من الجرأة والإقدام، خصوصًا إذا كانت هذه القيادة تستند إلى الحجّة الشرعية المؤمِّنة، وتستند إلى ما يؤيِّد موقفها العام، فتصرّ على رأيها وموقفها.

وفي المقابل فإن بعض القيادات ترتئي التراجع والسكوت بسبب ما يتّخذه الجمهور من ردّة فعل، قد تكون في بعض الأحيان فيها من الشدّة ما يضطّر هذه القيادات أن تكون في حالة من التردّد في طرح الرأي والموقف.

وهذا يرتبط بثلاثة أسباب، هي كالتالي:

السبب الأول: مدى وضوح الرؤية عند الجهة الدينية

فإذا كانت الرؤية واضحة، تكون عاملًا مساعدًا للإقدام والصمود عند القيادة الدينية، بينما إذا كانت الرؤية غير واضحة، وفيها بعض التشويش، فهذا يسبّب حالة من التردّد، وفي هذا الصدد يُروى عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»[1].

وهذا نص صريح في أن العالِم كلما كان على معرفة جيّدة بالوضع العام السياسي والاجتماعي من حوله بشِكْل أجلى، تكون الرؤية أمامه أوضح.

أمّا إذا لم تكن لديه هذه المعرفة تهجم عليه اللوابس، فيتردّد ويتهيّب.

السبب الثاني: ضعف الشخصية وقوّتها

الناس يتفاوتون في شخصيّاتهم، فهناك مَن يملك الشخصيّة القويّة الشجاعة، وهناك من لا يملك هذه القوّة.

والعلم والمعرفة لا تبدّل شخصية الإنسان بشِكل كامل.

---

(١) الكافي. باب العقل والجهل، ج١، ص ١٠، حديث ٢٩.

فالقيادة التي تمتلك قوّة الجَنان تملك الجرأة في طرح رأيها وموقفها.

السبب الثالث: درجة الإخلاص والاستعداد للتضحية

وخاصّة إذا كانت التضحية تتعلّق بثقة الناس، وبسمعة العالم عندهم، فهذا أمر صعب، فالعالم إذا كانت بعض المواقف تسبب له خسارة مالية أو مادّية أو أذى جسميًّا قد يتحمّل، ولكن إذا كان من مضاعفات اتخاذ الموقف ما يمسّ سمعته، فهذا أمر أصعب من تلك الخسائر المادّية، فالأصعب على الإنسان أن يُتّهم في سمعته أو دينه.

وفي هذا الصدد ينقل أن أحد الأنبياء حينما بعثه اللّه تعالى طلب منه أن يكفّ ألسنة الناس عنه. فأجابه اللّه تعالى: «هي خصلة لم أجعلها لنفسي، كيف أجعلها لك؟!».

من هنا يحتاج العالِم إلى درجة كبيرة من الإخلاص والتضحية، فيما إذا استلزم الأمر أن يتّخذ موقفًا شرعيًّا لمصلحة الدين والمجتمع.

ومن أمثلة القيادات الدينية التي تحمّلت في سبيل مصلحة الأمّة الإمامُ الحسن المجتبى عليه السلام، الذي كان يدخل عليه بعض أصحابه ويقول له: «السلام عليك يا مذلَّ المؤمنين»[1]، وهذا أمر لم يكن هيّنًا على نفس الإمام، خصوصًا إذا كان يصدر عن خلّص أصحابه. ولكنّ الإمام كان يرى أن المصلحة فيما اتخذه من موقف، ومن أجل ذلك تحمّل عناء هذه الاتهامات.

فهذا حجر بن عدي الصحابي الجليل يخاطبه قائلاً: «أما واللّه لوددت أنك مت في ذلك اليوم ومتنا معك». وعدي بن حاتم يقول: «أخرجتنا من العدل إلى الجور». وبشير الهمداني وسليمان بن صرد الخزاعي يدخل كل منهما عليه هاتفاً: «السلام عليك يا مذل المؤمنين». وخاطبه بعض أصحابه قائلاً: «يا بن رسول اللّه أذللت رقابنا بتسليمك الأمر

(١) الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني. تحف العقول عن آل الرسول، الطبعة الخامسة ١٣٩٤هـ، (بيروت: مؤسسة العلمي)، ص ٢٢٤.

إلى هذا الطاغية»[١].

وجاء في (الإصابة): «كان أصحاب الحسن يقولون له: يا عار المؤمنين. فيقول: العار خير من النار»[٢].

دوافع الجمهور للضغط على القيادات

ومن الجيّد الإشارة إلى الأسباب التي تدعو الجمهور إلى الضغط على قياداته الدينية، نذكر منها ثلاثة أسباب:

١. الأعراف والتقاليد السائدة

في كل مجتمع هناك أعراف وآراء سائدة عند الناس، وعادةً ما يتمسّك الناس بها فترة من الزمن. فإذا ظهرت لهم الجهة الدينية برأي جديد خلاف عاداتهم وتقاليدهم وما هو سائد عندهم، ففي مثل هذه الحالات لا يكون القبول سهلًا عند الناس.

٢. الاستعجال في النتائج

بحيث تكون هناك مصالح عاجلة يلحظها الناس، بينما العالم يرى أن هناك مصلحة دينية أو اجتماعية مستقبلية أهمّ، ولكن لا يكون جميع الناس بالمستوى الذي يدركون فيه مثل هذه النظرة المتأنّية البعيدة.

٣. تضارب المصالح بين مراكز القوى

إن وجود مراكز قوى دينية واجتماعية قد يكون عاملًا في إثارة الناس ضد بعض القيادات الدينية، بحيث تتخذ إحدى القيادات الدينية موقفًا أو رأيًا شرعيًّا، فيكون هناك علماء آخرون يخالفون هذه الجهة في هذا الموقف أو الرأي. والمخالفة في حدود النقاش

---

(١) باقر شريف القرشي، حياة الإمام الحسن بن علي عليهما السلام، ج ٢، الطبعة الثالثة ١٣٩٣هـ، (قم: دار الكتب العلمية)، ص٢٧٣ ـ ٢٨٢.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة. ج٢، ص٧٢.

والبحث العلمي لا بأس بها، بل هي مطلوبة، ولكن في بعض الأحيان لا تقف عند حدود المخالفة العلمية، بل تصل إلى حدّ التهييج، وإثارة الناس على ذلك العالم، أو صاحب الرأي الجديد، ويتوسّلون بشائعات من قبيل الادعاء عليه بأنه يريد تبديل العقيدة أو الدين، أو أنه يخرج عن آراء العلماء، وفي هذه الأجواء يكون هناك ضغوط من الجمهور على صاحب الرأي، ونجد لذلك أمثلة ونماذج كثيرة عند كل المذاهب الإسلامية، فنرى هذه الحالة قد حصلت لبعض مراجع التقليد، كما حصل للمرجع الأعلى في زمنه السيد محسن الحكيم ﭬ، حيث كان الرأي السائد في عصره عند الفقهاء القول بنجاسة غير المسلمين على اختلاف أديانهم، بمن فيهم أهل الكتاب، وكان السيد الحكيم يفتي بهذا الرأي، وبالتالي لا يستطيع المسلم لمس غير المسلم برطوبة أو أن يشرب سؤره وما شابههما من أحكام.

ولكن السيد الحكيم جدّد النظر في المسألة فتوصّل إلى الرأي القائل بطهارة أهل الكتاب، فخالف بهذا الرأي ما كان سائدًا في ذلك الوقت، فقامت بعض الأطراف واستغلّت الموضوع للتهريج، فاتهموا السيد الحكيم باتهامات باطلة، مما أثار ضجّة في النجف الأشرف بسبب هذا الرأي الفقهي.

وينقل العلاّمة الشيخ محمّد جواد مغنيّة ﴿رحمه الله﴾ في كتابه فقه الإمام الصادق أنه «عاصر ثلاثة مراجع كبار من أهل الفُتيا والتقليد... قد أفتوا جميعًا بالطهارة (طهارة أهل الكتاب)، وأسرّوا بذلك إلى من يثقون به، ولم يعلنوا خوفًا من المهوّشين»[1].

ويقول الشيخ عفيف النابلسي في كتابه فقه أهل البيت: «وقد عاصرت ثلاثة مراجع كبار من أهل الفتيا والتقليد، الأول كان في النجف الأشرف وهو الشيخ محمد رضا آل ياسين، والثاني في قم وهو السيد صدر الدين الصدر، والثالث في لبنان وهو السيد محسن

(١) محمّد جواد مغنية، فقه الإمام الصادق عرض واستدلال، ج١، الطبعة الرابعة ١٤٢٤هـ، (قم: مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر)، ص٣٢.

الأمين، وقد أفتوا جميعا بالطهارة ـ طهارة أهل الكتاب ـ وأسروا بذلك إلى من يثقون به خوفًا من المهووسين»[١].

وفي هذه النقطة ينقل الشهيد مرتضى المطهّري عن المرجع الأعلى في زمانه في إيران السيد البروجردي ﷺ أنه كان يقول: «التقية من أصحابنا أهم وأعلى»[٢]، أي من التقية تجاه المخالفين.

وينقل أيضًا في المصدر نفسه القصّة التالية، يقول ﷺ: «لقد ارتأى المرحوم آية اللّه الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي ـ أعلى اللّه مقامه ـ، مؤسس الحوزة العلمية في قم، أن يطلب من عدد من الطلبة تعلّم اللغات الأجنبية وبعض العلوم كمقدّمات، لكي يستطيعوا عرض الإسلام على الطبقات المثقفة الجديدة، وفي البلدان الأجنبية، ولكن ما إن انتشر هذا الخبر حتّى جاءت جماعات من العامّة وأشباه العامّة من طهران إلى قم، وقالوا: إن هذه الأموال التي يدفعها الناس باسم سهم الإمام، لا يقصد بها أن تصرف لتعلّم الطلبة لغة الكفّار، وإنهم سوف يفعلون كذا وكذا إذا نفذ [الشيخ الحائري] الاقتراح. فلمّا رأى المرحوم أن ذلك سيكون سببًا لانهيار الحوزة العلمية من أساسها ألغى فكرته مؤقّتًا»[٣].

وتنقل لنا الأحداث ما أثير ضدّ السيد محسن الأمين العاملي حينما طرح رأيه حول تنزيه الشعائر الحسينية، حيث ثارت عليه ضجّة وصلت إلى حدّ تكفيره في بعض الأحيان، لدرجة أنه كان يريد التوجّه بعدها إلى زيارة النجف الأشرف فجاءته الرسائل بأن لا يأتي لأن هناك من يتهدّده بالإهانة وربما القتل.

وهذا ليس حِكْرًا على مذهب دون آخر، فهذا الشيخ محمد أبو زهرة ﷺ ـ من علماء الأزهر وله كتب وآراء ناضجة ـ قال في أحد المؤتمرات كما نقل عنه الشيخ يوسف

(١) ج١، ص٣٤، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ، (بيروت: دار الهادي).

(٢) الشيخ مرتضى المطهّري. المشكلة الأساس مع جماعة علماء الدين، ضمن سلسلة محاضرات في الدين والاجتماع (٣)، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات ودار الرسول الأكرم)، ص٦٤.

(٣) المصدر السابق. ص ٦٥.

القرضاوي: (أنه عنده رأي كتمه عشرين عامًا ويريد أن يبوح به الآن)، وأضاف الشيخ القرضاوي (إنني كتمت بعض الفتاوى لسنين طويلة خشية أن يهاجمني المهاجمون ثم بدأت أفصح عن هذه الفتاوى وأنشرها)[1].

وكذلك رئيس مجلس الشورى في المملكة الشيخ صالح بن حميد قال في حفل تكريم والده الشيخ عبداللّه بن حميد الذي أقيم في جامعة أم القرى بمكّة المكرّمة ـ حسب ما نقلت ذلك جريدة المدينة في عددها الصادر في ٣٠/ ١٠/ ١٤٢٦ هـ في ملحق الرسالة: (أن والده تمكن في السبعينيات من كسب معركة بناء الجامع الكبير في بريدة بالأسمنت المسلح، بعد أن لقي معارضة شديدة من أهالي المدينة، الذين اعترضوا بشدة، وطالبوه بأن يكون البناء بالطين وسعف النخيل على ما درج عليه أجدادهم معتبرين ذلك معركة حياة أو موت).

لذلك من الضروري أن تمتلك القيادات الدينية البصيرة والشجاعة، والتحلّي بدرجة عالية من الإخلاص، والاستعداد للتضحية، إذا كان ما تسعى إليه هذه القيادات من الأمور المهمّة، فتقدم على اتخاذ الموقف، وتبيّن الرأي الشرعي وتذيعه، دون مراعاة هذه الحساسية الجماهيرية المنفعلة.

نماذج من القيادات الدينية الواعية

وهذا النوع من القيادات لا نعدمها في تاريخنا المعاصر، فإننا نجد في هذا العصر روّادًا طرحوا آراءهم التجديدية في الفكر والفقه الإسلامي، وأسّسوا المشاريع الرائدة، فنجد في العراق الشهيد السيد محمد باقر الصدر الذي طرح مشروعًا فكريًّا جديدًا في الاقتصاد الإسلامي، وفي الفلسفة الإسلامية، وأسس حركة إسلامية واعية في العراق، وقد واجه من أجل ذلك ضغوطًا كثيرة يذكرها من كتب عنه من تلامذته، ومن درسوا الحالة العراقية في وقته.

---

(١) جريدة الشرق الأوسط، الصادرة بتاريخ ٣٠/ ١/ ٢٠٠١م.

وفي لبنان نجد الإمام موسى الصدر، والشيخ محمد جواد مغنية، والشيخ محمد مهدي شمس الدين، وغيرهم من علماء الدين الذين أسّسوا وساهموا في نشر الوعي الإسلامي الوطني في لبنان، وقد واجه جميع هؤلاء مشاكل وافتراءات وضغوطًا، ولكنّهم تحمّلوا مسؤولياتهم وأدّوا ما عليهم من أدوار.

وفي منطقتنا لدينا بعض العلماء الروّاد في طروحاتهم الفكرية والعلمية، وفي هذا المجال يجدر بنا أن نشيد بشخصيّة العلاّمة الدكتور الشيخ عبد الهادي الفضلي ـ منَّ اللّه عليه بالصحّة والعافية ـ.

هذا العالم الذي يمكن اعتباره ـ وبدون مبالغة ـ أبرز كفاءة علمية في منطقتنا في الحاضر، إذ لا يصحّ أن نبخسه حقّه، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ﴾ [سورة الأعراف آية: ٨٥]، فنحن ـ وللأسف ـ قد نكون جريئين في الإشادة بشخصيات من خارج المنطقة، أو الإشادة بشخصياتنا بعد رحيلها، وهذه الحالة ليست من سمات المجتمعات الحيّة المنصفة.

الشيخ الفضلي كفاءة علمية عظيمة ينبغي الإشادة بها، فهو فقيه، وكتاباته وآراء العلماء تدلُّ على مكانته الفقهية والعلمية.

كما أنّه شخصية أكاديمية، فبالإضافة إلى دراساته الحوزوية في النجف الأشرف وحضوره البحث الخارج على أيدي كبار الفقهاء والمراجع، واصل دراساته الأكاديمية، فنال درجة البكالوريوس من كلية الفقه في النجف، ودرجة الماجستير من جامعة بغداد، والدكتوراه من جامعة القاهرة. فهو أكاديمي حوزوي.

يضاف إلى درجته العلمية نتاجه الفكري والثقافي، فله مجموعة كبيرة من الكتب والمؤلَّفات، تصل إلى أكثر من ٦٠ كتابًا في مختلف المجالات، من أبرزها (دروس في فقه الإمامية) في أربعة مجلّدات. وبعض كتبه تدرَّس في الحوزات العلمية من قبل أكثر من أربعين سنة.

وفي مجال النشاط الحركي كان من المؤسسين للحركة الإسلامية في العراق، وكان عضوًا في جمعية منتدى النشر، وعضوًا في جماعة العلماء، وفي رابطة النشر، وكان عضوًا في هيئة تحرير مجلّة الأضواء، وهيئة تحرير مجلّة النجف، وغيرها من الأنشطة الثقافية.

وابتداءً من سنة ١٣٩١ هـ جاء إلى مدينة جدّة، وأصبح أستاذًا في جامعة الملك عبد العزيز في جدّة، وهو من أسس قسم اللغة العربية فيها، كما كان عضوًا مؤسِّسًا ودائمًا في لجنة المخطوطات في مكتبتها المركزية[١].

هذا بالإضافة إلى أخلاقه وانفتاحه على الجميع، وإشادته الدائمة بالطاقات المحلّية، فلم يذهب له مؤلِّف أو باحث يطلب منه التقديم لكتابه إلا واستجاب لطلبه، مهما كانت قيمة الكتاب.

وشخصية كهذه لها واجب علينا، فلا أقل من أن نرفع أيدينا بالدعاء له بالشفاء والعافية، حيث أصيب مؤخّرًا بجلطة دماغية، تجاوز معظم آثارها، أطال اللّه عمره، ومتعه بالصحة والعافية.

□ نماذج من سيرة الرسول ﷺ وأهل بيته

نجد في سيرة الرسول ﷺ بعض المواقف التي كان ﷺ يتّخذ فيها موقفًا يتعارض مع رأي من حوله من الصحابة، وذلك حينما تكون هناك مصلحة قد لا يلتفت عموم الصحابة إليها. ومن أبرز تلك المواقف ما حصل عند توقيع صلح الحديبية بين المسلمين وكفّار قريش، في السنة السادسة للّهجرة، حيث اعترض عدد كبير من الصحابة، وكان من أبرزهم الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب، حيث جاء وهو غاضب، وقال: «يا رسول اللّه، أولسنا مسلمين؟!».

(١) انظر ترجمته في أعلام هجر للسيد هاشم الشخص، ج٢، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ، (بيروت: مؤسسة أم القرى)، ص٢٨٧.

فأجابه: «بلى».

فقال: «أوليسوا مشركين؟!».

قال: «بلى».

فقال عمر: «فعلامَ نعطي الدنية في ديننا؟!».

فقال النبي: «أنا عبد اللّه ورسوله، لن أخالف أمرَه، ولن يضيّعني»(١).

وقد كان من شروط الصلح التي أثارت بعض الصحابة ما كان فيها من إلزام للرسول بأن يرجع إلى قريش كل من يهاجر مسلمًا دون رضا أهله.

وبينما كان رسول اللّه ﷺ يكتب بنود الصلح هو «وسهيل بن عمرو [عن قريش]، إذ جاء أبو الجندل بن سهيل بن عمر يرسف في الحديد، قد انفلتَ إلى رسول اللّه، وقد كان أصحاب رسول اللّه ﷺ خرجوا وهم لا يشكُّون في الفتح لرؤيا رآها رسول اللّه ﷺ، فلمّا رأوا من الصلح والرجوع وما تحمّل رسول اللّه ﷺ في نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون؛ فلمّا رأى سهيل [ابنه] أبا جندل قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتلبيبه، ثم قال: يا محمد، قد لجّت القضية(٢) بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقتَ، فجعل ينتره(٣) بتلبيبه ويجرّه ليردّه إلى قريش، وجعل أبو الجندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أأردُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم، فقال رسول اللّه: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن اللّه جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد اللّه، وإنا لا نغدر بهم»(٤).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام. ج ٢، ص ٣١٧.

(٢) لجت القضية: تمت.

(٣) ينتره: يجذبه جذبًا شديدًا.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام. ص ٣١٨.

ونجد مثالًا آخر في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حينما آلت إليه الخلافة، حيث واجه ضغوطًا من قبل من حوله وأصحابه حول قضايا كثيرة، من أبرزها تثبيت معاوية على ولاية الشام، فقد قال المغيرة بن شعبة لعلي: اقرر معاوية وابن عامر وعمال عثمان على أعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس، ثم اعزل من شئت، فأجابه علي عليه السلام وقال: «واللّه لا أداهن في ديني، ولا أعطي في الدنية أمري». وقال المغيرة لعلي: فإن كنت أبيت عليّ فانزع من شئت واترك معاوية، فإنه في معاوية جرأة، وهو في أهل الشام يستمع منه، ولك حجة في إثباته، كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام. فقال عليه السلام له: «لا واللّه، لا استعمل معاوية يومين»[1].

وكذلك في مسألة المفاضلة في العطاء، حيث ألف المسلمون قبل خلافة الإمام علي عليه السلام المفاضلة في العطاء حسب الدرجات والمستويات، وفي هذا السياق يروى أنه جاءت امرأتان فأعطاهما على حدٍّ سواء، فلما ولتا سفرت إحداهما وقالت: يا أمير المؤمنين فضلني اللّه بما فضلك اللّه به وشرفك! قال: «وبما فضلني اللّه وشرفني؟» قالت: برسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «صدقت. وما أنت؟» قالت: أنا امرأة من العرب، وهذه من الموالي. قال: فتناول شيئًا من الأرض، ثم قال: «قد قرأت ما بين اللوحين، فما رأيت لولد إسماعيل على ولد إسحاق فضلًا ولا جناح بعوضة»[2].

وقد واجه الإمام علي ضغوطًا كبيرة ليسير بنفس السيرة السابقة في مسألة المفاضلة في العطاء، فقال لهم: «أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه، واللّه لا أطور به ما سمر سمير أو أمَّ نجم في السماء نجمًا»[3].

ونجد ذلك في حياة الإمام الحسن في صلحه مع معاوية.

---

(١) عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني. الكامل في التاريخ. ج٣، الطبعة الرابعة١٤١٤هـ، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي)، ص٨٦-٨٧.

(٢) محمد الريشهري. موسوعة الإمام علي، ج٤، الطبعة الثانية١٤٢١هـ، (قم: دار الحديث)، ص١٩٤.

(٣) نهج البلاغة. من كلام له في التسوية في العطاء رقم ١٢٦ .

وفي موقف الإمام الصادق عليه السلام أواخر الدولة الأموية، حينما بدأ العباسيون يتحرّكون تحت شعار «الرضا من آل محمّد»، حيث كانت ثورتهم باسم أهل البيت، ما جعل الكثيرين يطلبون من الإمام الصادق عليه السلام التصدّي وتبنّي الثورة، وكان من أبرزهم أبو مسلم الخراساني، ولكن الإمام الصادق عليه السلام كان يرفض ويقول: «ما أنتَ من رجالي، ولا الزمان زماني»[1]، فكان تشخيصه للوضع أنه ليس الوضع والوقت المناسب.

وقد سبب له موقفه هذا بعض ردّات الفعل، خصوصًا من أتباع الزيدية، إذ جاءه أحد أصحابه وقال له: يا ابن رسول اللّه، إن الزيديّة يقولون ليس بيننا وبين جعفر [بن محمّد] خلاف إلا أنه لا يرى الجهاد، فأجابه الإمام: «أنا لا أراه؟!، بلى ـ واللّه ـ لأراه، ولكنّي أكره أن أدع علمي إلى جهلهم»[2].

ولذلك على القيادة الدينية أن تكون بهذا الوعي وقراءة المواقف، فإذا كان الموقف يتطلّب الإقدام تقدم، وإذا كان يتطلّب المهادنة والمداراة تهادن، دون عناية كبيرة بآراء ومعارضة الجمهور، التي قد تكون في كثير من الأحيان نتيجة العاطفة والتعجّل في اتخاذ الموقف.

وهذا ما نراه في سيرة ونهج الإمام الحسين عليه السلام عندما أتته الرسائل بعد استشهاد أخيه الإمام الحسن عليه السلام للثورة على معاوية، ولكنّه رفض الاستجابة لهذه الرسائل.

كما أنّه عندما أعلن معارضته لخلافة يزيد جاءه من الصحابة ومن كبار المسلمين من ينهاه عن المسير في هذا الاتجاه، ولكنّه كان يجيبهم بقوله: «شاء اللّه أن يراني قتيلًا».

(١) ينابيع المودة لذوي القربى، الباب٦٥، في إيراد في كتاب فصل الخطاب، ج٣، ص١٣٧.
(٢) الكافي. ج٥، باب من يجب عليه الجهاد ومن لا يجب، ص ١٣.

الإمام الحسين عليه السلام مدرسة العطاء

- من هدي الإمام الحسين عليه السلام
- السعي للثروة والقدرة
- مجالات الإنفاق ونماذجه المشرقة

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[سورة سبأ، الآية: ٣٩].

من هدي الإمام الحسين عليه السلام

حينما نجتمع لنستعيد ذكرى أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام لا يكفي أن نتفجع لمصيبته، أو نعجب ببطولته وصموده، إنما بالدرجة الأولى علينا أن نسعى للاقتداء به، والأخذ بهديه، وهذا يلزمنا أن نتعرف جوانب سيرته المشرقة، وأن نأخذ ونقتبس منها ما ينفعنا في دنيانا وآخرتنا.

ومن الجوانب المهمّة في حياة الإمام الحسين عليه السلام وشخصيته، أنه مدرسة في العطاء، فحياته كانت مكرسة للعطاء، وأبرز مثال على ذلك شهادته عليه السلام، إذ كانت القمة والذروة في مسيرة عطائه عليه السلام، فقد جاد بنفسه، «والجود بالنفس أقصى غاية الجودِ».

سخاء الإمام عليه السلام ينطلق من مفهومه ورؤيته، فإننا لو اطلعنا على كلمات الإمام الحسين عليه السلام لرأيناه يضع منظومة متكاملة حول فلسفة المال والتعامل مع الثروة والإمكانات المتاحة في الحياة، يقول عليه السلام في كلمة له: «مالك إن لم يكن لك كنت له، فلا تُبْقِ عليه، فإنه لا يبقي عليك، وكُلْهُ قبل أن يأكلك»[1].

ويقصد الإمام بذلك أن مالك هو لك ما كنت له منفقًا، وأما المتبقي فهو ذخيرة

(١) بحار الأنوار. ج٦٨، ص٣٥٧، حديث٢١.

لغيرك، وتكون أنت المحاسب عليه، والمطالب به، وأنت لا تبقى لمالك، فَكُلْهُ قبل أن يأكلك.

١. الإمام يَعُدُّ المال الحقيقي هو الذي ينفقه الإنسان ويتصرف فيه في الحياة، وما زاد عليه يسميه الإنسان مَالَهُ، وهو في الحقيقة ليس له؛ لأن هذا المال سيبقى وسيأخذه آخرون، بينما الإنسان سيحاسب عليه يوم القيامة. كما ورد في حديث قدسي عن اللّه تعالى: «يقول ابن آدم ملكي وملكي، ومالي مالي، يا مسكين أين كنت حيث كان الملك ولم تكن، وهل لك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت»[(١)].

٢. من ناحية ثانية فإن الإمام عليه السلام يعدّ وجود حاجات متبادلة بين الناس، بحيث كل مستطيع منهم يقدّم الخدمة لأخيه الإنسان، يعدّ هذه نعمة من اللّه تعالى على ذلك المستطيع، وتوفيقًا إلهيًّا وفق إليه في خدمته للآخرين، قال عليه السلام: «اعلموا أن حوائج الناس إليكم من نعمِ اللّه عليكم، فلا تملوا النّعم فتحور نقمًا»[(٢)] ـ تحور بمعنى: ترجع ـ.

حينما تكون في موقع من الثروة والجاه ويأتيك الآخرون ويطلبون منك، فيجب أن تعلم أن هذه نعمةٌ من اللّه سبحانه عليك.

٣. في مورد ثالث يتحدث الإمام الحسين عليه السلام عن العطاء والسخاء بأنه هو الذي يجعل للإنسان موقعًا متقدمًا في الحياة والمجتمع قال عليه السلام: «أيها الناس من جادَ، سادَ»[(٣)]، بمعنى: من يجود بماله ـ أي يعطي ـ يستحق السيادة والتقدم والاحترام في المجتمع، نتيجة طبيعية لعطائه وجوده.

---

(١) بحار الأنوار. ج٦٨، ص٣٥٦، حديث١٧.
(٢) المصدر نفسه. ج٧٥، ص١٢١، حديث٤.
(٣) المصدر نفسه.

٤. الإمام الحسين عليه السلام حينما سمع رجلًا يقول: «إن المعروف إذا أسدي إلى غير أهله ضاع»، بمعنى: إذا صنع الإنسان معروفًا في غير أهله يضيع هذا المعروف، وكأنما ذلك الإنسان ضيع جهده وماله في غير محلّه، وكأنه ضيع ماله وفقده.

أجابه الإمام عليه السلام: «ليس كذلك، ولكن تكون الصنيعة مثل وابل المطر تصيب البرّ والفاجر»[١].

الإنسان ينبغي أن يصنع المعروف الشامل لكل الناس، كما جاء في الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله أنه قال: «اصطنع الخير إلى من هو أهله، فإن لم تصب أهله فأنت أهله»[٢].

وعنه صلى الله عليه وآله: «اصطنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس بأهله، فإن لم يكن أهله فأنت أهله»[٣].

٥. ويقول عليه السلام في كلمة أخرى: «إذا كان يوم القيامة، نادى منادٍ: أيها الناس، من كان له على اللّه أجر فليقم، فلا يقوم إلا أهل المعروف»[٤].

وهو القائل كما يروى[٥] عنه عليه السلام:

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها ... على الناس طرًّا قبل أن تتفلت
فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ... ولا البخل يبقيها إذا ما تولت

هذه نماذج من كلمات الإمام الحسين عليه السلام وفلسفته للعطاء والإنفاق.

---

(١) بحار الأنوار. ج٧٥، ص١١٧، حديث٣.
(٢) مستدرك وسائل الشيعة. ج١٢، ص٣٤٨، حديث١٤٢٥٤.
(٣) المصدر نفسه. حديث١٤٢٥٥.
(٤) حياة الإمام الحسين عليه السلام. ج١، ص١٨٣.
(٥) بحار الأنوار. ج ٤٤، ص ١٩١، حديث٣.

نماذج من عطاء الإمام الحسين عليه السلام في سيرته

يتحدث المؤرخون عن كرم الإمام عليه السلام وجوده، وينقلون في ذلك وقائع وحوادث عدّة، نشير إلى بعض منها:

١. مرَّ الحسين بن علي عليه السلام بمساكين قد بسطوا كساءً لهم وألقوا عليه كسَرًا، فقالوا: «هلم يا ابن رسول اللّه»، فثنى وركه فأكل معهم، ثم تلا الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[سورة النحل، الآية: ٢٣]، ثم قال: «قد أجبتكم فأجيبوني»، قالوا: «نعم، يا ابن رسول اللّه»، فقاموا معه حتى أتوا منزله، فقال للجارية: «أخرجي ما كنت تدخرين»[١]، وفي هذه الحادثة هناك روايتان: رواية تقول: «فأكل معهم»، وأخرى تقول: «لولا أنه صدقة لأكلت معكم»، ثم قال: «قوموا إلى منزلي»، فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم»[٢].

ولعلهما حادثتان لجماعتين، الجماعة الأولى كانوا فقراء يأكلون من مالهم، لكنهم كانوا ضعفاء وفقراء، بينما الجماعة الأخرى كانوا من المساكين وعندهم من أموال الصدقة يأكلون منها.

٢. وفد أعرابي المدينة فسأل عن أكرم الناس بها، فدلَّ على الحسين عليه السلام، فدخل المسجد فوجده مصليًّا، فوقف بإزائه وأنشأ:

لم يخب الآن من رجاك ومن ... حرَّك من دون بابك الحلقه
أنت جواد وأنت معتمد ... أبوك قد كان قاتل الفسقه
لولا الذي كان من أوائلكم ... كانت علينا الجحيم منطبقه

قال: فسلم الحسين وقال: «يا قنبر، هل بقي من مال الحجاز شيء؟» قال: «نعم، أربعة آلاف دينار»، فقال: «هاتها، قد جاء من هو أحق بها منا»، ثم نزع برديه ولفَّ الدنانير

(١) بحار الأنوار. ج٤٤، ص١٨٩، حديث١.
(٢) المصدر نفسه. ج ٤٤، ص ١٩١، حديث٣.

فيها وأخرج يده من شق الباب حياءً من الأعرابي وأنشأ:

خذها فإني إليك معتذر واعلم بأني عليك ذو شفقه
لو كان في سيرنا الغداة عصا أمست سمانا عليك مندفقه
لكن ريب الزمان ذو غير والكف مني قليلة النفقه

قال: فأخذها الأعرابي، وبكى، فقال له: «لعلك استقللت ما أعطيناك»، قال: «لا، ولكن كيف يأكل التراب جودك»[1].

٣. دخل الحسين عليه السلام على أسامة بن زيد وهو مريض، وهو يقول: «واغماه!»، فقال له الحسين عليه السلام: «وما أغمّك يا أخي؟» قال: «دَيْني، وهو ستون ألف درهم»، فقال الحسين عليه السلام: «هو عليَّ»، قال: «إني أخشى أن أموت»، فقال الحسين: «لن تموت حتى أقضيها عنك»، قال: فقضاها قبل موته[2].

٤. وروى أحمد بن سليمان بن علي البحراني في (عقد اللآل في مناقب الآل) أن الحسين عليه السلام كان جالسًا في مسجد جده رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاة أخيه الحسن عليه السلام، وكان عبد الله بن الزبير جالسًا في ناحية المسجد، وعتبة بن أبي سفيان في ناحية أخرى، فجاء أعرابي على ناقة فعقلها في باب المسجد ودخل، فوقف على عتبة بن أبي سفيان فسلم عليه، فرد عليه السلام، فقال له الأعرابي: «إني قتلت ابن عم لي وطولبت بالدية، فهل لك أن تعطيني شيئًا؟» فرفع رأسه إلى غلامه، وقال: «ادفع إليه مئة درهم»، فقال الأعرابي: «ما أريد إلا الدية تمامًا ثم تركه»، وأتى عبد الله بن الزبير وقال له مثل ما قال لعتبة، فقال عبد الله لغلامه: «ادفع إليه مئتي درهم»، فقال الأعرابي: «ما أريد إلا الدية تمامًا»، ثم تركه، وأتى الحسين عليه السلام فسلم عليه، وقال: «يا ابن رسول الله، إني قتلت ابن عم لي وقد طولبت بالدية، فهل لك

(١) بحار الأنوار. ص١٩٠.
(٢) المصدر نفسه. ص١٨٩.

أن تعطيني شيئًا؟»، فقال له: «يا أعرابي، نحن قوم لا نعطي المعروف إلا على قدر المعرفة»، فقال: «سل ما تريد»، فقال له الحسين: «يا أعرابي، ما النجاة من الهلكة؟» قال: «التوكل على اللّه عز وجل»، فقال: «وما الهمة؟» قال: «الثقة باللّه»، ثم سأله الحسين غير ذلك، وأجاب الأعرابي، فأمر له الحسين عليه السلام بعشرة آلاف درهم، وقال له: «هذه لقضاء ديونك»، وعشرة آلاف درهم أخرى، وقال: «هذه تلم بها شعثك وتحسن بها حالك وتنفق منها على عيالك»، فأنشأ الأعرابي يقول:

طربت وما هاج لي معبق ... ولا لي مقام ولا معشق
ولكن طربت لآل الرسو ... ل فلذَّ لي الشعر والمنطق
هم الأكرمون هم الأنجبون ... نجوم السماء بهم تشرق
سبقت الأنام إلى المكرمات ... فقصر عن سبقك السبق
بكم فتح اللّه باب الرشاد ... وباب الفساد بكم مغلق[1]

هذا غيض من فيض، وإلا فالشواهد التي تدل على جوده وسخائه كثيرة.

إن الإمام الحسين عليه السلام كان في كلامه وسيرته مدرسة للعطاء والسخاء.

□ السعي للثروة والقدرة

بعض الناس حين يسمعون قصصًا وأخبارًا عن الأسخياء، والمنفقين، يتشجعون للعطاء، حيث يتمنى لو أن عنده ثروة لينفق منها، وفي الواقع على الإنسان أن يسعى لكي تكون له ثروة وقدرة، ولا ينبغي له أن يقبل لنفسه مستوًى محدودًا من الجاه أو من المال، بل عليه أن لا يكون لطموح وتطلعه حدود.

في كثير من المجتمعات أغلب الناس لديهم تطلع لتحسين وضعهم الاقتصادي، ويفكرون كيف يصبحون أثرياء؟ وكيف يمتلكون الثروة؟ أما في مجتمعنا ـ وللأسف ـ

(١) أعيان الشيعة. ج١، طبعة ١٤٠٦هـ، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات)، ص٥٨٠.

فإن أغلب الناس شعارهم «أقل ما فيها يكفيها»، فالمهم لدى الفرد منا أن يحصل على لقمة العيش، وعلى الوظيفة التي يُسَيِّر بها شؤون حياته العامّة.

الآية الكريمة التي افتتحنا بها الحديث قبل أن تتحدث عن الإنفاق تتحدث عن بسط الرزق والتقدير في الرزق، يقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾[سورة سبأ، الآية: ٣٩].

اللّه سبحانه يبسط الرزق لبعض من الناس، ويقدر على البعض الآخر، وفي الوقت نفسه لا يوزّع اللّه الأرزاق بين الناس بشكل عبثي، وإنما ضِمن سنن ووسائل وحكمة إلهية، ولذلك ورد عن علي بن عبد العزيز قال: قال لي أبو عبد اللّه عليه السلام: «ما فعل عمر بن مسلم؟» قلت: «جعلت فداك، أقبل على العبادة وترك التجارة»، فقال عليه السلام: «ويحه، أما علم أن تارك الطلب لا يستجاب له؟ إن قومًا من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وآله لما نزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[سورة الطلاق، الآيتان: ٢ ـ ٣] أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة وقالوا: «قد كفينا»، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله، فأرسل إليهم، فقال: «ما حملكم على ما صنعتم؟» قالوا: «يا رسول اللّه، تكفل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة»، فقال: «إنه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب»[(١)].

ومثله قوله صلى الله عليه وآله: «إني لأبغض الرجل فاغرًا فاه إلى ربه يقول: «اللهم ارزقني»، ويترك الطلب»[(٢)].

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن رجلًا سأله أن يدعو اللّه له أن يرزقه في دعةٍ، فقال عليه السلام: لا أدعو لك، اطلب كما أُمِرْتَ، وقال: «ينبغي للمسلم أن يلتمس الرزق حتى يصيبه حرّ الشمس»[(٣)].

(١) الكافي. ج ٥، ص ٨٤.
(٢) مستدرك الوسائل. ج١٣، ص١٥، حديث١٤٥٩٧.
(٣) دعائم الإسلام. ج٢، ص٥.

هذا الرجل يريد من الإمام أن يدعو له على أساس أن دعاء الإمام عليه السلام مستجاب، إنه يريد أن يأتيه الرزق وهو جالس في بيته من غير عناء، ولم يقبل الإمام ذلك، يقول تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾[سورة الملك، الآية: ١٥].

فأساس فلسفة وجود الإنسان في هذه الحياة لكي يعمر الكون، كما جاء في قول اللّه تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[سورة هود، الآية: ٦١].

النَّاس في بعض المجتمعات يتحفزون للعمل والسعي والإنتاج، بينما تجد الهمة للسعي في بعض المجتمعات قليلة، والأثرياء يُعدُّون فيها على الأصابع، ومنها مجتمعنا، فإذا أراد الإنسان أن يحصي الأثرياء في المجتمع لا يجد عددًا كبيرًا، بينما في مجتمعات أخرى تجد أعدادًا كبيرة من الأثرياء.

ومن ذلك ما نشره تقرير عن الحالة المادية بسويسرا، حيث يفيد التقرير أنه من بين كل ٢٥ سويسري يوجد بينهم مليونير واحد[١].

ومجتمعات أخرى غير المجتمع السويسري إذا وُضِعَت قائمة لعدد الأثرياء المتمكنين فيها، تجد أمامك قائمة كبيرة.

بينما في بعض المجتمعات ـ ومجتمعنا واحد منها ـ عندما يحصى عدد الأثرياء في المدينة الواحدة بالكاد تخرج بعدد يصل إلى عدد الأصابع في اليد الواحدة.

أسباب عدم السعي للثروة والقدرة

هذه المسألة ليست عفوية بل تدل على حالة معينة.

يوجد هناك عاملان أساسيان، هما:

١. التربية

المجتمعات التي تربي أبناءها على الاتكالية والاعتماد على الغير، بحيث يتربى الولد

(١) جريدة الوطن. بتاريخ ١٠/ ١١/ ١٤٢٥هـ.

من صغره إلى أن يصبح شابًّا على أن أباه وأهله ينفقون عليه، ويوفرون له كل شيء، من دون عناء، هذا الإنسان يستمر على هذه الحالة، بحيث يريد أن تتوفر له احتياجاته دون عناء وتعب طوال حياته.

وفي هذه النقطة يُنْقَل أن العرب في الجاهلية كانوا يربون أبناءهم على الخشونة، ولذلك يدفعون بالطفل الصغير حتى يتربى في البادية، وهي عادة حسنة، ذلك أن التدليل وتوفير كل شيء للأبناء في كثير من الأحيان ليس لصالح بناء شخصيتهم.

ولذلك لا أظن أنه من الصالح أن يشعر الأب بفخر واعتزاز بأنه اشترى لولده سيارة من أفضل الموديلات وأرقى الماركات، وربما دلّله بطرق وأساليب أخرى.

وربما تكون هذه الممارسات الطائشة بالسيارات والدرّاجات النارية ناتجة عن مثل هذا النوع من التدليل، حيث لا يكون الابن هو من وفّر لنفسه هذا النوع من المركبات.

وأتمنى أن توجّه كثير من هذه المصروفات فيما هو في خدمة أبنائنا فعلًا، فبدل أن يشتري الأب المتمكّن لابنه سيارة غالية الثمن، بإمكانه أن يصرف هذا المبلغ في أن يرسله للدراسة بالخارج، ليأتي بشهادة عالية ودراسة جادّة.

إننا نرى بقية المجتمعات التي تعيش مستوى اقتصادي أقل مما نعيشه، ينفقون كل ما يجمعونه في حياتهم من أجل أن يدرس أبناؤهم بالخارج.

إننا لا نتوقّع بفعل هذا النوع من التربية على الدعة والتواكل أن يكون الأبناء منتجين كادحين.

٢. الثقافة السائدة في المجتمع

بعض المجتمعات تسودهم ثقافة تدفع للعمل وللثراء، وبعض المجتمعات على العكس من ذلك، تسودها ثقافة الاتكال والرضا بالحال.

قصة عالم الاجتماع الألماني

وفي هذا المجال ينقل عن عالم الاجتماع الألماني المعروف ماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠م) ـ وهو من كبار علماء الاجتماع، ومن مؤسسي علم الاجتماع الحديث، إذ كان أمين مكتبة، تم توجه إلى علم الاجتماع، وأصبح من عباقرة علم الاجتماع في هذا العصر.

ينقل عنه أنه كان قد لفت نظره وضع منطقتين متجاورتين في ألمانيا متساويتين في ظروفهما الطبيعية، لكن الوضع الاجتماعي والاقتصادي في إحدى المنطقتين يختلف عن الأخرى، إحدى المنطقتين بها تقدم اقتصادي، والناس فيها أثرياء، لديهم مصانع وتجارة رائجة، بينما الأخرى غالبية أهلها فقراء، ويعيشون في حالة ريفية، ليس لديهم تلك الثروات والإمكانات الكبيرة.

فالتفت العالم فيبر لهذا التفاوت، وحاول أن يبحث هل هناك سبب لهذا التفاوت؟، ووضع لذلك احتمالات عدة، منها:

- هل هذه المنطقة فيها ثروات والأخرى لا يوجد بها مثل تلك الثروات؟
- هل الوضع في المنطقة من حيث الطقس يختلف عن الأخرى؟

وضع كل الاحتمالات فلم يجد سببًا، إلى أن التفت إلى أن السبب في ذلك هو الفارق في الثقافة، إذ كانت المدينة المتقدّمة صناعيًّا تنتمي إلى المذهب البروتستانتي، وكانوا ضمن المدرسة الكالفنية، وهي تعدّ مدرسة متطورة في هذا المجال، إذ كان يتربى الناس فيها على أن مكانة الناس في الآخرة هي بحجم مكانتهم في الدنيا.

بينما المنطقة الأخرى كانت ملتزمة بالمذهب الكاثوليكي في المسيحية، وهذا المذهب التقليدي يُزهّد أتباعه في الحياة، ولا يعطي أهمية للحياة، ولا يبعث الهمّة على النشاط والعمل الاقتصادي.

(جون كالفن) ـ صاحب المدرسة الكالفنية المسيحية ـ ربَّى الناس في مجتمعه على أنه ينبغي لهم أن يكونوا متقدمين في الدنيا، لكي يكونوا متقدمين في الآخرة، فكان يربط في أذهانهم بين التقدم في الدنيا والتقدم في الآخرة.

كما أن لديه مفهومًا لا نتفق معه فيه .. فهو يقول: إن اللّه يحب النُّخب، ولا يحب الفقراء المساكين، ويقصد بالنُّخب ـ هنا ـ أصحاب الثروات، وأصحاب المكانة الاجتماعية والعلمية، فيقول بأن هؤلاء هم جماعة اللّه وليس الناس الفقراء التعساء.

ولذلك العالم الألماني (ماكس فيبر) اكتشفَ أن الفارق بين المنطقتين هو هذا الفارق الثقافي، منطقة ثقافة أبنائهم تدفعهم إلى النشاط والفاعلية، والمنطقة الأخرى ثقافة أبنائها لا تدفعهم إلى ذلك. ولهذا تقدمت هذه وتأخرت تلك.

أثر الثقافة الاجتماعية في تقدُم الأمم

وفي هذه النقطة أتذكّر أنني في أولى سفراتي إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٨٠م، أثناء وجود طُلاب في مؤتمر إسلامي التقيت طالبين وصلا للتوّ إلى هُناك، أحدهما من لبنان، والآخر من إحدى المناطق الخليجية، وكان الفارق بينهما أن الطالب الخليجي أتى ولديه بِعثة رسمية من الدولة، ومالٌ من أهله، وكان في حالة جيدة، بينما الطالب اللبناني استطاع بصعوبة أن يحصل على مالٍ للتذكرة ليتسنى له الدراسة في أمريكا.

وبعد خمس سنوات اتفق أن التقيت هذين الطالبين مرة أخرى، ولكن مع فارق كبير، فالطالب الخليجي لم يتمكن من إتمام دراسته، لينقطع عنه تمويل البعثة، لدرجة أنه أتى إلى المؤتمر باحثًا عمن يقدم له المساعدة المالية، ليتمكّن من مواصلة المعيشة في الولايات المتحدة الأمريكية، بينما الطالب اللبناني إلى جانب دراسته التي أتمّها حصل على بطاقة ألـ «غرين كارد» (البطاقة الخضراء)، وحصل على الجنسية الأمريكية، وعَمِل بالتجارة، وأصبح لديه إمكانات جيدة وثروة ومكانة اجتماعية.

هذان الطالبان جاءا إلى الولايات المتحدة الأمريكية في وقتٍ واحد، ولكن مع اختلاف في النظرة إلى الحياة وفي الثقافة وفي أسلوب التربية، وكذلك طبيعة المجتمع الذي أتى منه كل منهما.

ففي لبنان نُلاحظ: أن طبيعة المجتمع فيها دفع وتحفيز وتطلع، ولذلك أبناء المجتمع اللبناني أينما ذهبوا ـ مغتربين وهاربين عن بلدهم بسبب الفقر أو الحرب ـ يصبحون في مختلف المناطق أثرياء، وبعضهم وصل إلى مواقع سياسية في تلك البلاد.

والسبب في ذلك هو وجود ثقافة اجتماعية دافعة في هذا الاتجاه لدى المجتمع.

ولذا أرى أن مجتمعنا بحاجة إلى ثقافة تدفع أبناءه إلى الثراء وإلى التقدم الاقتصادي، وبخاصّة أن منطقتنا تتوفر بها ثروات هائلة، ولها تاريخ اقتصادي.

ولا أظن أنه من المجدي أن نبحث عن التبريرات، التي هي جزء من هذه الثقافة التقاعسية، مُقنعين أنفسَنا أننا غير مقصرين، وأننا نسعى، ونتخيّل أمامنا العوائق غير الواقعية.

هذه التبريرات جزء من الثقافة الخاطئة التقاعسية التي تُثبِّط الهِمم، فمهما كانت العوائِق، فالإنسان الناشط وصاحب الإرادة، يتجاوز العوائق، وذلك بدليل ما نراه من أن أفرادًا منَّا استطاعوا أن يُصبحوا أصحاب ثروة وإمكانات عالية.

الدين الإسلامي يدعو إلى العلو

يبدو لبعضنا أن الدنيا ليست ذات أهمية، إنما الأهم كسب رضا اللّه تعالى.

إن وجود مثل هذه الثقافة تقلل أهمية الحركة والنشاط، وهي في الواقع تخالف نصوص الدين وتعاليمه.

تعاليم الدين تشجع الإنسان المؤمن أن يكون أفضل من غيره، كما قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[سورة الأعراف، الآية: ٣٢].

المؤمنون لا ينبغي لهم أن يكونوا في حالة يرثى لها من التخلف العلمي والحضاري، إنما ينبغي لهم أن يكافِحوا حتى يكونوا في موقع أفضل حياتيًا واقتصاديًا، كما يقول اللّه تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٣٩].

مراعاة المظهر والسلوك العام للمجتمع الإسلامي

لماذا الإنسان يقبل لِنفسه أن يكون منظره وهيأته ليست في المستوى اللائق والمتقدم؟

إن مما يؤسف له أن تصلنا الأخبار عن بعض أبنائنا عندما يتواجدون في مناطق أخرى ـ لعمل أو لدراسة ـ فغالبًا ما يظهرون وهم حاسرو الرؤوس، على العكس من أبناء المجتمعات الأخرى عندما يذهبون إلى الجامعات أو الأسواق، حيث يلتزمون بالزي الوطني، ويظهرون بمظهر جيد.

ينبغي لنا أن نهتم بمنظرنا، فهذه مسألة مهمة، إن اللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[سورة الأعراف، الآية: ٣١]، وقال نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «إن اللّه جميل يحبُ الجمال».

وكان هذا الحديث إجابة عن سؤال تقدم به أحد أصحابه صلى الله عليه وآله وسلم عن اللباس الجميل النظيف، فتقول الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه حبة من كبر»، قال رجل: «يا رسول اللّه، إنه ليعجبني أن يكون ثوبي جديدًا ورأسي دهينًا، وشراك نعلي جديدًا »، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ذاك جمال، واللّه جميل يحب الجمال»[1].

وعن الصادق عليه السلام قال: «إن اللّه يحب الجمال والتجمُّل، ويبغض البؤس والتباؤس، فإن اللّه إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن يرى عليه أثرها»، قيل: «كيف ذلك؟» قال:

(١) المستدرك على الصحيحين. ج١، ص٧٨، حديث ٦٩.

«ينظف ثوبه، ويطيب ريحه»[١].

وعنه عليه السلام أنه نظر إلى رجل من أصحابه، عليه جبة خز ـ إلى أن قال ـ: ثم قال أبو عبد اللّه عليه السلام للرجل: «الْبَسْ وَتَجَمَّلْ، فإن اللّه ـ عز وجل ـ يحب الجمال ما كان من حلال»[٢].

البعض لا يرى القضيةَ بهذه الأهمية، ولكنها مهمة، حيث يبرّر البعض ذلك بأنها عادات وتقاليد اجتماعية، فأبناء هذا المجتمع من طبيعتهم هذا اللباس، وليس ذلك اللباس في تلك المناطق.

والبعض يعد هذه النقطة من باب تقييد الحرّيات وإطلاقها، لدرجة أن البعض يتساهل ولا يقيّد حريّته، حتى إنه يذهب إلى المسجدِ بملابس النوم ويُصلي بها، أو يذهب إلى المجالس العامة ولا يهتم بمنظرِهِ وشكله.

الإنسان المؤمن ينبغي أن يعيشَ حياةً أفضل، فغير المسلمين ليسوا أولى منا بزينةِ الدُنيا والطيباتِ من الرزق فيها، فينبغي لنا أن نسعى، وأن يكون لدينا طموح، وأن نتعاون كمجتمع وأفراد وجماعات، فهذا إِعزاز للدين والعقيدةَ التي ننتمي إليها.

وقد جاء توجيه النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام بهذا الاتجاه، كما ورد في حديث عن نبينا محمد صلى الله عليه وآله أنه قال: «نِعْمَ العون على تقوى اللّه الغنى»[٣].

وروي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: «نعم العون الدنيا على الآخرة»[٤]، ويروى عنه عليه السلام: «نعم العون على الآخرة الدنيا»[٥]، وعنه عليه السلام في قول اللّه عز وجل: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٠١]، قال: «رضوان

(١) وسائل الشيعة. ج ٥، ص ٧، حديث٥٧٤٦.

(٢) مستدرك الوسائل. ج ٣، ص ٢٣٥، حديث٣٤٦٥.

(٣) الشيخ الصدوق. محمد بن بابويه القمي. من لا يحضره الفقيه، ج ٣، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ، (بيروت: دار المرتضى)، ص ١٥٦.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الكافي. ج٥، ص٧٢، حديث٩.

اللّه والجنة في الآخرة، والسعة في الرزق والمعايش، وحسن الخلق في الدنيا»[١].

وقال عليه السلام: «ليس منا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه»[٢].

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا»[٣].

وفي حديث آخر ينسب للإمام علي عليه السلام أنه قال: «خيرُ الدنيا والآخرة في خصلتين: الغِنى والتُقى، وشر الدنيا والآخرة في خصلتين: الفقر والفجور»[٤].

وورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أَصلِحوا دنياكُم، واعملوا لآخرتِكُم»[٥].

فك الارتباط بين الغنى والتعلّق المذموم بالدنيا

وهنا نقف مع ما قد يحسبه البعض تناقضًا، فنحن ذكرنا أحاديث تحث على حب الحياة وطلب الغنى، وهناك بعض الروايات جاءت في ذم الدنيا والغنى كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ازهد في الدنيا يحبك اللّه»[٦]، أو كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «شرّ أمتي الأغنياء»[٧]، وهذا ليس تناقضًا، فليس معنى هذه الأحاديث ترك الدنيا، إنما معناها عدم التكالب عليها والتعلّق بها على حساب القيم وأداء الواجبات الشرعية.

والطلب عندما يكون من الحلال ويصرف في الحلال والطاعة، فهذا مقتضى

(١) من لا يحضره الفقيه. ج ٣، ص ١٥٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) من لا يحضره الفقيه. ج ٣، ص ١٥٦.
(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. ج٢٠، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، (بيروت: دار الجيل)، ص٣٠١، كلمة رقم٤٤٦.
(٥) محمد الريشهري. التنمية الاقتصادية في الكتاب والسنة، الطبعة الأولى١٤٢٢هـ، (قم: دار الحديث)، ص٥٠، حديث١.
(٦) وسائل الشيعة. ج١٢، ص١٥، باب استحباب الزهد في الدنيا.
(٧) محمد مهدي النراقي. جامع السعادات. ج٢، الطبعة السابعة١٤٢٢هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي)، ص ٣٦، فصل (ذم المال).

الجمع بين الدنيا والآخرة، وهذا ما نفهمه من قول الإمام الصادق عليه السلام: «لا خير في من لا يحب جمع المال من حلال، يكفّ به وجهه، ويقضي به دينه، ويصل به رحمه»[١]، وقوله عليه السلام: «من طلب الدنيا استغناءً عن الناس وتعطفًا على الجار، لقي اللّه ووجهه كالقمر ليلة البدر»[٢].

وهذه كلها أحاديث تدل على أن الثروة من المنظور الإسلامي خير معين على التقوى وبناء النفس، كما أنها ساترة للنقائص والعيوب.

حاجة المجتمع إلى العلاقات والمعارف وأصحاب الجاه

هُناك تجارب كثيرة تُبين كيف أن أشخاصًا من مجتمعنا بجدهم ومثابرتهم أصبحوا أثرياء ولديهم قدرات هائلة، سواء كانت قدرات مالية أو وجاهية، وللأسف فإن البعض من الناس لا يعرف قيمة وجود ذوي الجاه، والمقصود هنا ذوي العلاقات الاجتماعية الواسعة والنافِذَة، والقادرة على التدخل في حلّ كثير من المشاكل والأزمات.

الحياة تحتاج إلى مثل هذه الأمور، وبخاصة في مجتمعاتنا وبلداننا، حيث لا تسير الأمور إلا بالمحسوبيات والعلاقات، فكلما كان للمجتمع علاقات ومعارف وجاه تُصبح أمور الناس أفضل في مختلف المجالات.

ومن الخطأ ما يعتقده البعض من أنه لِيصبح ذا علاقات وجاه ينبغي أن يكون ثريًّا، فهذا مفهوم غير صحيح، لأن المجال مفتوح للعلاقات من خلال المعاشرة الطيبة، وخلق علاقات حسنة مع مختلف الأطراف، وهناك أشخاص لم ينطلقوا من موقع ثروة ولا من موقِع إمكانات، لكنهم تعرفوا إلى الناس وكونوا صداقات معهم، فخَدموا غيرهم واندمجوا، وأصبحت لهم شخصية ومكانة في المجتمع.

لكن معظم أبناء مجتمعنا يميلون إلى الانغلاق على أنفسهم، وصداقاتهم قد لا

(١) بحار الأنوار. ج١٠٠، ص٧، حديث٣٠.

(٢) بحار الأنوار. ج١٠٠، ص٨، حديث٣١.

تتجاوز مناطق سكنهم، ولا يهتمون ببناء جسور العلاقة والانفتاح مع الآخرين، ليكونوا معروفين وأصحاب مكانة وجاه على المستوى الوطني.

□ مجالات الإنفاق ونماذجه المشرقة

الإنسان في هذه الحياة يكون تحت تصرفه مال، قلَّ ذلك المال أو كثُر، وهناك من يعطيه اللّه سبحانه و تعالى سعة في المال والرزق، لكن الموفقين من هؤلاء هُم الذين ينفقون أموالهم على خارج دائرتهم واهتماماتهم الشخصية، في المصلحة العامة، مصلحةِ المجتمع وخدمة الناس، بينما البعض الآخر من الأثرياء المتمكنين لا تكون لديهم هذه الحالة من روح البذل والعطاء، لأن من طبيعة الإنسان أن تكون نفسُه شحيحةً، ولذلك يقول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[سورة الحشر، الآية: ٩ وسورة التغابن، الآية: ١٦]، وفي آية أخرى يقول اللّه: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾[سورة النساء، الآية: ١٢٨].

يُنقل عن الميرزا محمد حسن الشيرازي ﵀ أنه «أتى إليه شخص من التجار صاحب مال وأجرى معه حساب الخمس، وكان مبلغًا كبيرًا.

فقال التاجر للميرزا الشيرازي أنه سيأتي بالمبلغ لاحقًا، وعندما ذَهب إلى المنزل أخذ يُفكر كيف يدفع مبلغًا كهذا؟! حيث صعُبَ عليه أن يقرر، إلى أن أفرد المبلغ المطلوب، ووضَعه جانبًا في مكان معين.

وكان التاجر يأتي يوميًّا للصلاة خلف هذا المرجع، وفي كل مرة يراه يقول له: «إن المبلغ جاهز لآتي به، ولكن حصل لي كذا وكذا ..» ويبحث له عن أعذار.

وفي نهاية المطاف صارح السيد، وقال له ـ بما معناه ـ: «مولانا، أنا لا أستطيع أن آتي لك بالمال، فليست لدي القُدرة على ذلك، فأطلب منك أن تبعثَ لي بأشخاصٍ ممن تعرفهم وتثق بهم ليأخذوا المال، حتى ولو رفضت وقاومتهم».

اتفق بعدها الميرزا الشيرازي مع جماعة ليأتوه بالمال، فذهبوا إلى بيت التاجر ودخلوا

المجلس ليأخذوا المال لأنه أخبرهم بمكانه، وقد مانع في البدء، ولكنهم استطاعوا استنقاذه منه.

أتى التاجر بعدها إلى المرجع الشيرازي وشكره على تخليصه من عدم دفع حق الخمس.

وهذه المواقف تتكرّر، ويتعرّض لها كثيرًا وكلاء المراجع في قبض حق الخمس، فعندما يأتي بعض الأشخاص لإجراء حساب الخمس، فإذا رأى المبلغ كبيرًا قد لا يأتي مرة أخرى.

على الإنسان أن يتنبّه للحقيقة التي تؤكّدها الآية الكريمة التي افتتحنا بها الحديث، وهي أن المال وهذه الأرزاق إنما هي للّه سبحانه.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى عليه أن يتنبّه للحقيقة الثانية، وهي أن الإنفاق في سبيل اللّه، إنما يرجع بالفائدة على الإنسان نفسه، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾[سورة سبأ، الآية: ٣٩].

بمعنى أن اللّه تعالى يعطيك بدلًا عن المال الذي أنفقته، فهو خيرُ الرازقين.

ويقول في آية أخرى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾[سورة الإسراء، الآية: ٧]، وفي آية ثالثة: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ﴾[سورة البقرة، الآية: ١١٠، وسورة المزمل، الآية: ٢٠]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٧٢].

وفي الأحاديث تأكيد لهذه الحقيقة أيضًا، فقد ورد عنه ﷺ: «إن للّه في كل ليلة ملكًا ينادي: اللّهُم أعطِ كلَّ منفقٍ خلفًا وكلَّ ممسكٍ تلفًا»[1].

والإنسان ينبغي أن يكون لديه ثقة باللّه سبحانه، يقول رسول اللّه ﷺ: «من

(١) وسائل الشيعة. ج٧، ص٣٩١، حديث٩٦٦٣.

صدّق بالخلف جاد بالعطية»[١]، ويروى عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ»[٢].

نحنُ نعد أنفسنا مجتمعات متدينة، مؤمنون بالإسلام ولدينا هذا القرآن وهذه النصوص الشرعية التي تدعونا وتحفزنا إلى الإنفاق، لكننا نرى أن المجتمعات الأخرى سبقتنا في هذا المجال.

التبرعات في المجتمعات الأخرى

١. تقرير ٢٠٠٣ للتبرعات في الولايات المتحدة الأمريكية يشير إلى أن الأمريكيين تبرعوا للجمعيات الخيرية بـ ٢٤٥ بليون دولار، ٣٥ ٪ منها للجمعيات الدينية، والباقي للمؤسسات الصحية، والتربوية، والثقافية[٣].

٢. كما أن بعض الشخصيات الثرية في الولايات المتحدة الأمريكية تتبرع كل عام بمبالغ كبيرة، ومنهم على سبيل المثال: بل جيتس، صاحب شركة مايكروسوفت، أكبر شركة في العالم للصناعة المعلوماتية، الذي يتبرّع سنويًّا بالمليارات.

وورن بوفت تبرع بمعظم ثروته، حيث تبرع بـ ٣٧ مليار دولار، وأبقى لنفسه منها ٦ مليارات فقط.

لماذا تسبقنا هذه المجتمعات في الإنفاق والعطاء؟! ولا نجد إلا نماذج قليلة جدًّا في مجتمعنا من مثل هؤلاء؟!

إننا، والحال هذه، ندعو الجميع إلى الدفع بمجتمعاتنا إلى الأمام، وإلى التحلّي بروح العطاء والبذل من أجل الآخرين.

---

(١) الكافي. ج٤، ص٢، حديث٤.

(٢) نهج البلاغة. حكمة ١٣٨.

(٣) مجلة الوسط. عدد ٦٤٩، الصادر بتاريخ ٥ يوليو ٢٠٠٤.

وهنا نجد أنفسنا ملزمين بالإشادة بتلك النماذج المشرقة في مجتمعاتنا وأوطاننا الذين ما بخلوا بأموالهم وثرواتهم من أجل خدمة مجتمعهم.

وهنا أذكر بعض الأمثلة من مجتمعنا:

١. ذكرت الصحف المحلية عن رجل الأعمال الشيخ (عبداللطيف الجبر): أنه وأسرته في الأحساء تبرعوا بإسكان شعبي يتكوّن من ٢٣٦ وحدة سكنية لمحدودي الدخل، للفقراء في الأحساء كلفتها ٦٠ مليون ريال.

٢. مركز كانو بالدمام لأمراض الكلى: كلّف ٢٠ مليون ريال.

٣. وكذلك مركز البابطين بالدمام لجراحة أمراض القلب: كلف ٧٥ مليون ريال.

هذه هي الأعمال الطيبة التي تعني مشاركة الإنسان وإسهامه في خدمة وطنه ومجتمعه.

ومن الأسماء اللامعة في البرّ والإحسان إلى مجتمعها: الفقيد الحاج عبداللّه المطرود رحمه الله الذي قدم مساهمات كثيرة في بناء المساجد، وكذلك دعم الجمعيات الخيرية، بالإضافة إلى مساعدته للفقراء.

إن الحاج عبد اللّه المطرود ساهم ودعم بناء أكثر من ١٠٠ مسجد في مختلف المناطق، في: أمريكا والهند وباكستان ولبنان، وفي المنطقة هنا للسنة والشيعة، حيث شارك في بناء الكثير من مساجدها.

نحن نعيش في بلد تبرز فيه مثل هذه الأسماء اللامعة، ونريد أيضًا أن يكون من مجتمعنا أسماء لامعة أخرى، على صعيد الخدمة الوطنية والعطاء العام في البلاد.

وإلا فما قيمة الأموال، والثروات ؟!

مجتمعنا بحاجة إلى العطاء والبذل

قدّم فرع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف في المنطقة الشرقية تقريرًا عن عدد المساجد التي بُنيت خلال السنتين الماضيتين، فأشار إلى أنه بني خلال هاتين السنتين في الدمام ٢٦ مسجدًا جديدًا، وفي الخبر ٢٩ مسجدًا، وفي بقيق ١٩ مسجدًا[١].

وعندما نوازن بين ما يبذل في بناء المساجد وبقية المشاريع الخيرية في منطقتنا وبين بقية المناطق نجد الفارق كبيرًا.

وهذا لا يعني انعدام هذه المشاريع في المنطقة، ففي محافظتنا الآن يوجد بعض المساجد التي تُبنى، لكننا بحاجه إلى تعاون أكثر وإلى عطاءٍ أكثر؛ لأن الجمعيات الخيرية والنوادي الرياضية والفقراء والمحتاجين يشكون من نقص العطاء، فكلما أعطينا فإن اللّه تعالى يبارك لنا في أموالنا.

والأحاديث التي تحثنا على العطاء كثيرة، يقول رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «داووا مرضاكم بالصدقة»[٢]، وعن أبي الحسن عليه السلام أنه قال: «استنزلوا الرزقَ بالصدقة»[٣]، وفي بعض الروايات: «يا معشر التجار، صونوا أموالكم بالصدقة»[٤].

وأخيرًا، علينا أن نُقبل على العطاء والإنفاق في خدمة مجتمعنا ووطننا، وبخاصة أننا نعيش هذهِ النعمة الكبيرة، وننتمي إلى مدرسة أَبي عبد اللّه الحسين عليه السلام، ونريد أن تكون آثار هذه المدرسة مُنعكسة على حياتنا.

---

(١) جريدة اليوم. العدد ١٠٩٤٣، الصادر بتاريخ ١/ ٤/ ١٤٢٤هـ الموافق١/ ٦/ ٢٠٠٣م.
(٢) بحار الأنوار. ج٥٩، ص٢٦٤، حديث٢٧.
(٣) الكافي. ج٤، ص١٠، حديث٤.
(٤) وسائل الشيعة. ج١٧، ص٣٨٤، حديث٢٢٨٠٣.

الانفتاح على الشباب

- ☐ قابلية الشباب للفكر والسلوك الجديد
- ☐ الشباب مجرمون أم ضحايا؟
- ☐ المسؤولية تجاه الشباب

"﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾[سورة يونس، الآية: ٨٣]. "

□ قابلية الشباب للفكر والسلوك الجديد

الشاب والاستقلالية الذاتية

الإنسانُ حينما ينشأ في فكر وسلوك لفترة طويلة من عمره، فإن هذا الفكر والسلوك يتجذر في نفسه وحياته، ويكون من الصعب عليه أن يتخلى عنه ويتجاوزه إلى غيره، ولهذا يصرُّ أكثر الناس على ما ألفوه من سلوك، وعلى ما تربوا عليه من أفكار ورثوها وعاشوا من خلالها، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[سورة الزخرف، الآية: ٢٣]، وفي آية ثانية: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[سورة الزخرف، الآية: ٢٣]، فالإنسان الذي يعيش عقودًا من عمره على فكرة وسلوك معين من الصعوبة أن يترك ذلك الفكر والسلوك ـ بغض النظر عن صوابه أو خطئه ـ، ولكن الشاب الحَدَث في السن، والناشئ الذي لم تمضِ عليه في حياته مدة طويلة، يألف فيها الأفكار والسلوكيات التي تلقاها عن أهله وبيئته، قابليتُه للتخلي عمّا ورثه عن عائلته وبيئته من الأفكار والسلوكيات متوفرة، وتكون بنسبة متقدمة؛ لأنها لم تتجذّر في نفسه بالمستوى المطلوب.

هذا من جهة، ومن ناحية أخرى يذكر علماء النفس والاجتماع أن الشاب عادة ما تحصل لديه نفسية متمردة، أو ميول إلى التمرد في مرحلة اكتشافه لذاته، وشعوره بشخصيته، فالإنسان في مرحلة الشباب يشعر بذاته وبشخصيته للتو، وفي هذه المرحلة

يتجاوز مرحلة الطاعة والخضوع (مرحلة الطفولة).

فكيف يعبر عن ذاته؟ وكيف يعبر عن هذا التجاوز؟

يصبح عنده نوع من الرغبة والميل إلى التمرد حتى يُشْعِرَ محيطه وبيئته بوجوده واستقلاليته.

الشباب جمهور أنبياء الله

فالشاب بسبب هذين العاملين:

١. عدم تجذُّر الفكر والسلوك الموروث في شخصيته ونفسه.

٢. ووجود نزعة من التمرد لإثبات الذات.

تكون قابليته لأي فكر أو سلوك جديد في مرحلة متقدمة؛ ولهذا في تاريخ المجتمعات ـ غالبًا ـ ما يبدأ التغيُّر الفكري والسلوكي في فئات الشباب لا من فئة الكبار، سواء كان التغير في الأفكار أو في السلوكيات والأخلاقيات. في بعديه الصحيح والمنحرف، ولهذا فإن القرآن الكريم حينما يتحدث عن حركة الأنبياء عليهم السلام يشير إلى أنهم حينما جاؤوا برسالات الله إلى أقوامهم استجابت لهم فئة الشباب، وذلك للسببين اللذين أشرنا إليهما، وهو أن نفوسهم طرية، وعندهم قابلية لأن يتقبلوا الرسالة.

وحينما نتناول الآية الكريمة: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ نجد أن الذرية هم الأبناء لا الآباء الكبار الذين لم يؤمنوا به في البداية، حيث إن معنى الذرّية ـ لغة ـ: الأبناء، ومعنى هذا أن فئة الأبناء (أي الشباب) هم من آمن بالنبي موسى عليه السلام.

والمقطع التالي من الآية يوضح لنا الصورة التي آمن عليها هؤلاء الشباب، حيث آمنوا: ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾، ففرعون كان طاغيةً مستبدًّا، حارب دعوة نبي الله موسى عليه السلام، فهؤلاء الشباب (الذرية) تحملوا المواجهة، وكانت عندهم روح المغامرة والتضحية، بخلاف شريحة الكبار الذين لم يتقبلوا فكرًا يجعلهم في موقع صدام، ويجعل

مصلحتهم على المحك، بينما الشباب تحملوا الخوف من فرعون الذي كان يمثّل السلطة الحاكمة المستبدّة.

والنقطة المهمّة التي تشير إليها الآية أنهم تحمّلوا أذى فرعون وأذى ﴿مَلَئِهِمْ﴾، والضمير في (ملئهم) يعود على الذرية، أي إنهم واجهوا نكال فرعون وقمعه، وواجهوا ضغوط آبائهم وأمهاتهم ومحيطهم الاجتماعي؛ لأن هذا المحيط كان مخالفًا لدعوة النبي موسى ، ولكنهم ـ كشباب ـ تفاعلوا مع الدعوة الجديدة، وكانوا هم طليعة المؤمنين بها.

وينقل القرآن ـ أيضًا ـ عن نبي اللّه نوح أن قومه كانوا يخاطبونه بقولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾[سورة هود، الآية: ٢٧]، والمقصود بِـ (أراذلنا): عموم الناس، الذين ليسوا أصحاب مكانة أو نفوذ، وليسوا من كبار الشخصيات، وَ(بادي الرأي): مَنْ لم ينضجوا بعدُ، أي إنهم ما زالوا شبابًا وصغارًا في السن، وهؤلاء هم الذين اتبعوا نبي اللّه نوح .

والنبي محمد حينما بعثه الله سبحانه وتعالى برسالته إلى قومه، فالذين استجابوا له من قومه بداية هم الشباب، كما ورد في الحديث عنه : «إنهم أرق أفئدة»، أي إن الشاب ـ في العادة ـ رقيق القلب، يتقبل ويتكيف مع الفكر الجديد، وعنده استعداد لقبول الرأي والدعوة الجديدة. يقول : «أوصيكم بالشبان خيرًا فإنهم أرق أفئدة، فقد بعثني الله بالحق نبيًّا فحالفني الشبان ولم يحالفني الشيوخ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[سورة الحديد، الآية: ١٦]»[(١)]، أي إنهم كبار في السن فتكرّست قلوبهم على ما هم عليه، لكن الشباب تجاوبوا.

ويروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ أيضًا ـ في وصيته لولده الإمام

(١) مرتضى فريد. روايات من مدرسة أهل البيت، ج١، ص٣٤٩.

الحسن عليه السلام قوله: «فإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام يسأل أحد أصحابه، يقول له: «كيف رأيت مسارعة الناس إلى هذا الأمر ودخولهم فيه؟» قال: «والله إنهم لقليل، ولقد فعلوا وإن ذلك لقليل»، فقال عليه السلام: «عليك بالأحداث فإنهم أسرع إلى كل خير»[٢].

ويروى ـ أيضًا ـ عنه عليه السلام أنه قال: «بادروا أحداثكم بالحديث قبل أن تسبقكم إليهم المرجئة»[٣]، أي تحدثوا مع أبنائكم في العقيدة الصحيحة قبل أن تأتي الفرق المنحرفة وتتحدث معهم؛ لأن هناك جهات تحاول أن تتجه إلى الشباب لتأخذهم في الاتجاه المنحرف الفاسد، وهذا أمر طبيعي، فبما أن القابلية موجودة، فالفئة التي تبادر هي التي سوف تستثمرها.

□ الشباب مجرمون أم ضحايا؟

نجد أن هناك بعض الظواهر السيئة والمزعجة في بعض الفئات من شبابنا، نتألم منها، ونعلم أنها تضر بمصلحة الشباب، أنفسهم وبمصلحة المجتمع والوطن، وهذه الظواهر بدأت في الانتشار والتصاعد، لكن الانزعاج وحده لا يكفي، ولا الإدانة والردع والعقوبة، فهذه المشكلة تحتاج إلى دراسة أعمق، وإلى معالجات أوسع، وتعاون من كل أطراف المجتمع، من مؤسسات الدولة، وعلماء الدين، ورجال الأعمال، والعائلات والأسر، وهذا تحدٍّ نقف جميعًا أمامه، فهؤلاء الشباب حينما نجد عندهم مثل هذه الظواهر يجب أن ندرك أن هناك من سبقنا إليهم، ومن اختطفهم منا، فنحن كمجتمع لديه قيم وأخلاق، وأعراف وتقاليد، نريد أن يتربى أبناؤنا على أخلاقنا وقيمنا وتقاليدنا، لكننا ـ وللأسف ـ توانينا عن استيعاب هؤلاء الشباب، وكسبهم إلى جانب هذه القيم

(١) نهج البلاغة. الرسالة رقم ٣١، ص٣٣٥.
(٢) وسائل الشيعة. ج١٦، ص١٨٧، باب١٩، حديث٤.
(٣) المصدر نفسه. ج١٧، ص٣٣١، باب١٠٥، حديث١٤.

والأخلاق، وكان الآخرون أسرع وأقدر منا، ولذلك أثَّروا على هذا القطاع من شبابنا.

الدور السلبي لوسائل الإعلام

وسائل الإعلام والاتصالات المعلوماتية تضخ إلى نفوس وعقول شبابنا من الأفكار والسلوكيات الشيء الكثير، وهي مؤثرة جدًّا، فهناك الآن أكثر من خمس مئة قناة فضائية يستطيع كل شاب وشابة من مجتمعنا أن ينفتح عليها، ويرى ما فيها، وأغلبها تبشر بثقافة تخالف ثقافة مجتمعنا، وتدعو إلى قيم وسلوكيات مخالفة للقيم والسلوكيات التي نريد أن يتربى عليها أبناؤنا. فإنها تحرِّض الشهوات والغرائز عند هؤلاء الشباب.

وهناك مواقع إباحية كثيرة على صفحات الإنترنت حينما يدخل عليها الإنسان يجد فيها تحريضًا للشهوة، وتعليمًا لكيفية إشباع الشهوة، وصورًا عارية مبتذلة، والشاب لا يمتلك إزاءها ما يحصّنه من هذه المغريات.

تذكر بعض التقارير أن عدد مواقع الإنترنت زادت الآن على مئة مليون موقع، وفي هذه المواقع ما هو مفيد ونافع، وفيها ما هو سيئ ومضرّ. فهذه الوسائل يمكن الاستفادة منها في اتجاه الخير والشر معًا، لكن أصحاب الشر أسرع وأقوى منا في الاستفادة من هذه المواقع والوسائل.

وشبابنا يرون هذا الإعلام وهذه الأساليب التي تثير الرغبات في نفوسهم، ومن جانب آخر طرق إشباع الشهوة والغريزة مغلقة أو ضيقة، فماذا نتوقع من هذا الشاب أو هذه الشابة؟!

لهذا يجب أن ندرك أن شبابنا يعيشون مشكلة كبيرة، وما نعيشه اليوم يذكرنا بحديث مروي عن رسول ﷺ حينما قال لأصحابه: «سيأتي قوم من بعدكم الرجل الواحد منهم له أجر خمسين منكم». قالوا: «يا رسول اللّه، نحن كنا معك ببدر وأحد وحنين ونزل فينا

القرآن». فقال: «إنكم لو تحملون لما حملوا لم تصبروا صبرهم»[1].

وقال ﷺ: «يأتي على الناس زمان الصابر منهم على دينه كالقابض على الجمر»[2]، فنحن لا بد أن نتفهم الظروف التي يعيشها أبناؤنا في هذا العصر، وما يساعد على إشاعة مثل هذا النوع من الثقافة الآن أن بعض الجهات الدولية تتاجر بتشجيع هذه التوجهات الشهوانية عند الشباب.

الظواهر السلبية بين فئة الشباب

١. المخدرات

تُعَدُّ تجارة المخدّرات الآن ثاني تجارة في العالم بعد تجارة السلاح من حيث الأرباح، ولذلك نرى انتشار تعاطي المخدّرات بين شباب العالم، وقد تسللت إلى مجتمعاتنا، وأصبحت مشكلة نعيشها، في تاريخ ٥ محرم ١٤٢٨هـ نشرت جريدة اليوم: «أن حرس الحدود في المنطقة الشرقية استطاع خلال السنة الماضية مصادرة ستة أطنان من الحشيش»، وهذا ما ضبط في المنطقة الشرقية فقط.

وفي تقرير دولي يذكر: أن «الأمم المتحدة ـ بالتعاون مع مختلف الدول ـ ترصد سنويًّا مئة وعشرين مليار دولار لمكافحة المخدرات»، لكن التقرير يقول: «أن ما يكتشف ويمنع من المخدرات في العالم لا يزيد في النسبة من عشرة إلى ثلاثين في المئة فقط».

وقد قرأتُ مؤخّرًا في تقرير ثانٍ أنه قد ارتفعت في المملكة العربية السعودية نسبة المدمنين على المخدرات إلى خمسة أضعاف.

الشاب الذي يتورط في هذا البلاء، إذا لم تتداركه رحمة من اللّه، ولم يسعفه المجتمع تنتهي حياته، وتتغير شخصيته ووضعه الصحي والنفسي والاجتماعي، ويكون مستعدًّا

(١) الشيخ الطوسي. الغيبة، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، (قم المقدسة: مؤسسة المعارف الإسلامية)، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧.

(٢) بحار الأنوار. ج٢٨، ص٤٧، حديث٩.

لأن يعمل أي شيء من أجل أن يحصل على هذه الجرعات والحقن، ولذلك تعدُّ من أخطر الطرق للإصابة بالأيدز، هذا المرض الذي بدأت تظهر بعض الإحصائيات الرسمية المخيفة حوله، حيث يوجد في المملكة الآن ٢٣٦٠ إصابة بالأيدز، وتنقل بعض التقارير أن الإصابات بالأيدز في المملكة قد تزيد على عشرة آلاف إصابة، ومن أخطر وسائلها المخدرات، لاستخدام الحقن بين المدمنين.

٢. الممارسات الطائشة

يخبرني أحد الإخوة أنه قبل أيّام شارك في تغسيل أحد الذين توفوا بسبب التفحيط، وكان يروي لي كيف أن جسمه كان مقطعًا بسبب هذه الممارسات الطائشة (التفحيط)، وكم من حالات الإعاقة الجسمية ومن المشاكل بسبب هذه الممارسات السيئة، هذا بالإضافة إلى الإزعاج الذي يحدث من جرّاء هذه الممارسات، وهي ظاهرة سلبية بدأت تنتشر في أوساط الشباب.

ضعف الاهتمام الأسري

هذه الممارسات الطائشة ترجع إلى هذا الانفتاح الثقافي من جهة، ومن جهة ثانية إلى ضعف الاهتمام العائلي، فالعائلة لم تعد تهتمّ بأبنائها بالمستوى المطلوب، حيث الأب ـ كما الأم ـ مشغولان، وبخاصة إذا كانت الأم موظفة وتحاول أن تجمع بين مهمات الوظيفة ومهمات المنزل والتربية.

وفي بعض الحالات تضطر الأم أن تكون مخيرة بين مستقبل أبنائها وبين الوظيفة، وفي هذا المجال أتذكر مكالمة مع إحدى الأمهات الموظفات التي كانت تقص لي عن المشاكل التي تعانيها مع أولادها وبناتها، وهي تقول أنها منشغلة عنهم، فكنت أقول لها: «ماذا يفيدك أن تحصلي على أموال إذا انحرف أبناؤك ـ لا سمح اللّه ـ؟ فإذا خيرتِ بين الأمرين ماذا تختارين؟»، وهذه مسألة لا نحمّل الأم المسؤولية فيها فقط، فالأب كذلك مسؤول؛ لأن التربية في الأساس مسؤولية الأب.

الضغوط والمشاكل الحياتية

وإضافة إلى الانفتاح الثقافي، وضعف الاهتمام العائلي، تكون المشاكل الحياتية التي يواجهها شبابنا في هذا العصر عاملًا في ظهور مثل هذه الممارسات السلبية، فالبعض من شبابنا يواجه مشاكل في التعليم، وبعضهم في الحصول على الوظيفة، وبعضهم في بناء حياته ومستقبله، وهذه المشاكل تُحْدِث حالة من الإحباط في نفوس البعض منهم، وتوجههم إلى الرغبة في الانتقام من المجتمع الذي لا يتيح لهم الوصول إلى تحقيق غاياتهم، وبناء شخصياتهم ومستقبلهم بسهولة ويسر، هذه الحالة قد تشكل أرضية للوصول إلى هذا المستوى من الانحرافات.

وعلى ضوء هذا ينبغي أن ندرك حينما نرى بعض شبابنا يقومون بأعمال سيئة وإجرامية، علينا أن لا ننظر إليهم كمجرمين، فقسم كبير منهم ضحايا للخلل الموجود في المجتمع، والمشاكل القائمة، وانشغال عوائلهم عنهم، وتأثير هذا الإعلام عليهم، فعلينا ألا ننظر لهم نظرة الحقد والعداء، بل نظرة الشفقة، فهؤلاء ضحايا، وعلينا أن نتحمل المسؤولية في علاجهم وإنقاذهم، فقد ورد أنه على عهد رسول اللّه نبينا محمد ﷺ جاء رجل ثبت عليه أنه شرب الخمر، فأقيم عليه الحد في المرّة الأولى، ولكنه كرّرها مرة ثانية، فأقيم عليه الحد، ولم يردعه ذلك، فكرّرها مرة ثالثة، وفي هذه المرة أقيم عليه الحد، ولكن الأصحاب الموجودين انزعجوا من حاله، فصاروا يلعنونه أمام رسول اللّه ﷺ، «قال بعض من حضر: «لعنه اللّه ما أكثر ما يشربه»، فقال النبي ﷺ: لا تكونوا عونًا للشيطان على أخيكم»[1].

وفي قصة طريفة تنقل عن مالك بن دينار ـ العارف الزاهد الذي تنقل عنه الكثير من القصص ـ أنه كان يعيش في بيت متواضع، وفي ليلة من الليالي قُرْبَ الفجر وهو مشغول في عبادته تسلق سارق ودخل البيت، وحاول هذا السارق أن يجد شيئًا ثمينًا يسرقه فلم

(١) محمد بن علي بن عبدالله الشوكاني. فتح القدير، ج ١، (بيروت: عالم الكتب)، ص ١٦٢.

يجد، فَهَمَّ بالخروج، فناداه مالك: «سلام عليكم»، فقال: «وعليك السلام»، قال: «ما حصل لك شيء من الدنيا، أفترغب في شيء من الآخرة؟» قال: «نعم»، قال: «توضأ من هذا المركن وصلِّ ركعتين»، ففعل، ثم قال: «يا سيدي، أجلس إلى الصبح»، قال: فلما خرج مالك إلى المسجد قال أصحابه: «من هذا معك؟» قال: «جاء يسرقنا فسرقناه»(١).

من هذه القصّة وأمثالها ندرك أنه ينبغي النظر في مسألة التعامل مع الشباب، فهناك فئة قليلة منهم متمرسة في الإجرام، ولكن الغالبية منهم ضحايا المؤثّرات الخارجية والإهمال الأسري.

□ المسؤولية تجاه الشباب

أتصوّر أن هناك عدة أمور يمكن أن تساعد في الحدّ من المشاكل والهموم الشبابية، وبعض المظاهر السلبية التي نراها من بعض الفئات منهم، وهي كالتالي:

١. اهتمام الأسر بأبنائها

ينبغي أن تهتم الأسر أكثر ببناتها وأبنائها، فالآباء عليهم أن يصرفوا وقتًا في الجلوس مع أبنائهم، وعليهم أن ينفتحوا أكثر على مشاكلهم، وفي التخاطب معهم، ففي كثير من الأحيان هناك جوع عاطفي عند الأولاد والبنات، ولا يوجد مَنْ يتفهم أوضاعهم، وهذه مشكلة كبيرة، لذلك نحتاج إلى الانفتاح الأسري بشَكْلٍ أكبر، وفي هذه النقطة هناك رواية تنقل عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «جلوس المرء عند عياله أحبّ إلى اللّه تعالى من اعتكاف في مسجدي هذا»(٢)، والسبب في ذلك واضح، فالأب أو الأم إذا تعبدا يرجع ثواب عبادتهما إليهما، لكنهما إذا جلسا مع عيالهما سيكون لهذا أثره في تربية الأبناء والعيال، وإصلاح المجتمع، وهذا ثوابه وفضله أكبر.

---

(١) تاريخ الإسلام. ج ٨، ص ٢١٦.

(٢) تنبيه الخواطر. ج٢، ص١٢٢.

ولا بد أن تتفهم الأسر وضع أبنائها، بحيث لا يفرضون على أبنائهم الجزئيات الصغيرة في الأخلاق والسلوك، علينا أن نكتفي بالأشياء المهمة الأساسية، وفي ذلك يُروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»[١].

وهناك قضايا كثيرة في هذا الإطار، وكمثال على ذلك: قضايا الزواج، فلا يزال بعض الآباء يتحكّمون في زواج أبنائهم وبناتهم، وهذا يسبب مشاكل وعقدًا كثيرة، يحتاج فيها أن تكون العائلة أكثر مرونة في التعامل مع الأبناء والبنات.

٢. فرص التعليم والعمل

ومن جانب آخر: علينا أن نهتم بمعالجة مشاكل الشباب، فنسهّل عليهم طريق التعليم، فمثلًا، هذا المتخرج من الثانوية ولمَّا يُقْبَل في الجامعة بعدُ، لا بدَّ أن تتأثر نفسيته، لتكون بعد ذلك مهيأة للانجرار وراء بعض الأعمال والشلل الطائشة، كما أنه لو كان معدله منخفضًا سيشعر بأن المجتمع لم يعطِهِ الفرصة التي يبحث عنها، وبالتالي تمتلئ نفسه حقدًا وحبًّا للانتقام، فإذا لم تكن عنده خيارات أخرى فسوف يعيش الفراغ، وكثير ممن يقعون في الجرائم والفساد هم من هؤلاء الذين لا يجدون فرصتهم في مواصلة التعليم.

ينبغي أن نتفهم هذه المشكلة ونسعى لمعالجتها، وقد تهيأت الآن فرص أكثر من السابق، حيث توسع القبول في الجامعات، كما فُتِحَ المجال لإنشاء الكليات الأهلية، وفتحت أبواب البعثات الخارجية، وهذه أبواب علينا أن نشارك في تحمل المسؤولية تجاهها، ونغتنمها كفرص متاحة لأبنائنا، يبرزون من خلالها مواهبهم وكفاءاتهم وميولهم.

أما مسألة الوظيفة والعمل فهذه مشكلة تعاني منها معظم دول العالم، فلم يعد أمرًا سهلًا أن يحصل المواطن على الوظيفة، وقد قرأت تقريرًا عن فرص العمل في بريطانيا، مفاده أن على المتقدّم للوظيفة أن يقدّم ستين طلبًا لكي يحصل على فرصة وظيفية

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. ج٢٠، ص٢٦٧، كلمة ١٠٢.

مناسبة له»[1].

وفي هذه النقطة يجب أن أنبّه أن على المواطن ألاَّ يسعى دائمًا للحصول على الوظيفة الحكومية فقط، فتضخّم الجهاز الوظيفي الحكومي ليس أمرًا معقولًا، وفي المقابل فإن سعودة القطاع الخاص أمر مطلوب، ويمكن أن يساعد بشكل كبير في حل مسألة البطالة، خاصّة ونحن نرى أن هناك عمالة وافدة يصل تعدادها إلى ستة أو ثمانية ملايين وافد يعملون في بلادنا من الخارج. لأنه عندما تتوفر وتتاح لشبابنا فرص العمل فإن كثيرًا من الشباب يتجاوبون ويتغير سلوكهم.

وقد كنت أتحدث مع أحد مسؤولي التدريب والتأهيل في إحدى جمعيات المنطقة، فأخبرني بأنه مع بقية المسؤولين في الجمعية استطاعوا أن يوفروا أكثر من ثلاثة آلاف ومئة فرصة عمل للشباب في أنحاء المنطقة، وهذا أمر جيد.

وفي هذا المجال ينبغي الإشادة ببعض الشركات والمؤسسات الأهلية التي تتوجّه نحو توفير الفرص الوظيفية للسعوديين، وقد قرأت تقريرًا عن شركة عبد اللطيف جميل أنه في السنة الماضية وفّر خمسة آلاف وخمس مئة فرصة عمل قدمها من خلال شركته، وبرامج التدريب للشباب والشابات السعوديات، وهذه من الجهود التي تساعد على تجاوز المشكلة.

٣. استيعاب الشباب

بأن ننفتح عليهم ونستقطبهم، وأخص بالذكر هنا الجهات الدينية، حيث يجب أن تستوعب الشباب، فعندما نذهب إلى بعض علماء الدين غالبًا ما يكون عندهم نشاط في محيط محدود، وهذا دليل على أنه لا يوجد استيعاب لطاقات شبابية جديدة.

ومما يؤسف له أنه في بعض الأحيان نقوم ـ نحن المتدينين ـ بالتنافس على مجاميع

---

(١) جريدة الحياة. العدد ١٥١١٠، بتاريخ ٢٤ جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ الموافق ٢٠ أغسطس ٢٠٠٤م.

معيّنة من الشباب، ونتصارع على نسبة محدودة جدًّا منهم، بينما خمسة وتسعون بالمئة من الشباب بعيدون عنا، لا بد أن نُقْبِل على هؤلاء الشباب، وألاَّ نَنْفُرَ من بعض مظاهرهم وسلوكياتهم، فأكثر شبابنا نفوسهم طيبة، لكن لم يجدوا فرصًا لاستيعابهم.

هناك رواية تنقل عن مجموعة من أصحاب الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وكان منهم المفضل بن عمر، الذي كان يسكن الكوفة، ويستقطب الشباب وإن كانت بعض مظاهرهم وسلوكياتهم غير سليمة، تقول الرواية: «كان يجالس قومًا من الشطار وأصحاب الحمام وبعضهم ممن يمارس الشراب»، فاستنكر بعض رجالات المجتمع هذا الأمر من المفضل، وشكوه إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام، حيث جاؤوا إليه بكتبهم يقولون فيها: «إن المفضل يجالس الشطار، وأصحاب الحمام، وقومًا يشربون الشراب، ينبغي أن تكتب إليه وتأمره ألاَّ يجالسهم. فكتب إلى المفضل كتابًا وختمه ودفعه إليهم، وأمرهم أن يدفعوا الكتاب من أيديهم إلى يد المفضل، فجاؤا بالكتاب إلى المفضل منهم زرارة، وعبد اللّه بن بكير، ومحمد بن مسلم، وأبو بصير، وحجر بن زائدة، ودفعوا الكتاب إلى المفضل ففكه وقرأه، فإذا: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، اشتر كذا وكذا، واشتر كذا»، ولم يذكر فيه قليلًا ولا كثيرًا مما قالوا فيه، فلما قرأ الكتاب دفعه إلى زرارة، ودفع زرارة إلى محمد بن مسلم، حتى دار الكتاب إلى الكل. فقال المفضل: ما تقولون؟ قالوا: هذا مال عظيم، حتى ننظر ونجمع ونحمل إليك ثم لم ندرك ألا نزال بعد نظر في ذلك، وأرادوا الانصراف. فقال المفضل: تغدوا عندي، فأجلسهم لغدائه، ووجه المفضل إلى أصحابه الذين سعوا بهم، فجاؤا وقرأ عليهم كتاب أبي عبد اللّه عليه السلام فرجعوا من عنده وجلس هؤلاء ليتغدوا، فرجع الفتيان، وحمل كل واحد منهم على قدر قوته ألفًا وألفين وأقل وأكثر، فحضروا وأحضروا ألفي دينار وعشرة آلاف درهم قبل أن يفرغ هؤلاء من الغداء، فقال لهم المفضل: تأمروني أن أطرد هؤلاء من عندي، تظنون أن اللّه تعالى محتاج إلى صلاتكم وصومكم»[1].

(١) محمد بن عمر بن عبدالعزيز الكشي. رجال الكشي، (كربلاء: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٢٧٦.

وأخبرني مسؤول مهرجان الزواج الجماعي في صفوى أنه في السنتين الأولى والثانية للمهرجان كانت هناك مجموعة من الشباب تأتي لأذيتهم أثناء تحضيرهم للمهرجان، فيطلقون الأعيرة النارية، ويثيرون الشغب، ويزعجون العاملين في المهرجان، فانزعجوا من تصرّفاتهم، فاقترح البعض الاتصال بالشرطة، وقال آخر نؤدّبهم، ولكن رجلًا ثالثًا كان حكيماً في موقفه تجاههم، حيث طلب منهم أن يعطوه الفرصة للتعامل معهم، فسأل عنهم وتعرف إلى زعمائهم، واتصل بهم ودعاهم على وجبة غداء لديه في منزله، وأخذ يتحدث معهم ويقول لهم: «أنتم من هذا المجتمع، فإذا كنتم منزعجين من مهرجان الزواج الجماعي نحن مستعدّون لأن نلغيه»، فقالوا: «لسنا منزعجين منه»، فقال: «إذًا لماذا تفعلون هذه الأعمال؟» وأخذ يجاذبهم الحديث إلى أن اقترح عليهم أن يساعدوهم في تجهيز المهرجان والانضمام إلى لجانه، فوافقوا فرحين بهذه الفرصة، وفعلًا انضمّوا إلى لجان المهرجان مع بقية مجموعات الشباب، وعندما اختلطوا بالجماعة الصالحة بدؤوا بالتأثُّر، فأصبحوا من رواد الحالة الدينية.

ويقول ـ مسترسلًا ـ: في البداية كان المتدينون يستنكرون ذلك، فلم تكن لديهم تلك الروحية في استيعاب هذه العناصر الجديدة، ولكن مع مرور فترة من الزمن وبفعل الاحتكاك الدائم فيما بينهم تجاوزوا هذه المرحلة.

ومهرجان الزواج الجماعي في مدينة صفوى يضم أكثر من ثمان مئة وخمسين شابًّا.

وهذا المهرجان يعدُّ من أنجح مهرجانات الزواج الجماعي في المنطقة، ويعدُّ رائدًا في كثير من برامجه، ففي العام الماضي أقام مهرجانًا للزواج الجماعي للنساء، ولديهم أربع مئة وخمسين شابة تعمل معهم في المهرجان.

هذه تجربة ناجحة في جذب الشباب نحو الجهات الخيرة، وهناك تجربة أخرى، حيث يخبرني مسؤول التدريب والتأهيل في جمعية تاروت الخيرية، بأنّه بين فترة وأخرى ـ من خلال متابعتهم لاحتياجات سوق العمل ـ يتمكّن من الحصول على فرص وظيفية

جيّدة، وقبل فترة كانت هناك أمامه فرص في شركة صينية تحتاج إلى خمس مئة موظف، فيقول: أنا أذهب إلى الشوارع وإلى التجمعات من أصحاب الدرّاجات النارية وأتحدّث معهم بالفرص الوظيفية التي نوفّرها للعاطلين عن العمل، ويحاول إقناعهم، حتّى إنّه يقنعهم بما يشجّعهم على القبول بمثل هذه الوظائف، فيقول لهم: «إن هذه (الدرّاجة النارية) التي تستعملها غير مناسبة، اعمل واكسب مالًا أكثر واملك (دراجة) أفضل»، وقد يقتنع هذا الشاب أو ذاك بقبول هذه الأعمال، وقد استطاع هذا المسؤول أن يقنع عددًا كبيرًا منهم.

فالشاب الذي يعيش بطالة عندما توفّر له فرصةً وظيفية فإنه سوف يستجيب، لذلك علينا أن نفكر كيف نحل مشاكل هؤلاء الشباب وكيف نستوعبهم.

دور الأندية الرياضية

نحتاج إلى مؤسسات ولجان تستوعب هؤلاء الشباب، وأريد أن أذكّر بموضوع الأندية الرياضية، فالنادي الرياضي يؤدي دورًا إيجابيًّا في المجتمع، وعلينا ألاَّ ننظر إلى النادي الرياضي على أنه مجرد مكان للعب فقط، فالرياضة غير مستنكرة في الإسلام، فرسول اللّه ﷺ كان يدعو ويقول: «علموا أولادكم السباحة والرماية»[1]، وفي رواية أخرى أنه ﷺ مرَّ على جماعة من المسلمين في يثرب من قبيلة أسلم ووجدهم يتبارون بالسهام فوقف يشجع فريقًا منهم، ويقول: «ارموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا»، وأنا مع بني فلان، قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول اللّه ﷺ: «ما لكم لا ترمون؟» فقالوا: «كيف نرمي وأنت معهم؟» فقال: «ارموا وأنا معكم كلكم»[2]، أما الآن لو أن أحد علماء الدين يؤيد فريقًا رياضيًّا يخرجونه من الدين والملة.

ويروى أن رسول اللّه ﷺ: «كان يُجري على السباق والمصارعة سبع أواقٍ من

---

(١) الكافي. ج٦، ص٤٧، باب تأديب الولد، حديث٤.

(٢) صحيح البخاري. ج٢، ص٢٤٨، باب التحريض على الرمي، حديث٢٨٩٩.

الفضة»، والفقهاء ـ منهم ابن قدامة في (المغني) من فقهاء المذهب الحنبلي، ومنهم ـ أيضًا ـ من مراجعنا السيد السيستاني في (كتاب المسابقة) ـ يذكرون أنه إذا جرت مسابقة وعُيِّن مبلغ لمن يسبق فإما أن يدفع أحد الطرفين هذا المبلغ أو يتبرع به طرف ثالث أو أن يُدْفَع من بيت المال[١]، وهذا معناه جواز أن تمول عملية المسابقة أو المصارعة من بيت مال المسلمين.

فإذا كانت المسألة الرياضية ليست مسألة مستنكرة، وليست خارج الدين، فلماذا لا ندعم هذه المؤسّسة الرياضية؟!، هذا بالإضافة إلى أن النادي يمكن أن يكون مؤسسة متكاملة، يحتوى على الأنشطة الاجتماعية والثقافية، والبرامج المفيدة، فيحتاج من الصالحين والواعين أن يدخلوا هذه الأندية، وينبغي لرجال الأعمال وعلماء الدين أن يدعموا هذه الأندية، فمن مصارف الحقوق الشرعية دعم الأندية ضمن البرامج التي تساعد على احتواء الشباب وهدايتهم، لأننا سنرى أثر ذلك، فمعادن شبابنا طيبة.

الجمعيات والبرامج النسائية

وأؤكد هنا على وضع البنات والشابّات، فالشابات وضعهنَّ أصعب من الشباب، فالشباب لديهم أندية ولجان يذهبون إليها، وقد يذهبون إلى بعض مراكز الترفيه، كالكورنيش، لكن الفتيات ليس أمامهن مجال لتفجير طاقاتهن ولقضاء أوقات فراغهن، البنات بحاجة إلى مؤسسات نسائية تجمعهن ويقضين فيها أوقاتهن، نحن بحاجة إلى جمعية نسائية، كما هو موجود في الرياض وجدة والدمام، وفي حاجة إلى أماكن ترفيهية لهنَّ، فماذا نتوقع من هذه الفتاة التي تعاني من الفراغ والضغوط والجوع العاطفي؟

بناتنا أمانة، وهنَّ منطقة خطر إن لم نتوجه إليهن بالبرامج المناسبة.

---

(١) راجع منهاج الصالحين. ج٢، ص١٦٠، مسألة٥٧٠، والمغني لابن قدامة. ج١٣، ص٤٠٨، باب السبق والرمي.

خطاب للشباب

وأخيرًا أتوجه للشباب:

أيها الشباب، أيتها الشابات، بلادكم بها خير كثير، ومجتمعكم يستحق منكم الاهتمام، أعماركم وحياتكم ومستقبلكم أغلى من أن تصرفوه في الاستجابة إلى دواعي الهوى والشهوة، فحتى لو كان هناك تقصير في مجتمعكم، لا بد أن تفكروا في مصيركم ومستقبلكم، نحن نريد منك، أيها الشاب، أن تكون ذلك الولد الغيور على مصالح وطنه، نريد أن نرفع رؤوسنا بشبابنا، عندنا طاقات نفتخر بها لكفاءتها العلمية ولتقدمها، ونريد من كل شاب من شبابنا أن يأخذ دوره في خدمة وطنه ومجتمعه، فحينما نجتمع في ليالي عاشوراء ونتحدث عن سيرة أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام فعلينا أن نعلم بأن النسبة الكبرى من شهداء الطف من أنصار الحسين عليه السلام كانوا من الشباب، فالشباب ـ وهم يعيشون هذه الذكرى ـ عليهم أن يجعلوا كربلاء نصب أعينهم ليكون أبطالها قدوة لهم.

رسالة عاشوراء

- الإمام الحسين عليه السلام يسيطر على القلوب
- مدرستان في التعامل مع حادثة كربلاء
- ماذا نستفيد من عاشوراء؟

❞ حسين منّى وأنا من حسين أحبَّ
الله من أحبّ حسينًا ❝

أخرج الترمذي وأحمد بن حنبل وابن أبي شيبة والحاكم في المستدرك والبخاري في الأدب المفرد عن يعلى بن مرّة قال: «قال رسول اللّه ﷺ: حسين منّي وأنا من حسين، أحبَّ اللّه من أحبّ حسينًا»[1].

هذا الحديث وأمثاله أحاديث كثيرة تناقلها الصحابة وأمهات المؤمنين عن رسول اللّه ﷺ في حق ولده الحسين، وتوضح بعض الأحاديث كيف أن رسول اللّه ﷺ كان يحدّث الأمّة عن مقتل حبيبه الحسين، وهو يبكي والدموع تسيل من عينيه، مما يدلّ على أن رسول اللّه ﷺ كان يريد اهتمام الأمّة بهذه الحادثة، لذلك نحن نحتفي بذكرى عاشوراء التي مزّقت قلب رسول اللّه ﷺ قبل وقوعها بأكثر من نصف قرن.

◻ الحسين يسيطر على القلوب

الإمام الحسين عليه السلام سيطر وهيمن على القلوب، حتّى إنه ليمكن القول إنه ليست هناك شخصية تجيش لها المشاعر والعواطف كشخصية أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام، وهذا أمر طبيعي، لأسباب كثيرة، منها:

(١) محمد بن عيسى بن سَورَة الترمذي. سنن الترمذي، ج٥، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص ٣٢٣.

أوّلاً: ما سمعه الأصحاب من جدّه رسول اللّه ﷺ وهو يتحدّث عنه، ويشيد بفضله، ويكفي أنه ﷺ يقول في حقّه: «حسين منّي وأنا من حسين، أحب اللّه من أحب حسينا». إذ يَعُدُّه جزءًا منه، ويعدُّ محبّته علامةً وشرطًا لمحبته، وكذلك يطلب من اللّه أن يحب من يحب الحسين، ولذلك نجد في موارد كثيرة يُظهر فيها الصحابة المحبّة والتقدير للحسين.

من ذلك ما جاء عن ابن كثير[١] أن الحسنين عليهما السلام كانا إذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطمونهما مما يزدحمون عليهما للسلام عليهما.

وكان الحسنان يذهبان إلى الحج مشيًا، فكل من يمرّ من المسلمين ويرى الحسنين ماشيين ينزل ويمشي لمشي الحسنين، حتى شق المشي على كثير من الحجاج فتحدثوا مع أحد أعلام الصحابة، وطلبوا منه أن يعرض عليهما الركوب أو التنكب عن الطريق، فعرض عليهما ذلك، فقالا: «لا نركب ولكن نتنكب عن الطريق»، وسلكا طريقًا آخر[٢].

وتقول كتب السير كما ورد في الإصابة[٣] عن الإمام الحسين عليه السلام أنه دخل مسجد جده رسول اللّه ﷺ وهو صغير يقول: «أتيت عمر وهو يخطب على المنبر، فصعدت إليه، فقلت: «انزل عن منبر أبي واذهب إلى منبر أبيك». فقال عمر: «لم يكن لأبي منبر»، وأخذني فأجلسني معه أقلب حصًى بيدي، فلما نزل انطلق بي إلى منزله، فقال لي: «من علمك؟» قلت: «واللّه ما علمني أحد».

وفي الإصابة أيضًا أن عمر قال للإمام الحسين: «إنما أنبت ما ترى في رؤوسنا اللّه، ثم أنتم»[٤].

(١) البداية والنهاية. ج٨، ص ٣٩.
(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام. ج١، ص١٠٦.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة. ج ٢، ص ٦٩.
(٤) ابن حجر العسقلاني. تهذيب التهذيب، ج٢، الطبعة الأولى١٤٠٤هـ، (بيروت: دار الفكر)، ص٣٠٠.

وينقل عن عبد اللّه بن عباس الصحابي الجليل أنه كان إذا خرج الحسن والحسين عليهما السلام هيأ لهما الراحلة، وساعدهما في الركوب وأعانهما على لباسهما. فقيل له في ذلك: «أنت أكبر منهما، تمسك لهما، وتسوي عليهما» فزجر السائل قائلاً: «يا لكع، أوَ تدري مَن هذان؟ هذان ابنا رسول اللّه، أَوَ ليس مما أنعم اللّه به علي أن أمسك لهما الركاب وأسوي عليهما الثياب»[1].

وهذا أبو هريرة يحتفي بالإمام الحسين، كما جاء عن أبي المهزم، قال: «كنا مع جنازة امرأة ومعنا أبو هريرة فجيء بجنازة رجل، فجعله بينه وبين المرأة فصلى عليهما، فلما أقبلنا أعيا الحسين فقعد في الطريق، فجعل أبو هريرة ينفض التراب عن قدميه بطرف ثوبه، فقال الحسين: «يا أبا هريرة، وأنت تفعل هذا؟ قال أبو هريرة: «دعني فواللّه لو يعلم الناس منك ما أعلم لحملوك على رقابهم»[2].

وفي حادثة ثالثة ترويها لنا المصادر التاريخية، عن رجاء بن ربيعة قال: «كنت في مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إذ مر الحسين بن علي فسلم فرد عليه القوم السلام، وسكت عبد اللّه بن عمرو، ثم رفع ابن عمرو صوته بعدما سكت القوم، فقال: «وعليك السلام ورحمة اللّه وبركاته»، ثم أقبل على القوم فقال: «ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟» قالوا: «بلى»، قال: «هو هذا الماشي» – وأشار إلى الحسين –»[3].

هذه الحفاوة من الأصحاب ومن المسلمين بالإمام الحسين عليه السلام إنما كانت من الأحاديث التي سمعوها من جدّه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في حقّ الحسنين، وفي حقّ الحسين خاصّة.

ثانيًا: شخصية الإمام الحسين في فضله وعلمه وعبادته وأخلاقه، هذه الشخصية

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام. ج١، ص١٠٦.
(٢) تاريخ الإسلام. ج٥، ص١٠٢.
(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة. ج٣، ص٢٣٥.

التي أسرت النفوس والقلوب.

لقد سجل التاريخ كلمات المدح والثناء على شخصية الإمام عليه السلام من قبل كثير من الصحابة والتابعين عبر العصور.

ثالثًا: شهادته عليه السلام في حادثة كربلاء بما تضمنته من بسالة وشجاعة وبما اكتنفته من مأساة مفجعة. وفي ذلك يقول سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن في تفسير سورة غافر: «والحسين ـ رضوان اللّه عليه ـ وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب، المفجعة من جانب، أكانت هذه نصرًا أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة. فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصرًا. فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان اللّه عليه، يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين من المسلمين وكثير من غير المسلمين»[1].

كربلاء حدث إنساني عظيم

قضية كربلاء ليست قضية بسيطة أو عادية، ففي التاريخ الإسلامي والإنساني كثير من الأحداث، لكنّه يمكن القول ـ بضرس قاطع ـ أنه ليست هناك حادثة وقضية توازي حادثة كربلاء، فليس هناك حادثة مستقبلية تحدّث عنها رسول اللّه صلى الله عليه وآله بالاهتمام الذي تحدّث به عن واقعة كربلاء، فهناك روايات كثيرة تنقلها أمّهات المؤمنين كأم سلمة وعائشة، وكذلك يرويها جمع من الصحابة كأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعبد اللّه بن عبّاس وأنس بن مالك وأمثالهم، كلهم ينقلون أنهم رأوا رسول اللّه باك، فيسألونه: «ما الذي يبكيك يا رسول اللّه؟» فيجيبهم صلى الله عليه وآله: «لقد دخل عليَّ البيت مَلَك لم يدخل عليَّ

(١) سيد قطب. في ظلال القرآن، ج٥، الطبعة الخامسة عشر ١٤٠٨هـ، (بيروت: دار الشروق)، ص٣٠٨٦، تفسير سورة غافر آية ٥١.

قبلها[١] ـ وفي بعض الروايات أتاني جبريل[٢]، وفي بعضها هبط عليَّ ملك المطر[٣] ـ فقال لي: إن ابنك هذا – حسين – مقتول، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، قال: فأخرج تربة حمراء»، وفي بعض الروايات أن الرسول ﷺ أراهم هذه التربة[٤]، وهذه الروايات موجودة في كتب الفريقين الشيعة والسنة.

وتروي بعض المصادر الحديثية عن أم سلمة أنها احتفظت بتلك التربة التي قال لها رسول اللّه ﷺ عنها: «إذا رأيتِ هذه التربة وقد فاضت دمًا عبيطًا فاعلمي أن حسينًا قد قتل» وأنها كانت ظهر اليوم العاشر من المحرّم نائمة فانتبهت من النوم فزعة مرعوبة، فسئلت: «ما أرعبكِ يا أم المؤمنين؟» قالت: «رأيت رسول اللّه ﷺ في المنام وعلى رأسه ولحيته التراب فقلت مالك يا رسول اللّه؟ قال: شهدتُ قتل الحسين آنفًا»[٥]، فبادرت أم سلمة إلى تلك القارورة التي تحتفظ فيها بتربة كربلاء فرأتها وقد فاضت دمًا عبيطًا.

وعن عبد اللّه بن عبّاس أنه كان نائمًا ظهر اليوم العاشر من المحرّم، فانتبه وهو فزع، فسئل عن ذلك، فقال: «رأيت النبي ﷺ فيما يرى النائم بنصف النهار وهو قائم أشعث أغبر بيده قارورة فيها دم فقلت: «بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه، ما هذا؟» قال: «هذا دم الحسين وأصحابه لم أزل التقطه منذ اليوم فأحصينا ذلك اليوم فوجدوه قتل في ذلك اليوم»[٦].

هذه الأحاديث والروايات تدلُّ دلالة واضحة على أن حادثة كربلاء ليست حادثة عادية، كما أن أي إنسان ـ مهما كان رأيه ودينه ـ إذا تأمل أحداثها لا يملك إلاّ أن يتفاعل

(١) مسند الإمام احمد. ج٦، ص٢٩٤.
(٢) المستدرك على الصحيحين. ج٣، ص١٧٧.
(٣) مسند الإمام أحمد. ج٦، ص٢٩٤.
(٤) مجمع الزوائد للهيثمي. ج٩، ص١٨٧.
(٥) سنن الترمذي. ج ٥، ص ٣٢٣.
(٦) مسند الإمام احمد. ج١، ص٢٨٣.

مع هذه الحادثة المأساوية المفجعة.

لأن حادثة كربلاء تتضمّن البطولة والصمود، فتلك الفئة المحدودة قاومت وسجّلت في التاريخ أروع صفحات الصمود والتضحية، ومن جانب آخر كانت فيها مأساة عظيمة مؤلمة، ولم تحلَّ هذه المأساة بشخص عادي، بل هو ابن رسول اللّه ﷺ وسيّد شباب أهل الجنّة، فقد جاء في الحديث: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[١]، ولم يقتصر الأمر عليه وإنما تعدّاه إلى أطفاله ونسائه وعائلته، وتطاولت أيدي الإجرام إلى جسمه الشريف بعد مقتله.

لقد سحقوا جثّته عليه السلام بحوافر الخيول، وسلبوا كل ما على جسده، فنهبوا قميصه وسراويله وقلنسوته ونهبوا حتّى عمامته، لدرجة أن بجدل الكلبي جاء ليبحث عمّا يسلبه فلم يجد سوى خاتمًا في خنصر يده عليه السلام، فعالج حتّى ينتزعه فوجد الدماء وقد بنت على الخاتم، فخشي أن يقضي وقتًا في إخراجه، فأخذ خنجرًا وقطع خنصر الإمام[٢]؟!

إن أمرًا بهذه الوحشية والإجرام لم يسبق أن حدث في التاريخ الإنساني لشخص بمكانة الإمام الحسين عليه السلام.

إن استشهاده عليه السلام بهذه الطريقة المأساوية والمؤثّرة من الأسباب التي خلّدت ذكراه ومعه هذه الحادثة.

☐ مدرستان في التعامل مع عاشوراء

لا أحد من المسلمين يجهل قدر الحسين، أو لا يحزنه قتل الحسين، أو يرضى عمّا حصل للحسين عليه السلام، فهذا أمر نقطع به، ولكن درجة الاهتمام تتفاوت، وهذا التفاوت في التعامل مع هذه الحادثة ولّد وجود مدرستين:

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة. ج٢، ص٤٣٨، حديث٧٦٩.

(٢) بحار الأنوار. ج٤٥، ص٥٧.

المدرسة الأولى

تقوم على أساس التغاضي عن هذه الحادثة، فنجدها عند البحث التاريخي تدين قتل الحسين، وتبدي التأسف لمقتله، ولا تقبل بذلك، ولكنّ أتباع هذه المدرسة يرون أنه لا داعي للوقوف عند هذه الحادثة طويلاً، وفي بعض الأحيان يحاولون تعويم المسئول عنها، فيبرئون يزيد بن معاوية من تحمّل المسؤولية، كقول ابن تيمية: «يزيد لم يأمر بقتل الحسين باتفاق أهل النقل»[1]، أو يشيعون أنه ما كان يريد أن يقتل الحسين عليه السلام، وأنه تصرّفٌ فردي من ابن زياد، وهو ما تبناه ودافع عنه الكاتب أنيس زكريا النصولي حيث ذكر في كتابه (الدولة الأموية في الشام): «لا شك أن يزيد لم يفكر البتة بقتل الحسين، ولم يأمل أن تتطور المسألة العلوية فتلعب هذا الدور المهيب، ويقدم ابن زياد للفتك به»[2]، والبعض من أتباع هذه المدرسة يبرئ ساحة عبيد اللّه بن زياد، ويلقي باللائمة على عمر بن سعد، وأخيرًا نجد من يبرئ عمر بن سعد، كالعجلي في معرفة الرجال[3]، حيث يقول: «كان أمير الجيش ولم يباشر قتله»، أو يتّهم أهل الكوفة وأهل العراق، الذين هم من الشيعة، فيروّجون بأن الشيعة يبكون على الحسين تكفيرًا عن ذنبهم بقتله وخذلانه، وهذا كلّه تعويم للمسؤولية وكأن القاتل مجهول، بينما القضية واضحة في جميع المصادر التاريخية.

وهذه المدرسة يمكن عَدُّها امتدادًا لما كانت تشيعه السلطات الأموية وبعد ذلك العبّاسية.

حيث كانت هذه السلطات تريد التغطية على هذه الجريمة النكراء والتعتيم عليها، لأنه ليس في مصلحة الأمويين إثارة حادثة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وإشهارها، بل إن التاريخ ينقل كيف كان الأمويون يحاولون تحويل يوم عاشوراء إلى يوم عيد وفرح،

---

(١) أحمد بن تيمية الحراني. منهاج السنة. ج٢، الطبعة الأولى١٢٣١هـ، (مصر: المطبعة الكبرى الأميرية)، ص٢٢٥.

(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام. ج٣، ص٤٠٥، نقلاً عن «الدولة الأموية في الشام».

(٣) ج٢، ص١٦٦، رقم١٣٤٣.

وخاصّة في زمن عبد الملك بن مروان[١]، حيث ظهرت هذه الحالة بشِكْلٍ واضح.

ونجد في الزيارة الواردة عن الإمام الباقر عليه السلام ما يشير إلى هذا المعنى، يقول عليه السلام: «اللهمّ إن هذا يوم تبرّكت به بنو أمية وابن آكلة الأكباد»[٢].

ويقول الشيخ القرضاوي: «رأينا أكثر بلاد المسلمين يحتفلون بيوم عاشوراء يذبحون الذبائح ويعتبرونه عيدًا أو موسمًا يوسعون فيه على الأهل والعيال اعتمادًا على حديث ضعيف، بل موضوع في رأي ابن تيمية وغيره، وهو الحديث المشهور على الألسنة: «من أوسع على عياله وأهله يوم عاشوراء أوسع اللّه عليه سائر سنته». قال المنذري: «رواه البيهقي وغيره من طرق عن جماعة من الصحابة»، وقال البيهقي: «هذه الأسانيد وإن كانت ضعيفة فهي إذا ضم بعضها إلى بعض أخذت قوة».

وقال القرضاوي: «وفي هذا القول نظر، وقد جزم ابن الجوزي وابن تيمية في منهاج السنة وغيرهما أن الحديث موضوع. وحاول الطبراني وغيره الدفاع عنه و إثبات حسنه لغيره! وكثير من المتأخرين يعزُّ عليهم أن يحكموا بالوضع على حديث، والذي يترجح لي أن الحديث مما وضعه بعض الجهال من أهل السنة في الرد على مبالغات الشيعة في جعل يوم عاشوراء يوم حزن وحداد فجعله هؤلاء يوم اكتحال و اغتسال وتوسعة على العيال»[٣].

هذه الحالة الاحتفالية بيوم عاشوراء كعيد انتهت ولكن آثارها بقيت، هناك بعض المسلمين في بلدان مختلفة لديهم عادات يوم عاشوراء، واهتمامات معيّنة، فيولمون في هذا اليوم ويصنعون بعض الحلويات الخاصّة به ولا يعلمون الخلفية التاريخية لذلك، إنها

---

(١) الشيخ عباس القمي. الكنى والألقاب، ج٢، الطبعة الخامسة ١٤٠٩هـ، (طهران: مكتبة الصدر)، ص٣٨٥.

(٢) بحار الأنوار. ج٩٨، ص٢٩٥.

(٣) يوسف القرضاوي. كيف نتعامل مع السنة النبوية، الطبعة السادسة ١٤١٤هـ، (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي)، ص٧٩.

رواسب الثقافة الأموية، ومن آثار النهج السلطوي الذي كان يريد التعتيم على قضية أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام، ونجد هذا حتّى في المجتمعات الإسلامية التي تكنّ المحبة والمودّة للإمام الحسين وتظهر الحب له، كالمجتمع المصري الذي يظهر الكثير من مظاهر الحب لأبي عبد اللّه الحسين، كما يظهر ذلك في صعيد مصر والقاهرة حيث يقيمون الاحتفالات الكبيرة والواسعة يوم ميلاد الإمام الحسين عليه السلام، ولكنّ هذا الشعب لا يهتمّ كثيرًا بإقامة ذكرى استشهاده، وهذا كله من تأثير تلك الثقافة التي كانت تريد التعتيم على قضية كربلاء.

المدرسة الثانية

في مقابل هذه المدرسة هناك مدرسة أخرى تعطي هذه الحادثة حقّها من الاهتمام، وتصرّ على إحيائها، والاهتمام والاحتفاء بها، وترفض هذه المدرسة أن يكون هناك تناسٍ لقضية الإمام الحسين، وهذه هي مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

فأئمة أهل البيت عليهم السلام بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام بدءًا من الإمام زين العابدين علي بن الحسين كانوا يحرصون ويؤكدون على إحياء هذه المناسبة وهذه الذكرى.

فعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: «ثم ليندب الحسين ويبكيه – إلى أن يقول – وليعز بعضهم بعضًا بمصابهم بالحسين»[(١)].

وعن الإمام الرضا عليه السلام: «من كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه جعل اللّه يوم القيامة يوم فرحه وسروره وقرت بنا في الجنة عينه»[(٢)].

كذلك ورد الحث من أئمة أهل البيت عليهم السلام على إقامة العزاء لهذه المصيبة العظيمة، ومن ذلك ما جاء في استحباب البكاء لقتل الحسين وما أصاب أهل البيت عليهم السلام يوم عاشوراء واتخاذه يوم مصيبة.

---

(١) وسائل الشيعة. ج١٤، ص٥٠٩، حديث١٩٧٠٩.
(٢) بحار الأنوار. ج٩٥، ص٣٤٤.

ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «كان أبي عليه السلام إذا دخل شهر المحرم لا يرى ضاحكًا، وكانت الكآبة تغلب عليه حتى تمضي عشرة أيام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه»، ويقول: «هو اليوم الذي قتل فيه الحسين عليه السلام».

وهذا ما تشهده المجتمعات الموالية لأهل البيت عليهم السلام، حيث يهتمّون بهذه الذكرى ويعظّمونها، وذلك التزامًا منهم بتوجيهات أهل البيت عليهم السلام، فبالنسبة لنا هذه سنّة حسنة وليست بدعة، لأنّنا نعدها تجسيدًا لعناوين إسلامية، وتجسيدُ العنوان الإسلامي ليس بدعة، فنحن نعد ذلك تجسيدًا لأمر اللّه تعالى في تعظيم الشعائر، يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللّه فَإِنَّهَا من تَقْوَى الْقُلُوب﴾، كما أننا نجد ذلك تجسيدًا للتذكير بأيّام اللّه، يقول سبحانه: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّام اللّه﴾، ونجده مصداقًا من مصاديق إظهار المودّة لقربى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، يقول تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، وهذه جميعها عناوين إسلامية، وتطبيق القاعدة على المصاديق الخارجية ليس بدعة.

كما أنّنا نعد كلام أئمة أهل البيت عليهم السلام شرعًا متبعًا، لأنهم ينقلون عن جدّهم رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي عن أبيه عن جدّه عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم»[١].

وإذا كان هناك من له رأي آخر فهو حرّ في رأيه، ومن المفترض أن يظل هذا في حدود اختلاف الرأي، ولا يصح أن يصادر طرف رأي وحرّية الطرف الآخر، فنحن بحاجة إلى الاعتراف بحرّية الرأي الآخر، وقبول نتائج الاجتهاد ما دام باب الاجتهاد مفتوحًا، و«للمجتهد ـ إن أصاب ـ أجران، وإن أخطأ أجر»، فهذا اجتهاد وكل يعمل باجتهاده، ولا داعي للإنكار عند اختلاف الاجتهاد.

أجواء الفتنة الطائفية

وهنا لا بدَّ أن نقف عند موضوع إحياء هذه الذكرى، وعند الأجواء التي تريد

---

(١) الكافي. ج١، باب التقليد، ص ٥٣، حديث ١٤.

بعض الأطراف أن تملأها بالشحن الطائفي، والتعبئة المذهبية، وخاصّة في هذه المرحلة الحسّاسة من تاريخ الأمّة.

لقد كان التفاؤل يعمر قلوبنا وقلوب كل الواعين والمخلصين، بأن الأمة قد قطعت شوطًا جيّدًا على طريق الوحدة، وأنها تجاوزت العصبيات والخلافات المذهبية، والتعبئة.. والتعبئة المضادّة، هذا التفاؤل والأمل أثارته مبادرات كثيرة في الداخل والخارج، من خلال ما عُقِدَ من مؤتمرات للتقارب بين المذاهب الإسلامية في مختلف بلدان المسلمين، وما أقيم من مؤسسات، وما وضع من كتب وأبحاث، وطرح من محاضرات بهذا الخصوص.

وفي المملكة العربية السعودية كانت مبادرة طيّبة باتجاه الحوار الوطني، ثمّ كانت قمّة مكّة الاستثنائية التي صدر عنها (بلاغ مكة المكرمة[1] حيث شاركت فيها كل الدول الإسلامية، وتم الإعداد الجيّد لها بحضور أكثر من مئة عالم ومفكّر من بلدان المسلمين، فقدّموا توصيات إلى القادة، وتم إقرار هذه التوصيات، وكانت تنص على الاعتراف بالمذاهب الإسلامية، وعلى ضرورة أن يتفاعل المسلمون وأن يتعاونوا فيما بينهم، وعلى رفض التكفير، ووقف المهاترات بين الأطراف، وعلى الدعوة إلى الوحدة والتقارب.

هذا كلّه أشاع الأمل والتفاؤل في النفوس، ولكنّنا مع الأسف نلحظ أن المسيرة تمرّ هذه الأيام بشيء من الانتكاسة، حيث بدأت أصوات متطرّفة متشنّجة تملأ الأجواء، وتعكّر صفو الودّ بين المسلمين، وكأنّنا نعود للمربّع الأول.

قد لا نحتاج إلى مزيد من التأمّل، فالقضية واضحة، حيث حدث كل هذا بعد أن اهتزّ كيان إسرائيل على يد المقاومة اللبنانية، ونحن نرى تداعيات هذا الاهتزاز ونلحظها كل يوم داخل إسرائيل، اهتزازات سياسية واجتماعية، ونموذجها الأبرز تقرير لجنة فينوغراد، التي شكلت من لجان الكنيست الإسرائيلي لبحث أسباب الفشل في حرب تموز على لبنان.

(١) انعقد المؤتمر في الفترة من ٥-٦/ ١١/ ١٤٢٦هـ الموافق ٧-٨/ ١٢/ ٢٠٠٥م.

وقد أصبحت الدولة العبرية بفعل هذه الاهتزازات ومشروعها الصهيوني في خطر.

وقد هال الشياطين وأعداء الأمة المستكبرين هذا الأمر، فأصبحوا يخططون ويعملون من أجل إعادة الأمة إلى حالة الفتنة الداخلية، وتأجيج الصراع والفتن، وكأن مشكلتنا ليست إسرائيل، ولا الهيمنة الأمريكية، ولا الإساءات التي تحصل اتجاه نبينا محمد ﷺ، بل أصبحت المشكلة خطر السنة على الشيعة، وخطر الشيعة على السنة.

بطبيعة الحال لا يمكننا أن نحمّل الأعداء كل المسؤولية، فأرضيتنا كانت مهيأة ومستعدّة لمثل هذه الأمور، فممّا يؤسف له أن مجتمعاتنا العربية هي من بين أكثر المجتمعات التي تعيش حال التمزّق في العالم، فمعظم المجتمعات في العالم وصلت إلى حلٍّ لخلافاتها، فاتفقت على دستور وقانون يرجع إليه، وإلى تداول سلمي للسلطة، وعلى أنظمة عادلة تدير شؤونهم وأمورهم، لكنّ مجتمعاتنا العربية لا تزال تعيش هذه الحالات المؤلمة من التمزّق والتشتت.

بدئًا بالعراق التي تعيش أوضاعًا مؤلمة، وأودّ أن أؤكد في مسألة الموضوع العراقي إلى أن ما يحصل هناك لا يمت بصلة إلى الحالة المذهبية والصراع المذهبي، فلا يوجد طرف في العراق يقاتل من أجل عقيدته، وإنما كل طرف يقاتل من أجل وجوده كجماعة وطائفة، لتنال هذه الطائفة حقوقها السياسية في المناصب والمواقع، فهو صراع سياسي على الأدوار والحصص والمواقع، كما أننا لا نسمع أن في العراق اختلافًا على هذه الفكرة أو على هذه العقيدة أو هذا الرأي، وإنما الصراع يتركّز على المواقع السياسية، وهذه مشكلة تعيشها مجتمعاتنا العربية في كل مكان، وإنما يستعمل المذهب والطائفة في العراق كعنوان فقط.

ومما يدلل على ذلك أن بلدانًا عربية لا يوجد فيها تنوع مذهبي ومع ذلك نجد فيها حروبًا وصراعات لا تنتهي، ومن أبرز هذه المناطق: منطقة دار فور في السودان.

فدارفور كانت سلطنة مستقلّة عند قيام الحرب العالمية الأولى، ولكنها وقفت مع الدولة العثمانية، فانتقم منها البريطانيون فيما بعد وأضافوها إلى السودان، وأهملوا تنميتها.

مساحتها: ٥٠٠ ألف كلم٢، وسكانها يزيدون على ستة (٦) ملايين نسمة.

هذه المقاطعة السودانية تعيش حربًا أهلية منذ خمس سنوات، وتحاول الأمم المتحدة أن تتدخّل وكذلك قوات الاتحاد الإفريقي، والإحصائيات تذكر أن ضحايا هذه الحرب بلغ أكثر من ٢٠٠ ألف قتيل، وأكثر من مليوني مشرّد. والملايين الأربعة الباقية يعيشون على الإغاثة الدولية كليًا أو جزئيًّا.

كما تشير التقارير إلى أن قرى بكاملها قد أحرقت بسبب الأوضاع المتأزمة، بالإضافة إلى انتشار حالات الجريمة والاغتصاب والخطف.

إن أهل دار فور جميعهم ينتمون إلى قبائل عربية، بعضها ترجع في جذورها إلى أصول عربية وأخرى إلى أصول إفريقية، وكلهم مسلمون ينتمون إلى المذهب المالكي، أي إنهم من أهل السنة والجماعة، ومع ذلك نرى رحى هذه الحرب التي لم تتوقف منذ أكثر من خمس سنوات.

المشكلة هي في عدم القدرة على التوافق داخل المتجمّعات العربية، حيث يحكمها خلل في العلاقات بين الأطراف.

وهذا أمر نجده كذلك في الصومال، فهذه الدولة تعدُّ من الدول القلائل المتجانسة سكّانيًا، فكل دول العالم فيها تنوّع عرقي وقومي، وخمسة بالمئة منها فقط متجانسة، والصومال تعدُّ إحدى هذه الدول القليلة المتجانسة، لأن الشعب الصومالي ينتمي إلى عرق واحد، وقومية واحدة، ودين واحد، ومذهب واحد، فالصوماليون كلهم عرب مسلمون من أتباع المذهب الشافعي.

ولكن الشعب الصومالي له الآن أكثر من ٣٠ سنة يعيش حالة التمزّق والحروب الداخلية التي أسقطت الدولة، ولم تقم لها قائمة منذ سنة ١٩٩١ م، وهذا يجري في بلد لا يعيش تنوّعًا مذهبيًّا ولا عرقيًّا.

وفي أفغانستان لم يكن الصراع فيها بين سنة وشيعة، فبعد انتهاء الاحتلال الروسي حكم المجاهدون، وهم في الأساس من أهل السنة والجماعة، ثم قامت عليهم حركة طالبان ـ وهم من أهل السنة والجماعة، وحكمت أفغانستان، وبعد ذلك تحالفت أحزاب المجاهدين: حلف الشمال مع الأمريكيين والقوى الغربية وأسقطوا حركة طالبان، والآن تقوم طالبان من جديد تتحرّك وتفجّر مراكز ومناطق لأهل السنة والجماعة، ففي أفغانستان الصراع ليس دائرًا بين السنة والشيعة.

وما نراه اليوم في فلسطين، وهو أمر تتمزّق له قلوبنا، فهذا الشعب الفلسطيني المظلوم الذي تُحتل أراضيه، تدور عليها صراعات بين فصائله المختلفة، من خطف وقتل واستعمال للسلاح وأجواء متشنّجة، وهي صراعات ليست بين السنة والشيعة.

هذا كله يعني أن الصراعات الموجودة في مجتمعاتنا العربية لها جذور غير مسألة التنوّع المذهبي، فنحن كأفراد وفئات في هذه المجتمعات نعيش خللاً في العلاقات، وهناك افتقاد للنظام العادل الذي يتمتّع الجميع فيه بحقوق مواطنة متساوية.

□ ماذا نستفيد من عاشوراء؟

نحن نَعُدُّ إقامة ذكرى عاشوراء ليس مجرّد إثارة للعواطف والمشاعر، أو اجترار للكآبة والحزن، وإنما نحيي هذه الذكرى لنستلهم منها القيم، ولذلك أؤكد على ثلاثة دروس يمكن استفادتها من عاشوراء وإقامة ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، هي كالتالي:

الدرس الأول: الالتزام بالدين

فالإمام الحسين وأصحابه إنما جاهدوا من أجل بقاء الدين وقيم الإسلام، وليس من أجل أطماع وأغراض دنيوية، يقول الإمام الحسين عليه السلام في سبب خروجه وحركته: «إني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة

جدي ﷺ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»[١]. وفي يوم عاشوراء يقول البطل الهاشمي العباس بن علي بن أبي طالب عليه السلام:

والله إن قطعتمو يميني إني أحامي أبدًا عن ديني[٢]

ولذلك علينا أن نخرج من أجواء عاشوراء بهذه الروحية، وبعزم وتصميم على الالتزام بتعاليم الدين، والاجتناب عن المعاصي، والتوبة إلى الله تعالى والمواظبة على أداء الصلوات وجميع الواجبات الأخرى.

الدرس الثاني: تحمّل المسؤولية الاجتماعية

كان بإمكان الإمام الحسين عليه السلام أن يبقى في داره، وفي مسجد جدّه ﷺ ـ كما أشار عليه كثيرون، وكما فعل آخرون ـ، لكنّه أبى إلاَّ أن يتحمّل مسؤوليته الشرعية والاجتماعية، يقول عليه السلام: «وأنا أحق من غيّر»[٣].

وهنا يجب أن نأخذ الدروس في أن نتحمّل المسؤولية تجاه وطننا ومجتمعنا، فكل واحد منّا مطالب بدور، وهذا أمر يمارسه الأفراد في جميع دول العالم تجاه مجتمعاتهم، فينخرطون في المؤسسات التطوّعية لتقديم الخدمات للمستفيدين من هذه المؤسسات.

وفي هذا المجال قرأت تقريرًا عن الأعمال التطوّعية في الولايات المتّحدة الأمريكية، يشير إلى أن خمسين بالمئة من الراشدين الأمريكيين يشاركون في الأعمال التطوّعية، وفي فرنسا يشارك ثلث الشعب الفرنسي في الجمعيات التطوّعية، ولكنّ مجتمعاتنا لا يزال الاهتمام بالعمل التطوّعي فيها محدودًا.

إن الجمعيات الخيرية والمؤسسات الاجتماعية والأندية الرياضية واللجان الخدماتية المختلفة تشكو من نقصٍ في الكوادر والدعم، وهذه المؤسسات تقدم خدماتها للجميع،

(١) بحار الأنوار. ج٤٤، ص ٣٢٤.
(٢) المصدر نفسه. ج٤٥، ص ٤٠.
(٣) تاريخ الطبري. ج٤، ص ٣٠٤.

وهي بحاجة ماسّة للدعم والتنمية والتطوير في مختلف المجالات.

وما دمنا في أيام عاشوراء لا بدَّ أن نشير إلى أهمية التفاعل مع مشروع التبرّع بالدم، فهذه حالة إنسانية وفيها الأجر والثواب، وبخاصّة حينما ينوي الإنسان أن يهدي ثواب التبرّع بالدم إلى أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام.

الدرس الثالث: مراعاة حقوق الناس

في ليلة العاشر من المحرّم أمر الإمام الحسين عليه السلام مناديًا ينادي بين أصحابه: «لا يقتل معنا رجل وعليه دين، فقام إليه رجل من أصحابه فقال له: «إن عَلَيَّ دينًا وقد ضمنته زوجتي»، فقال عليه السلام: «وما ضمان امرأة؟»، بمعنى انه ليست لها إمكانات مادية عادة.

وروي عن موسى بن عمير عن أبيه قال: أمرني الحسين بن علي عليه السلام قال: «ناد أن لا يقتل معي رجل عليه دين، فإني سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول: «من مات وعليه دين أخذ من حسناته يوم القيامة»[1].

لقد أراد الإمام عليه السلام أن يكون المستشهد بين يديه متحرجًا في دينه، خالي الذمة من حقوق الناس وأموالهم، ولا يريد أن يكون سببًا في ضياع أي حق من حقوق الآخرين.

إن الإمام الحسين يقدّم أداء الدين على شرف الجهاد والنصرة له عليه السلام، مع حاجته إلى النصرة، وهذا غاية سمو الأخلاق والنبل، وأنموذج مثالي من الدروس الأخلاقية العظيمة لكل الأجيال في كل زمان، ويجب أن نأخذ من ذلك درسًا، وبخاصّة مع ما نراه من تساهل عند كثيرين في أداء حقوق الناس، فنرى البعض لا يؤدّي الدين الذي عليه، ويسوّف في هذا الأمر، ونرى بعض أصحاب المؤسسات لا يعطون عمالهم أجورهم، وبخاصّة الأجانب منهم، وهذا لا يجوز شرعًا، فقد ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله قوله: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه»[2].

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام. ج٣، ص١٧١.

(٢) مستدرك الوسائل. ج١٤، ص ٢٩، حديث١٦٠١٧.

إننا يجب أن نكون حسّاسين تجاه حقوق الناس، فإنه لا يفيد الإنسان أعمال العبادة والخير إذا كان في ذمّته شيء من حقوق الناس. وفي يوم القيامة أول ما يحاسب عنه الإنسان حقوق الناس قبل الصلاة والصوم والحج، ولذلك علينا أن نكون مهتمّين ومراعين لهذه الحقوق.

الصراعات والتزام الأخلاق

- تجنّب الصراعات
- التزام الأخلاق في الصراع
- عاشوراءِ أنموذجًا

﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللَّه إِنَّ اللَّه خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[سورة المائدة، الآية: ٨].

□ تجنّب الصراعات

الحالة الطبيعية للإنسان أن يعيش في سِلْم وتعاون مع أفراد جنسه ونوعه، ويتجنّب مواطن الصراع والنزاع، وهذه هي الحالة التي من المفترض أن يلتزم بها كل إنسان عاقل، يسترشد عقله وضميره في علاقاته مع الآخرين.

إن حالة العداوة والصراع بين الإنسان وأخيه الإنسان حالة شاذّة وفي غير مصلحته الشخصية، وغير الصالح العام، ذلك أن المجتمع ينمو ويتطوّر ضمن علاقات بينية جيدة.

أما حالة الصراعات والنزاعات الفردية بين أفراد المجتمع فإنها:

١. تخلق حالة من التشاحن بين الأفراد، وتستهلك جهودهم في النواحي السلبية، بدل أن تُصرف في تحقيق البناء والتطوير والتقدّم، وخدمة الصالح العام.

٢. وكذلك تجعل الخصم يعيش حالة من الاضطراب والتوتّر النفسي تجاه عدوّه وخصمه، يقول الإمام علي عليه السلام: «إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلوب»[1].

---

(١) الكافي. ج٢، ص٣٠٠.

٣. بالإضافة إلى ما تخلقه من أجواء الرعب والخوف وعدم الاطمئنان، ذلك أن حالة العداوة والخصومة تجعل كل طرف في مرمى سهام الطرف الآخر، من حيث الاعتداءات المتوقّعة، مما يربك الأمن الاجتماعي، ويسلبه مقوّمًا من أهم مقوّمات استمراره وبقائه.

فالإنسان لا يستطيع أن يعيش ضمن مجتمع يفقد فيه الإحساس بالأمن والاستقرار النفسي.

وفي هذه النقطة يؤكّد الحكماء: على أن الكراهية والخصومة حتى مع الصغير الذي قد لا تكون له مكانة اجتماعية بارزة، قد تؤثّر في مسألة الأمن والاستقرار الاجتماعي، لأنها حالة تدفع الإنسان ـ مهما كان موقعه وحجمه ـ إلى حب الانتقام بأي طريقة ووسيلة من الوسائل الممكنة.

٤. وأخيرًا، فإن العداوة مع الآخرين والصراع معهم قد تقحم الإنسان في المحرّمات، من خلال القيام بعمل ما هو حرام وغير مشروع حبًّا في الانتقام، وما تولّده حالة الكراهية والصراع من اندفاع عند الإنسان نحو كثير من الوسائل، المحرّم منها والمحلل، ولهذا ورد عن أمير المؤمنين ﵇ أنه قال: «مَنْ بَالَغَ فِي الْخُصُومَةِ أَثِمَ، ومَنْ قَصَّرَ فِيهَا ظُلِمَ، ولا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَّ مَنْ خَاصَمَ»[1].

لذا فمن التوجيهات الدينية للإنسان المسلم أن يبتعد قدر الإمكان عن العداوة والخصام، وهذا ما يؤكّد عليه نبينا محمد ﷺ حينما يقول: «ما عهد إليَّ جبرئيل في شيء ما عهد إليَّ في معاداة الرجال»[2]، وفي رواية أخرى: «لم يزل جبرئيل ينهاني عن ملاحاة الرجال»[3]، والمقصود بِـ (الرجال) ـ هنا ـ مطلق الإنسان، ذكرًا كان أو أنثى.

---

(١) نهج البلاغة. من قصار حكمه ﵇.

(٢) الكافي. ج٢، ص٣٠٢

(٣) بحار الأنوار. ج٧٤، ص١٢٤.

وينقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «رأس الجهل معاداة الناس»[1]، وفي كلمة أخرى عنه عليه السلام: «معاداة الرجال من شيم الجهّال»[2].

من هنا على الإنسان الفرد والمجموع تجنّب الدخول في صراعات وعداوات مع هذا الطرف أو ذاك، وفي حال سعى البعض لاتخاذ موقف عداوة، فعلى الإنسان أن يفرّ من تلك العداوة.

ومما نعيشه في مجتمعنا ـ وللأسف ـ نجد البعض وكأنه يسعى لمعاداة الناس والصراع معهم، ونجد هناك من يستجيب لهذه الاستفزازات من مثل هذه الأطراف.

والعاقل من يتجنّب الوقوع في مثل هذه المزالق ويبتعد عنها، وفي حديث للإمام الصادق عليه السلام عن الحلم يقول: «من قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشرًا، فقل له: إن قلت عشرًا لم تسمع واحدة»[3].

هذا هو منهج العقلاء الذين لا يستجيبون للإثارات والاستفزازات، ومن يقع في مثل هذه المواقف يكشف عن ضعف رجوعه إلى عقله، وسيطرة الانفعالات عليه.

والمقصود بتجنّب الصراعات على أي نحو كانت، سواء كانت على الصعيد الديني أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو على المستوى الشخصي.

هذه المواقف تحتاج إلى التحمّل وضبط الأعصاب والانفعالات، يقول تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[سورة فصّلت، الآية: ٣٥].

□ التزام الأخلاق في الصراع

في بعض الأحيان قد يضطر الإنسان لدخول الصراعات مع الآخرين، وأبرز مثال

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٣٧١، حكمة ٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٢، حكمة ٧٣.

(٣) مستدرك الوسائل. ج١١، ص٢٩٠، حديث ١٣٠٥٤.

على ذلك ما يحدث في بعض حوادث السير، عندما لا يكون أحد الطرفين هو المخطئ، إذ يجد نفسه في نزاع وصراع مع الطرف الآخر.

وكذلك في بعض المواقف الشخصية، وفي هذه الحالة على الإنسان المسلم أن يتحلّى في مواقف الصراع بأخلاقياته وضوابطه، فالصراع له حدود وضوابط، وهذا ما نجده بارزًا في مواطن الحروب والمعارك العسكرية، حيث كان لها في الماضي ضوابط يراعيها المتحاربون فيما بينهم، وقد وضعت لها المنظّمات الدولية في هذا العصر أنظمة وقوانين دولية يجب على كل طرفين متنازعين مراعاتها والالتزام بها.

والمتتبّع لسيرة نبينا الأعظم محمد ﷺ يراه قد وضع كثيرًا من الضوابط والقوانين لطريقة سير المعركة، كان يلزم المسلمين بها، فكان إذا بعث سرية (فرقة من الجيش) يجمعهم قبل انطلاقهم، ويقول لهم: «بسم اللّه، وباللّه وفي سبيل اللّه، وعلى ملّة رسول اللّه، لا تغلوا ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا صبيًّا ولا امرأة، ولا تقطعوا شجرة، إلا أن تضطروا إليها»[1] يوصيهم بالتخلّق بهذه الأمور في حروبهم مع الأعداء.

ومن يقرأ غزوات الرسول ﷺ يجد روعة الالتزام بالقيم والأخلاق في تلك المعارك والحروب، وكان ﷺ يغضب غضبًا شديدًا حينما يخالف أحد من أصحابه وجنوده شيئًا من تلك الأخلاق والآداب.

١. أن امرأة وجدت في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول اللّه ﷺ قتل النساء والصبيان[2].

٢. وفي إحدى المعارك مَرَّ بلال بامرأتين مسبيتين على المعركة، ونظرتا إلى جثث القتلى من اليهود، فغضب رسول اللّه ﷺ ونادى بلالًا، وقال له: «أنزعت الرحمة من

---

(١) وسائل الشيعة. ج١٥، ص٥٨.

(٢) صحيح البخاري. ج٢، ص٢٧٦، حديث ٣٠١٤.

قلبك، حين تمر بالمرأتين على قتلاهما؟!»[١].

٣. وفي بعض المواقف كان المسلمون يفرقون في الأسر بين الأمهات وأولادهنَّ، فكان رسول اللّه ﷺ يغضب من مثل هذه الحالات والمعاملة غير الإنسانية.

لقد كان ﷺ حريصًا على الالتزام بالمبادئ والقيم الإنسانية في المعارك والحروب.

وهو أمر نجده في التعاليم والأحكام الإسلامية، حتى في حال القصاص، فالآية الكريمة التي تجيز الاقتصاص من القاتل، لولي الدم تأمره بألاَّ يسرف في القتل، يقول تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾[سورة الإسراء، الآية: ٣٣].

فولي المقتول في الإسلام مخيَّر بين الاقتصاص من القاتل، وبين أخذ الدية، وفي حال أراد الاقتصاص فله ذلك ضمن ضوابط، وليس كما كان شائعًا في الجاهلية من الثارات المتبادلة بين العشائر والقبائل.

وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يجسّد أروع مثال على الانضباط والتزام مبادئ وقيم الإسلام الحنيف، ففي وصيته الأخيرة قبل رحيله عليه السلام يقول: «يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضًا تَقُولُونَ قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ وَ لَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّه ﷺ يَقُولُ إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَ لَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»[٢].

وهناك أمثلة كثيرة على احترام الأخلاقيات والضوابط في مسائل الصراع والاختلاف، ففي باب الغيبة يذكر الفقهاء أن من موارد جواز الغيبة: غيبة الفاسق المتجاهر بفسقه، ولكن فيما هو متجاهر بالفسق فيه، فإن كان يتجاهر بشرب الخمر، فيجوز غيبته في هذه المعصية، ولا يجوز غيبته فيما هو متخفٍّ بالفسق فيه.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة. ج٧، ص٧٣٩.

(٢) نهج البلاغة. من وصية له عليه السلام للحسن و الحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم.

الحدود الشرعية في أدبيات الخلاف

لا يخلو مجتمع من المجتمعات من وجود تيارات وتوجّهات متباينة، والمجتمع الإسلامي الذي تتعدّد فيه التيارات الفكرية، فإن الإسلام ألزم معتنقيه بضوابط شرعية لا بد من مراعاتها في تعاملهم مع بعضهم بعضًا، وفي أخلاقيات الخلاف بينهم.

ولذلك لا يجوز لأي جماعة تختلف مع غيرها من الجماعات أن تلجأ لأساليب التسقيط والكذب والادعاءات الباطلة، فهذه ممارسات محرّمة في الإسلام.

وهو أمر يجب على المسلم مراعاته حتى مع من يعتدي عليه ويظلمه، يقول تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٩٤].

إن اللّه تعالى يؤكّد على أنه في حال حدوث اعتداء على جماعة أو فرد من المسلمين، فعليهم ألاَّ يبالغوا في الردّ على الاعتداء، بل في حال الردّ فليعتدوا بالمثل تمامًا.

إن مجموع هذه الأحكام تؤكّد على نقطة مهمّة في مسألة العلاقات الإنسانية، وهي أنه في حال عدم وجود وفاق فعلى الجميع التحلّي بآداب وضوابط معينة، حتى لا تتطور حالة الخلاف إلى نوع من التصادم والاحتراب، ما قد يؤدّي إلى انتهاك الحرمات لخدمة هذا الصراع.

أساليب التضليل في مسائل الصراع

تناقلت وسائل الإعلام في الأيام القليلة الماضية عن وجود فتوى صادرة عن المرجع الأعلى في النجف الأشرف السيد علي السيستاني ـ حفظه اللّه ـ، مفادها بأن الإنسان إذا توضأ، وبعد الوضوء لمس إنسانًا سُنيًّا فعليه إعادة الوضوء، لبطلانه.

وقد تداولت وسائل الإعلام هذه الأكذوبة وأخذت طريقها في الانتشار، مع أنه لا مصدر لها، وهي لا تنسجم ومسائل الفقه الإمامي فيما يخصّ الوضوء، ذلك أن النجاسة

العينية في حال لَمَسها المتوضِّئ ـ حسب فقه الإمامية ـ لا يبطل وضوؤه، بل يكفيه تطهير موضع التنجُّس، فكيف بالمسلم المحكوم بالطهارة.

ولكن لأن هناك من يريد إيقاع الفتنة، وتحقيق بعض المطامح، والانتصار لفئة على حساب بقية الفئات من خلال هذه الإثارات، يروّج مثل هذه الأكاذيب بين الفينة والأخرى.

إن أساليب الكذب والغيبة والافتراءات، وتسقيط بعض الشخصيات من خلال ترويج بعض الإشاعات حولها، وسائل غير مبرّرة في الإسلام، حتى لو مورست بعناوين شرعية، كعناوين الدفاع عن العقيدة ونشر الفضيلة، فالحق لا يطلب بالباطل، يقول تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، وذلك بمعنى: ألاَّ يدفعنّكم عداوة وبغض قوم لكم أو عداوتكم لهم على ألا تعدلوا في تعاملكم معهم، فالإنسان ـ أثناء الصراع ـ بحاجة إلى التقوى والتزام الحدود.

إن من أهم الموارد التي تُعرف فيها التقوى موارد الخلاف والصراع، والكيفية التي يتعامل بها الإنسان مع الذين يختلف معهم.

ولذلك نرى أن أغلب المتدينين يحافظون على الالتزام بالضوابط الشرعية في الحالات العادية، ولكن الاختبار والمحكّ الحقيقي يتبيّن في حالات الخلاف وكيف يتعاملون معها ويتعاطون مع مشاكلها.

إن بعضهم يفقدون تديُّنهم وتقواهم وأخلاقهم؛ لأنهم اختلفوا مع بعض الأطراف أو الجهات الأخرى.

□ عاشوراء أنموذجًا

الإمام أبو عبد الله الحسين عليه السلام قام ـ في نهضته ـ دفاعًا عن الدين، وهو في الأساس لم تكن نهضته حركة مواجهة، فعندما أخبره والي المدينة بهلاك معاوية وطالبه بمبايعة

يزيد، رفض هذا العرض، ومارس حقّه الطبيعي في إبداء رأيه في رفض يزيد حاكمًا للمسلمين، ومبينًا في الوقت نفسه سبب هذا الرفض، وذلك في ذكره لصفات يزيد، التي لا تؤهله ليكون مسلمًا عاديًّا مقبولًا في المجتمع الإسلامي، فضلًا عن أن يكون حاكمًا عامًّا للمسلمين، فقال في ذلك: «ويزيد رجل فاسق، شارب للخمر قاتل للنفس المحرّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله»[1] .

وإعلان الإمام الحسين عليه السلام رفضه حكم يزيد كان واجبًا شرعيًّا قام الإمام عليه السلام بتأديته، وانطلق بعدها يبشّر بهذا الموقف وهذا الرأي، وقد اعترضه الجيش والسلطة الأموية، فلم تتحمّل هذه السلطة ذلك الموقف المعارض من قبل الإمام عليه السلام، فحصلت واقعة كربلاء المؤلمة، ونحن هنا نريد أن نتحدّث عن أخلاقيات هذه الواقعة في أحداثها، ومواقف الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه رضي الله عنهم، نموذجًا لتمثّل أخلاقيات الصراع وفق المبادئ والقيم الإسلامية.

أ. تعامل الإمام الحسين مع أنصاره وصحبه

١. الشفافية والوضوح

عندما أرسل الإمام الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل إلى الكوفة، أرسل بعده رسولًا آخر، يدعى عبد اللّه بن يقطر، وقبل أن يصل ابن يقطر إلى الكوفة ـ التي وُلِّيَ عليها عبيد اللّه بن زياد، الذي شدّد الرقابة على مداخلها وأحيائها منعًا من أن يتسلّل إليها من ينصر مسلم بن عقيل، أو ينضمّ إليه ـ، أمسك به رجال ابن زياد، وأحضروه إليه، وسأله ابن زياد عن سبب مقدمه إلى الكوفة، فقال له عبد اللّه: «إني رسول من الحسين عليه السلام»، فطلب منه ابن زياد الرسالة التي يحملها، فرفض عبد اللّه تسليمه إياها، وحاول التخلص منها، فمزقها. عندها غضب ابن زياد، فخيَّره إما أن يعلن براءته من الحسين وعلي بن أبي طالب، وأن يكون ذلك أمام الملأ على المنبر أو يقتله، فاختار أن يصعد المنبر.

---

(١) بحار الأنوار. ج٤٤، ص٣٢٥.

فصعد المنبر، وقال: «أيها الناس، أنا سفير لكم، أنا رسول لكم من ابن بنت نبيّكم، سيد شباب أهل الجنّة الحسين بن علي، أدعوكم إلى رفض سلطة هذا الجائر والفاسد»، وبدأ يتحدّث ضد يزيدَ وواليه ابن زياد، ويوضّح مساوئهم أمام الملأ. فغضب ابن زياد وأمر به أن يُلقى من أعلى القصر حيًّا، ففُعل به ذلك.

فتكسّرت عظامه، ولكنه بقي فيه رمق من الحياة، فجاء شخص يقال له عبد الملك بن عمير البجلي وأجهز عليه واحتزَّ رأسه، فعوتب في ذلك، فقال: «إنما أردتُ إراحته من الألم»[1].

فوصل الخبر إلى الإمام الحسين عليه السلام وهو في طريقه إلى كربلاء، في منطقة يقال لها «زُبالة»، فجمع أصحابه وأوضح لهم الصورة، فقال لهم: «قد خذلنا شيعتنا، فمن أحب أن ينصرف فلينصرف، ليس عليه منّا ذمام»[2]، وبالفعل، تفرّق عنه جمع من الناس ـ كما تذكر الأخبار ـ.

والموقف نفسه يتكرّر في كربلاء، في ليلة العاشر من المحرّم جمع أصحابه وقال لهم: «انطلقوا في حل ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي... فإن القوم يطلبوني ولو أصابوني لهوا عن طلب غيري»[3].

٢. حرية اتخاذ القرار

عندما طلب منه بعض الأشخاص أن ينصرفوا أذن لهم، وكان من أولئك الطرمّاح الذي قال للإمام: «إن لدي (ميرة) [تموين] لأهلي بالغذاء والطعام، فأْذَنْ لي حتى أوصل لهم ميرتهم وأعود إليك»، فأذِنَ له الإمام عليه السلام، فذهب الطرمّاح ولم يعدْ إلا وقد استشهد

(١) البداية والنهاية. ج٨، ص١٨٢.
(٢) الكامل في التاريخ. ج٢، ص٥٤٩.
(٣) المصدر نفسه. ج٤، ص٤٣.

الحسين عليه السلام وأصحابه رضي الله عنهم[١].

وفي موقف آخر تذكر السيَر أنه في ليلة العاشر بلغ أحد أصحابه أن ابنه وقع أسيرًا في الريّ، فأخبر الإمام الحسين عليه السلام فأذن له الإمام، وقال له: «رحمك اللّه أنت في حل من بيعتي، فاذهب واعمل في فكاك ابنك»، وأعطاه ثوبًا، وقال له: «فأعط ابنك محمدًا ـ وكان معه ـ هذه الأثواب البرود يستعين بها في فكاك أخيه»[٢].

ومن مواقفه عليه السلام مع أصحابه أن جاءه فراس بن جعدة المخزومي ـ وهو من أقربائه عليه السلام ـ، وقد انهار واضطرب من هول المعركة، فلما رآه الإمام الحسين عليه السلام وهو بهذه الحالة، سأله: «أراك مضطربًا؟، فإن أحببتَ الانصراف، فانصرف ليس عليك مني ذمام»، فانصرف وترك الإمام.

ب. تعامل الحسين مع أعدائه

الإمام الحسين عليه السلام مثَّل مدرسة في التعامل الأخلاقي مع أصحابه، وكان كذلك في تعامله مع أعدائه، ونشير هنا إلى بعض المواقف التي تمثّل قمة التعامل السامي مع العدوّ والمخالف:

١. عندما استقبل الإمامُ الحسينُ عليه السلام وأصحابُه الجيش الأموي الذي كان يقوده الحر بن يزيد الرياحي في وسط الصحراء، وكان قوامه أكثر من ألف مقاتل، وكانوا يعانون من الظمأ والعطش الشديد، قال له بعض أصحابه ـ وهو زهير بن القين ـ: «يا ابن رسول اللهّ إن قتال هؤلاء أهون من قتال من يأتينا من بعدهم»، ولو ناجزهم الإمام ساعتها لكسب أسلحتهم ولأرعب من يأتي خلفهم، ولكن الإمام الحسين رفض، وقال: «ما كنت لأبدأهم بقتال»[٣].

(١) بحار الأنوار. ج٤٤، ص٣٦٩.

(٢) محمد بن طاهر السماوي. إبصار العين في أنصار الإمام الحسين، الطبعة الأولى١٤١٩هـ، (طهران: مركز الدراسات الإسلامية)، ص١٧٤.

(٣) تاريخ الطبري. ج٤، ص٣٠٩.

٢. عندما استضاف الأعور بن شريك مسلم بن عقيل في الكوفة، ودخل عليه ابن زياد يعوده في مرضه، كان بإمكان مسلم بن عقيل أن يجهز على ابن زياد، ولكنه ما فعل ذلك، فسأله ابن شريك وكان قد دفعه إلى ذلك، فقال مسلم: «ذكرتُ حديثًا عن رسول الله ﷺ يقول فيه: «الإيمان قيَّدَ الفتك»[(١)].

٣. في يوم التاسع من المحرّم أقبل شمر بن ذي الجوشن على معسكر الإمام الحسين عليه السلام، وكان في خؤولة مع إخوة الحسين أبناء أم البنين، ونادى: «أين بنو أختنا؟»، فاستنكروا الردّ عليه.

فالتفت إليهم الإمام الحسين، وقال: «أجيبوه، وإن كان فاسقًا فإنه من أخوالكم».فأقبلوا يسألونه حاجته، فقال: «أنتم يا بني أختي آمنون»، ولكنهم رفضوا أمانه[(٢)].

٤. ومن المواقف التي تكررت في هذه المعركة أن الإمام الحسين كان في كل مرة يكره أن يبدأهم فيها بقتال، ويكون من بدأ الحرب والمعركة.

جميع هذه المواقف وغيرها تؤكّد مدى الحرص الذي كان يوليه أهل البيت عليهم السلام في المحافظة والالتزام القيمي، بمبادئ وتعاليم هذا الدين، فكانوا بحق الترجمان لما جاء به رسول اللّه ﷺ، وكانوا بحق كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن نفسه بأنه «القرآن الناطق».

---

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام. ج٢، ص٣٦٥.
(٢) تاريخ الطبري. ج٤، ص٣١٥.

الإمام الحسين مدرسة الأخلاق

- الأخلاق قيمة عليا
- صور ومشاهد من الأخلاق الحسينية

"﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[سورة آل عمران، الآية: ١٥٩]. "

☐ الأخلاق قيمة عليا

تعريف الأخلاق

تُعرّف الأخلاق بأنها الصورة النفسية للإنسان، أو الانعكاس للجانب المعنوي والنفسي عنده، فكما أن للإنسان جسماً يمثل شكله وصورته المادية، من طول وقصر وملامح، فينظر الناس إلى شخصيته المادية من خلال ملامحه الجسمية، فإن هناك بُعْدًا آخر للإنسان، هي نفسه التي تعني الميول والتوجهات، وهذه تتجلى وتتجسد من خلال الأخلاق.

فالأخلاق هي صورة النفس الإنسانية.

ويشرح الأخلاقيون ذلك أكثر، فيقولون: إن الناس تتعرف شكل الإنسان من خلال جسمه، فيرون التفاوت في الأشكال من حيث الطول والقصر، والنحافة والامتلاء، وكذلك من حيث الجمال وعدمه، وعندما يريد الإنسان الاطلاع على الصورة النفسية لأخيه الإنسان، يتعرّف ذلك من خلال الأخلاق، التي تكشف صورة النفس، إذ النفس هي الجانب الآخر من الشخصية الإنسانية، ولا يتبين جمالها وقبحها إلا من خلال الأخلاق، فالناس يتعرفون صفات النفس من خلال التعامل الأخلاقي.

وكما أن الأجسام فيها جمال، وقبح، وملامح جيدة، وغير جيدة، كذلك نفس الإنسان فيها الحسن، وفيها القبيح. فيها نقص، وفيها ضعف، وهذا أمر يتبينه ويراه الناس من خلال التعامل الأخلاقي مع بعضهم بعضًا.

ومما يؤسف له أن يحرص الفرد منّا على جمال شكله ومظهره أكثر من عنايته بجمال النفس وطيبها، لأنه يعرف أن جمال الشكل والمظهر، يجذب الأنظار والنفوس، لذلك يحرص أن يكون مظهره وشكله جميلًا، فنرى الكثير يتهافتون على جراحة وعمليات التجميل، وبخاصّة فيما بين النساء، لتحرص الفتاة على شكلها وجمالها متجاهلة الجوانب الأخرى.

وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى أنه ليس مستنكرًا في الدين أن يحرص الإنسان على حسن مظهره، فهو أمر مطلوب ومرغَّب فيه، لأن «اللّه جميل يحب الجمال».

والسعي للجمال وحُسْن المظهر هدي قرآني، يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[سورة الأعراف، الآية: ٣٢]، وحينما رأى نبينا محمد ﷺ أعرابيًّا يدخل عليه وشكله وشعره غير منسَّق، قال ﷺ ـ فيما روي عنه ـ: «أَمَا كان يجد ما يسكن به شعره؟»[١].

ولكن من المفترض أن تبقى العناية بالمظهر في حدودها الطبيعية المتعارفة.

وفي المقابل ينبغي للإنسان أن يحرص على جمال صورته النفسية، فهي الأهم، وهي التي تؤثر أكثر في نفوس الآخرين وقلوبهم.

وللوصول للجمال النفسي على الإنسان الاهتمام بالتهذيب الأخلاقي، فالأخلاق هي شكل النفس وهيئتها، ومن هنا جاء التأكيد والتركيز على الأخلاق.

---

(١) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني. سنن أبي داود، ج٢، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية ـ دار الجنان)، ص٤٤٩، حديث٤٠٦٢.

حُسْن الخُلُق يعزِّز حضور الإنسان في قلوب الناس

قد تكون للإنسان نقاط قوة مختلفة، كل نقطة من نقاط القوة تجعل له موقعية ما، ومستوى من الاهتمام والتقدير في أوساط الناس، فعندما يكون له نسب شريف، فإن هذا يجعل للإنسان موقعية، وقد يكون للإنسان موقع سلطة وقوة، فهذا يجعل له أهمية وتقديرًا من نوع خاص، وفي مثال ثالث قد يكون صاحب كفاءة علمية، في مجال العلوم الدينية أو العلوم الطبيعية، ما يجعل له أهمية ومكانة عند الناس. وعندما يكون صاحب ثروة وأموال ستكون له مكانة وأهمية. وأخيرًا مَن يكون له توجه عبادي، بحيث يعرفه الناس بالإقبال على العبادة وعلى التهجد، هذا تكون له قيمة في نفوس الناس، وهناك أمثلة كثيرة لمواقع ومناصب تكسب الإنسان منزلة بين الناس.

ولكننا إذا استقرأنا الروايات والأحاديث التي تتحدث عن الأخلاق، فإننا سنجدها تعطي للأخلاق مكانة عُلْيَا فوق هذه الكفاءات والملكات، وهذا ما نشعره بوجداننا وفي واقعنا الخارجي، فمهما كانت نقاط القوة عند الإنسان كثيرة، من: علم أو مال أو سلطة أو شرف ونسب أو ما أشبه ذلك، فإنه تبقى لأخلاقه الأثر الحاسم على مكانته عند الناس، فتتعزز إذا كان صاحب خلق جميل، وتكبر هذه المكانة مع كفاءته. أما إذا كانت أخلاقه سيئة فإن سوء الخلق عنده يضعف تأثير كفاءاته ونقاط قوته الأخرى، وفي هذه النقطة تروى رواية جميلة عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول عليه السلام: «رب عزيز أذله خلقه، وذليل أعزه خلقه»[1]، حيث نفهم من كلمة (العزيز) و(الذليل) الواردتين في الرواية امتلاك القدرات وعدم امتلاكها، فيكون معنى الرواية: رب عزيز يمتلك نقاط قوة ـ من شرف ونسب، أو مال، أو مكانة علمية ـ أذله سوء خلقه.

والآية الكريمة التي افتتحنا بها حديثنا توضّح هذه النقطة بأجلى صورة، فهي تتحدث عن النبي صلى الله عليه وآله، وهو في أعلى مكانة أو منصب قد يناله إنسان في الدنيا، ومع ذلك

(١) بحار الأنوار. ج٧٤، ص٤٢٠.

تتحدّث بأن الإنسان حتى لو بلغ أعلى المراتب، وهي النبوة والاتصال بالوحي الإلهي، لن يكون عزيزًا ويترك تأثيره في النفوس، ما لم يكن على درجة عالية من سموّ ورفعة الأخلاق.

إن هذه الآية الكريمة تتحدث عن أفضل نبي وأفضل رسول، ومع ذلك تجعل الخلق حاكمًا على جميع الملكات والمراتب التي يحصل عليها الإنسان، من حيث تأثيرها في الناس، ومن حيث الموقعية التي تحفرها في وسط المجتمع.

إن اللّه تعالى يخاطب نبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾، بمعنى: إنك ـ يا محمد ـ لو لم تكن لك أخلاق حسنة وكانت أخلاقك سيئة، لما نفعتك نبوتك في تعزيز موقعيتك بين الناس، ولما أفادتك في أن يقبلك الناس، ولانفضوا عنك.

إن أهم ما تريد الآية إيصاله أن الأخلاق لها حاكمية من حيث تكوين وتشكيل مكانة الإنسان في المجتمع ومقبوليته بين الناس، حتى على درجة النبوة، فكيف ببقية الكفاءات والقدرات. فلو أن إنسانًا عنده ثروة ومال، ولكن أخلاقه سيئة، ترى هل يحبه الناس؟!، وكذلك لو كان يملك مستوى علميًّا متقدِّمًا، ولكنه لا يتعامل مع الناس بالأخلاق الحسنة، فإن الأثر الطبيعي الذي سيحصل أن الناس لا يحبونه، ولن ينجذبوا أو ينشدوا إليه، لذلك ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، وهو يخاطب العلماء: «لا تكونوا علماء جبارين، فيذهب باطلكم بحقكم»[1]، ويبدو أن الخطاب ـ في الرواية ـ موجه إلى علماء الدين بألاَّ يتعاملوا مع الناس بفظاظة، حتى لا ينفروا منهم، فيذهب باطلهم (سوء التعامل الأخلاقي) بحقهم (التوجهات الدينية التي يبشرون بها)، وهذا أمر طبيعي، فإذا كانت النبوة مع سوء الخلق لا تؤثر في الناس كما هو مفاد الآية، (وهو مسألة افتراضية، وإلا فجميع الأنبياء معصومون لا يقومون بالأعمال المنافية للعصمة)

(١) الكافي. ج١، ص٣٦.

فكيف بالعالم.

ورد في حديث عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «إن العبد ليبلغ عظيم درجات الآخرة بحسن خلقه وإنه لضعيف العبادة»[١]، فكثرة العبادة والتقرّب إلى اللّه من خلالها، بتلاوة القرآن وأداء النوافل وقراءة الأدعية والزيارات لا تقرّب الإنسان إلى اللّه إذا لم يصاحبها حُسْن الخُلُق، وهذا مفاد حديث آخر مروي عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «سوء الخلق ذنب لا يغفر»[٢].

وكما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ـ عند حديثه عن الظلم ـ: «إِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ وَ ظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ وَ ظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللّه قَالَ اللّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وَ أَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ وَ أَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا»[٣].

بعض الأخطاء التي يرتكبها الإنسان في عباداته وعلاقته مع اللّه يمكن أن يتجاوز عنها ويغفرها اللّه له، لكن ظلم الآخرين والإساءة لهم ـ وهو المظهر الأخلاقي ـ هذا ظلم لا يترك، ويحاسب عليه الإنسان يوم القيامة، وقد ورد أنه قيل لرسول اللّه ﷺ عن امرأة تصوم نهارها وتقوم ليلها ولكنها تؤذي بلسانها جيرانها، فقال ﷺ: «لا خير فيها وهي من أهل النار»[٤].

من هنا جاء التأكيد على الأخلاق، حتى إن رسول اللّه ﷺ حينما يتحدث عن الأخلاق، يعدّها الهدف الأعلى من بعثته، فيقول ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٥]،

---

(١) كنز العمال. ج٣، ص٥.

(٢) المصدر نفسه. ج٣، ص٤٤٣.

(٣) نهج البلاغة. من خطبة له عليه السلام وفيها يعظ ويبين فضل القرآن وينهى عن البدعة.

(٤) بحار الأنوار. ج٦٨، ص٣٩٤.

(٥) المصدر نفسه. ج١٦، ص٢١٠.

وورد في حديث عنه ﷺ: «الإسلامُ: حُسْنُ الخلق»[١].

وروي عن النبيُّ ﷺ: «أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا»[٢].

□ صور ومشاهد من الأخلاق الحسينية

نحن عادة ما نتحدث عن الحسين الثائر، والشهيد، والمظلوم، كما نتحدث عن جانب البطولة أو المأساة في شخصيته عليه السلام، ولكن ما يجدر بنا أيضًا أن نتحدث حوله هو عن المدرسة الأخلاقية للإمام الحسين عليه السلام، كيف كانت أخلاق الإمام الحسين، وكيف كان تعامله مع من حوله، وذلك حتى نطالب أنفسنا ونمتحنها في ولائها للإمام الحسين عليه السلام، إذ لا يكفي أن نبكي على مصيبته وننشدُّ لذكراه، بل إن ذلك مجرد وسيلة، والهدف هو الاقتداء به، والتأسي بشخصيته عليه السلام، وأن نسير باتجاه شخصيته المحلقة في أفق الكمال، حتى يصل كل واحد منا إلى المقدار الذي يدركه ويتمكنه.

ونحن نحاول في هذا البحث أن نلتقط ونقتبس بعض الأشعة وبعض المواقف من أخلاق أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام.

احترام الآخرين

وهذا من أهم تجليات الأخلاق الحسنة الفاضلة عند الإنسان، فالإنسان الذي له خلق حسن، هو الذي يحترم الآخرين، مهما كانت وضعيتهم الخارجية المادية، والإمام الحسين عليه السلام في هذا المجال يروي عن جده رسول اللّه ﷺ أنه قال: «رأس العقل بعد الإيمان باللّه، التودد إلى الناس»[٣]، وفي بعض النصوص: «التحبب إلى الناس»[٤].

مفاد الرواية أن الإنسان إذا أراد أن يتعرف مستوى عقل أخيه الإنسان فإنه ينظر

(١) كنز العمال. ج٣، ص١٧.
(٢) مستدرك الوسائل. ج١٧، ص٤١٥، حديث٢١٧٠٩.
(٣) عيون أخبار الرضا. ج١، ص٣٨.
(٤) بحار الأنوار. ج١، ص١٣١.

إلى اهتمامه بالتودد إلى الناس والتحبب إليهم، كما يهتم بموقف الناس منه بانشدادهم إليه أو انشداده إليهم، هذا هو رأس العقل، ومنطق العقلاء، وما يكسب به محبة الناس.

وقد نقلنا في مناسبات سابقة روايات عن أئمتنا أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾، تأمرنا كشيعة وموالين لهم، أن نحبّبهم إلى الناس، إذ ورد عنهم: «حبِّبونا إلى الناس»، و«رحم اللّه من حبَّب الناس إلى نفسه وإلينا» ـ كما يقول الإمام الصادق ﴿عليه السلام﴾ ـ.

وفي عصرنا هذا نرى أثر هذه النقطة بارزًا بشكل واضح، وذلك حينما رأى الناس مقاومة المؤمنين للصهاينة، تجلت أمام العالم وأمام الناس مكانة مدرسة أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾، وهذا هو النشر الصحيح لمبادئ وقِيَم أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾، وهذه هي الدعوة الصحيحة، يروى عن الإمام الصادق ﴿عليه السلام﴾: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم»[1].

بينما يقوم بعض الشيعة ـ مع الأسف ـ ببعض الأعمال التي تشوِّه سمعة المذهب والطائفة، وحينما يكون هناك توجيه للابتعاد عن مثل هذه الممارسات يخاطبونك بأنه لا يهمهم الطرف الآخر.

وهو منهج وأسلوب خطأ في التعامل مع الآخرين، فهاهم أئمتنا يأمروننا بتحبيب الناس إليهم، وهم بذلك يقصدون بقية المسلمين، ولا يقصدون الشيعة بطبيعة الحال

إن هذه الطريقة في التعامل بعصبية وعنتريات تضر أكثر مما تنفع.

سئل الإمام الحسين ﴿عليه السلام﴾ مرّة عن معنى الأدب، فقال ﴿عليه السلام﴾: «ألاَّ تلقى أحدًا إلا وترى له الفضل عليك»، وهو المعنى نفسه الذي يرشد إليه الإمام زين العابدين علي بن الحسين ﴿عليه السلام﴾ في دعاء مكارم الأخلاق، حيث يقول فيه: «ولا ترفعني في الناس درجة، إلا حططتني عند نفسي مثلها»، بمعنى أن الإنسان في داخل نفسه عليه أن يهذّبها، فلا يشعر بالغرور والتعالي على الآخرين، بل لا يلتقي أحدًا إلا ويرى له الفضل عليه، كما هو مفاد

---

(١) وسائل الشيعة. ج١، ص٧٦، حديث ١٧١.

كلام الإمام الحسين عليه السلام.

عدم الإساءة إلى الآخرين

الأخلاق الحسنة تعني ألا نسيء لأحد، بل من الأخلاق الحسنة أن يتحمل الإنسان إساءات الآخرين، فقد جاء رجل إلى الإمام الحسين عليه السلام وقال له: «إن فيك كِبْرًا»، ـ وفي العادة لا يتحمّل أحد أن يأتي شخص ويواجهه بهذه العبارة، وبخاصة إذا كان في موقع وجاهة، أو زعامة، في مثل هذه الحالة غالبًا ما يفقد الإنسان السيطرة على انفعالاته وضبط أعصابه، لكن الإمام الحسين عليه السلام يستقبل هذا المسيء بابتسامة هادئة، ويقول له: «الكِبْرَ للّه وحده ولا يكون في غيره»[1]، يشير عليه السلام إلى الحديث القدسي المرويّ عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار»[2].

إن الإمام الحسين عليه السلام لم تُثِرْهُ استفزازات هذا الرجل، فلم يغضب أو ينفعل، ولم يرد على إساءته.

إن التعامل الحَسَن مع المحسن لا فخر للإنسان فيه، فعندما تُلْقَى قصيدة في مدح أحد الأشخاص فيبدي له احترامه، هذا ليس من موارد الفخر والاعتزاز، ولكن ما يشعر بالفخر والاعتزاز أن يتحمّل الإنسان مواقف الإساءة، بحيث يضبط أعصابه وردّات فعله.

الإمام الحسين عليه السلام كان يحترم البعيدين والقريبين، ولذلك كان يُنْقَل في سيرته، أنه على عهد جده رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم هو وأخوه الإمام الحسن عليه السلام كانا يخاطبان جدهما رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بالأبوة، فيقولان ـ مثلًا ـ: «أبتاه يا رسول اللّه»، أو: «يا أبتاه»، ويخاطبان أباهما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بكنيته بالآخر، فالإمام الحسين يخاطب أباه الإمام عليًّا عليه السلام: «يا أبا الحسن»، والحسن يقول: «يا أبا الحسين»، تمييزًا وتعظيمًا لجدهما رسول

---

(١) بحار الأنوار. ج٤٤، ص١٩٨.

(٢) سنن أبي داود. ج٢، ص٤٥٦، حديث ٤٠٩٠.

اللّه ﷺ، وذلك إلى وفاة جدهما رسول اللّه ﷺ، فصارا يخاطبان أباهما عليًّا بالأبوة.

وهذه نقطة مهمّة، وهي مراعاة حُسْن التعامل مع الآخرين، وليبدأ هذا الأدب الإسلامي من المنزل وأقرب الناس، وهم أفراد الأسرة.

ومن حُسْنِ تعامل الإمام الحسين عليه السلام مع أفراد أسرته أنه ورد في سيرته عليه السلام عن الإمام الباقر عليه السلام أنه ما تكلم بين يدي أخيه الحسن إعظامًا له، فإذا كان أخوه الإمام الحسن عليه السلام في مجلس لا يتكلم في محضره تعظيماً وإجلالًا له عليه السلام.

وهذا أمر رأيته في بعض المجتمعات عند بعض القبائل، فمن العادات عندهم أنه كما يقبل الفرد منهم يد أبيه أو رأسه، يقبل رأس أخيه الأكبر منه، وفي بعض الحالات كنت أراه يقبل يد أخيه الأكبر، وهذا نوع من الاحترام والتعظيم.

إن أهل البيت عليهم السلام بهذه السيرة الأخلاقية التي تميزوا بها يمثلون القدوة لنا في التعامل فيما بيننا، وبخاصّة التعامل الأسري، وهي نقطة لا بدَّ أن نلتفت إليها جيدًا، فالأسرة هي اللبنة الأولى للمجتمع، وربما كثير من الظواهر السلبية يكون لها بيئة احتضنتها داخل الأسرة، ولذلك ينبغي التأمل في سيرة أهل البيت عليهم السلام وتعاملهم فيما بينهم كأسرة متحابّة متآلفة.

احترام المعلّم

من مشاهد أخلاق الإمام الحسين مما ينقله لنا التاريخ من سيرته: موقفه مع معلمٍ لولده علمه سورة الحمد، هو عبد الرحمن السلمي فلما قرأها الغلام أمام أبيه الحسين عليه السلام، أمر عليه السلام بألف دينار لذلك المعلم، وفي رواية حشى فاه درًّا، فقيل له في ذلك، قال: «وأين يقع هذا من عطائه ـ يعني تعليمه ـ»[1].

وهو تصرّف من الإمام يدل على تعظيم العلم، وتقدير المعلم.

(١) مستدرك الوسائل. ج٤، ص٢٤٧، حديث ٤٦١٣.

وهنا لا بدَّ لي من همسة تربوية مهمّة، وهي أننا بحاجة في مجتمعنا للتفاعل بين الآباء والأُسَر وبين السلك التعليمي، بين البيت والمدرسة، لأن هناك بعض الآباء الذين لا يهتمون بالعلاقة مع المدرسة التي يتعلم فيها أبناؤهم وبناتهم، فلا يهمه التواصل، ولا يبدي أيَّ اهتمام بذلك، فغالبًا ما يكون الحضور لمجالس الآباء ضعيفًا.

بل يصل الأمر في ضعف التعاون بين البيت والمدرسة إلى حد أن البعض لا يرد على الهاتف إذا اتصلت به المدرسة، بمجرد أن يرى رقم هاتف المدرسة لا يرد ولا يتجاوب، ولعل ابنه يقضي مرحلة دراسية كاملة دون أن يكلف نفسه عناء ومهمة الوصول إلى المدرسة لتفقد وضعه.

التواصل مع المدرسة مهم، لتفقد وضع الأولاد في المدرسة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لإشعار الطالب باهتمام أسرته بدراسته، وثالثًا لإشعار المعلمين وإدارة المدرسة بأن هناك متابعة.

إن من أهم الأمور التي تشجع وتدفع باتجاه إزالة الثغرات وموارد النقص والخلل هو مسألة المتابعة بين البيت والمدرسة، والإمام الحسين عليه السلام بسيرته يريد أن يلفت أنظارنا إلى أن ننظر إلى المعلم نظرة احترام، وأن نقدر الدور الذي يقوم به المعلم تجاه أبنائنا.

للآخر قراره وحريته

كان الإمام الحسين عليه السلام يقدر للآخرين حريتهم في الاختيار، حتى في المواقف الحساسة، ففي واقعة عاشوراء نجد أن الحسين عليه السلام في مسيره إلى كربلاء كان يعطي للآخرين الحرية في اختيار الموقف الذي يريدونه ويرونه، فَخَيَّرَ أصحابه أكثر من مرة في اللحوق به أو التخلّي عنه، وفي أكثر من مرّة ردّد هذه العبارات: «ليس عليكم مني ذمام»[1]، «فانطلقوا، في حل ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم، فاتخذوه جملًا

(١) تاريخ الطبري. ج٤، ص٣١٧.

وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي»[١].

وكان بعض الأشخاص يستأذنونه فيأذن لهم، والتاريخ ينقل لنا قصّة هرثمة بن أبي مسلم، فهو يتحدث عن نفسه، أنه شهد صفين مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وفي الطريق في منصرفه من صفين أو ذهابه إلى صفين، حينما حاذى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أرض كربلاء، حدثهم عما يجري في كربلاء وقال: «واهًا لك أيتها التربة ليحشرن منك أقوام يدخلون الجنة بغير حساب»، وتذكر هذا المشهد عندما كان مع قوم عمر بن سعد في كربلاء، فعزم على أن يترك عمر بن سعد، وجاء إلى أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام، وروى ما سمعه من أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام، فكان يعرف قيمة المكان وقيمة القضية، حينها سأله الإمام الحسين عليه السلام: «معنا أنت أم علينا؟»، ولكن هرثمة خانته الإرادة، فقال: «لا معك ولا عليك، خلّفت صبية أخاف عليهم عبيد اللّه بن زياد»، وفي هذا الموقف لم يغضب الإمام الحسين عليه السلام ولم ينفعل، بل نصحه بما ينفعه، قال له: «فامض حيث لا ترى لنا مقتلًا ولا تسمع لنا صوتًا فوالذي نفس حسين بيده لا يسمع اليوم واعيتنا أحد فلا يعيننا إلا كبّه اللّه لوجهه في نار جهنم»[٢].

فلننظر كيف أن الإمام يقدر للآخرين اختيارهم وحريتهم، وهذا هو سلوك الأنبياء عليهم السلام، فالأنبياء يبينون ويبلغون الرسالة، والناس ـ بعد ذلك ـ أحرار، فـ ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾[سورة المائدة، الآية: ٩٩]، وهذا بخلاف ما نراه من البعض الذي يأخذه الانفعال والحماس حينما يعتقد بأن رأيه هو الحق، ولا يرى للطرف الآخر حقًا في التفكير والقرار، مع أن الدعوة تحتاج إلى عنصر الحوار الهادئ في إقناع وتفهّم وجهة نظر الطرف الآخر، لأن أيًّا كان لا سلطان له على تفكير ومعتقدات الآخرين، فها هو القرآن الكريم يصوّر لنا طبيعة الدعوة التي يمارسها الأنبياء، يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[سورة الغاشية، الآيتان: ٢١ ـ ٢٢].

---

(١) الكامل في التاريخ. ج٢، ص٥٥٩.

(٢) بحار الأنوار. ج٤٤، ص٢٥٦.

ولقد كان أبو عبد اللّه الحسين عليه السلام يتعامل مع الناس من هذا المنطلق.

ولننظر إلى تعامله مع أصغر جندي معه في المعركة، هو عمر بن جنادة، الذي كان غلامًا في الحادية عشرة من عمره، عندما أقبل يطلب الرخصة من أبي عبد اللّه الحسين عليه السلام لينزل إلى المعركة، التفت إليه الإمام الحسين، وقال: «هذا غلام قتل أبوه في الحملة الأولى ولعل أمه تكره ذلك»، وإذا بالغلام يتقدم إلى الحسين عليه السلام ودموعه تسيل على خديه، والسيف الذي يحمله لعله أطول من قامته، يقول: «إن أمي أمرتني»»[1].

وغلام آخر تركي ما كان عنده أحد أيضًا معه في المعسكر، لما نظر إليه الإمام الحسين عليه السلام خَيَّرَه، وقال له: «أنت في حل اذهب، وانجُ بنفسك»، فقال: «سيدي يا أبا عبد اللّه، هذه لحظة السعادة ساعة الفوز كيف أفوتها على نفسي»، فخرج إلى المعركة، وقاتل إلى أن استشهد، ولم يكن له أقارب ومعارف، فقد كان غريبًا، فأقبل الإمام الحسين عليه السلام نحو ذلك الغلام، وميزه، وانحنى عليه ووضع خده على خده، وكان الغلام لا يزال به رمق من الحياة، فتح عينه ورأى الحسين واضعًا خده على خده، فابتسم وطارت نفسه فرحًا وسرورًا، وقال: «من مثلي وابن رسول اللّه واضع خده على خدي»[2]، وفاضت روحه الشريفة.

وهكذا كان الإمام الحسين في تعامله مع جميع من حوله، يعامل الجميع بالرفق والعطف والرحمة.

---

(١) عبد الرزّاق المقرّم. مقتل الحسين، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، (قم: مكتبة آل علي عليه السلام)، ص٢٦٤.
(٢) أعيان الشيعة. ج٣، ص٣٠٣.

العلاقات الزوجية وظاهرة العنف

- خصوصية العلاقات الزوجية
- ظاهرة العنف الأسري
- دور المجتمع في حماية الأسرة

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[سورة النساء، الآية: ١٩].

خصوصية العلاقات الزوجية

لا توجد علاقة في عالم الإنسان أخصّ ولا أعمق من العلاقة الزوجية، لأنّها علاقة منفتحة على مختلف الأبعاد في شخصية الإنسان، فعلاقة الزوج مع زوجته وعلاقة الزوجة مع زوجها لا تدانيها أي علاقة أخرى، فليست للإنسان علاقة في رحابتها تداني علاقته مع زوجته في عمقها وفي سعة انفتاحها، وهذا أمر واضح، وبالتالي فإن التعبير عن الزوجة بأنّها شريكة حياة الزوج تعبير دقيق وحقيقي، لأنّ هذه العلاقة فيها اندماج وشراكة في مختلف أبعاد الحياة.

ولا يمكن مقارنة هذه العلاقة بعلاقة الإنسان مع أبويه ـ على ما فيها من قداسة ومكانة ـ، وذلك باعتبار أن سعة علاقة الإنسان بوالديه تبقى محدودة في مقابل علاقة الرجل بزوجته أو علاقة المرأة بزوجها.

ومن هنا نجد أنه على مستوى النفقة هناك خصوصية لموضوع نفقة الزوجة في بعض التفاصيل الفقهية، فنفقتها مقدّمة على نفقة الوالدين، مع جلالة مكانة الوالدين في التشريع والتعاليم الإسلامية.

العلاقات الزوجية في القرآن الكريم

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الخصوصية في موارد مختلفة وبتعبيرات متميّزة وفريدة:

١. يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[سورة الروم، الآية: ٢١] .

فيعبّر في هذه الآية عن العلاقة الزوجية بأنها سكن، والخطاب فيها موجّه للطرفين: الرجل والمرأة.

ونحن نعلم أن دور السكن للإنسان هو دور الإيواء، والمكان الذي يمارس فيه خصوصياته، ولذلك فإن الآية الكريمة تصف العلاقة الزوجية بأنها كذلك، فهي العلاقة التي يأوي إليها الإنسان حينما تضطّرب علاقاته مع أي طرف أو جهة. وكذلك هي المأوى العاطفي للإنسان، فالإنسان في هذه الحياة يواجه مشاكل وتحدّيات، والأقرب إليه لمساعدته وتفهّم مشاكله هو الزوج، لذلك تعبّر الآية بِـ ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾.

كما أن الإنسان في علاقته الزوجية يشعر بحريته وخصوصيته التي لا يشعر بها ضمن أي علاقة أخرى.

وفي الفقرة التالية من الآية يقول سبحانه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، وهذا أمر يعيشه الإنسان أكثر في بدء علاقته الزوجية، فربما يكون الطرفان قبل الزواج ليست هناك بينهما سابق معرفة، ولكن بمجرّد أن تحصل هذه العلاقة الزوجية تصبح حالة من المودّة والتراحم بينهما.

ويقصد بالمودّة حالة الحبّ المتبادل، وبالرحمة حالة الشفقة في منطقة الضعف والحاجة.

٢. وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٨٧]،

حيث يصف سبحانه العلاقة هنا بأنها لباس، وتشبيه العلاقة الزوجية باللباس فيه إيماءات كثيرة وعناوين عميقة، فاللباس من مظاهره أنه ملتصق بجسم الإنسان، والعلاقة الزوجية في عمقها وطبيعتها علاقة التصاق نفسي وعاطفي.

ومن جهة أخرى، يؤدّي اللباس وظيفة ستر عورة وبدن الإنسان، وكذلك هو أناقة لمظهره الخارجي، ومن جهة ثالثة يحميه من الظروف والتقلّبات الخارجية، وهذه الوظائف تتوفر بشكل عميق في العلاقة الزوجية.

فالزوج يستر عورة زوجته، والزوجة تستر عورة زوجها، من خلال إشباع الحالة الجنسية لكل من الطرفين بصورة سليمة ومقبولة اجتماعيًا وإنسانيًا.

كما أن الزوجة جمال وأناقة للرجل في حياته الاجتماعية، وكذلك الزوج بالنسبة لزوجته، فالإنسان الذي يفتقد هذه العلاقة يشعر بنقص وضعف في وضعه الاجتماعي.

وأخيرًا، العلاقة الزوجية صيانة وحماية للإنسان في مجال العواطف والمشاعر والحالة النفسية والحياة الخاصة.

٣. في مورد ثالث يعبّر القرآن الكريم عن العلاقة الزوجية بتعبير لم يستعمله في أي علاقة أخرى، يقول سبحانه: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[سورة النساء، الآية: ٢١].

الإفضاء من الفضاء والانفتاح، وهذا يعني أن العلاقة بين الزوجين علاقة انفتاح لا تشبهها أية علاقة أخرى.

ولكن هذه العلاقة يقيدها عقد الزوجية، حيث عبرت عنه الآية بـ: ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

ولذلك يعبر الفقهاء عن عقد الزوجية بأنه عقدٌ فيه شائبة العبادة، أي إن في هذا العقد مسحة عبادية، وإنه ليس كأي عقد مادّي، فعقد الزوجية فيه إيجاب وقبول كبقية

العقود، ولكنّ العلاقة التي تترتب عليه لا يمكن مقارنتها بالعلاقة التي تترتب على أي عقد آخر.

هذه العلاقة الوثيقة في الحياة الزوجية التي يدركها الإنسان بوجدانه وفطرته، ونراها ماثلة أمامنا في حياتنا البشرية والاجتماعية، ينبغي أن تحفظ بالتعامل الصحيح والسليم، وتنمّى مفاعيلها وآثارها في الحياة.

◻ ظاهرة العنف الأسري

هذه العلاقة الوثيقة بين الإنسان وزوجته تستلزم علاقة خاصّة ومميزة في التعاطي والتعامل، إذ لا يوجد إنسان أولى وأحقّ بحسن التعامل من الزوج من قبل زوجته أو من الزوجة من قبل زوجها.

وهنا لا نغفل أهمية تعامل الأبناء مع الوالدين، ولكنّ العلاقة بين الزوجين لا تماثلها علاقة، فالمرأة تعيش مع زوجها انفتاحًا كاملًا في مختلف الجوانب والأبعاد: الجسمية والعاطفية والأبعاد المختلفة الأخرى، لذلك ينبغي أن تكون هذه العلاقة هي أفضل علاقة يقيمها الإنسان ويراعي فيها منتهى الإحسان والفضل، وهذا أمر موجّه للطرفين تجاه بعضهما بعضًا.

لكن مع الأسف في بعض الأحيان يحصل العكس، حيث تصبح العلاقة بين الزوجين سيئة وغير ملتزمة بالحدود الشرعية.

إن القرآن الكريم يشير في أكثر من موضع إلى أن تعدّي الحدود الشرعية في العلاقة الزوجية هو تعدٍّ لحدود اللّه، يقول تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٢٩]، ويقول في الآية التي تليها: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٣٠]، وفي آية

ثالثة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾[سورة الطلاق، الآية: ١]، وغيرها من الآيات التي عبّر القرآن فيها عن أحكام العلاقات الزوجية بـ (حدود اللّه)، وحرّم التعدي عليها وتجاوزها.

ومما يؤسف له أنه في بعض الأحيان تتصاعد الخلافات بين الزوجين لتصل إلى مستوى العنف، لدرجة أن هذه المشكلة (العنف الأسري) أصبحت قضية عالمية، وتقام من أجل التغلّب عليها الدراسات والأبحاث، وتعقد من أجلها المؤتمرات، وتشرّع القوانين، من أجل حماية الأسرة من آثار هذه الظاهرة ومحاولة الحدّ منها.

وقد قامت وزارة الشؤون الاجتماعية في المملكة ـ مؤخّرًا ـ بتشكيل إدارة خاصّة للحماية الاجتماعية للأسرة، وذلك بسبب ظهور حالات العنف الأسري في المجتمع وتزايدها.

تفشي ظاهرة العنف الأسري

العنف الأسري ظاهرة قديمة الوجود، ولعلّها كانت في نطاق أضيق مما هي عليه اليوم، كما أنها ربما كانت لا تسلّط عليها الأضواء كما هي الحال الآن، وذلك بسبب نموّ ثقافة حقوق الإنسان، ونموّ شخصية الإنسان رجلًا كان أو امرأة.

ففي الماضي ربما كان هناك شيء من التعتيم على مثل هذه الظواهر، ولا تبدو أمام الناس والرأي العام، ولكن بسبب نموّ ثقافة الحقوق والواجبات لدى كل إنسان أصبح هناك شيء من الإفصاح عن كثير من القضايا التي كان يُتستّر عليها سابقًا، مع الاعتراف بأن ما يصل إلى الرأي العام والجهات المختصّة كالمحاكم ومراكز الشرطة لا يمثّل النسبة الحقيقية، فهي أوسع من ذلك بكثير.

وفي التستّر على هذه الظاهرة ومثيلاتها جانب إيجابي، فكلما أمكن حلّ المشاكل

الأسرية داخلها ودون تدخّل طرف خارجي فهو الأفضل، ولكن في بعض الأحيان ينتج التعتيم وكتمان المشكلة حالة من تكريس الاضطهاد والعدوان .

وحينما تتفاقم المشكلة ويكون المجال مفتوحًا للإفصاح، وتصبح هناك فرصة لطرحها، فيحب إيصالها إلى الجهات المسؤولة والمعنية، حتى يكون هناك مجال للإنصاف والإصلاح أوالردع، وحتّى يعلم الأزواج أن المرأة ليست مستباحة الحقوق ومنتهكة الحرمات، وألاَّ مجال أمامها للدفاع عن نفسها.

بالطبع إن من يتعرَّض للعنف الأسري لا يكون من النساء فقط، فهناك من الرجال من يتعرّض للعنف أيضًا، لكن هذه الحالات محدودة وجزئية، ولهذا ظهرت في الواجهة في بعض البلدان جمعيات تطالب بتشكيل مؤسسات لحماية الرجال من النساء، كما حصل هذا في الجزائر مؤخّرًا.

ولكنَّ نسبة تعرُّض الرجال أقل من تعرض النساء للاضطهاد في جميع المجتمعات.

وقد نشرت جريدة الحياة بتاريخ ٢٩/ ٠٣/ ٢٠٠٦ م دراسة لباحثة جامعية من جامعة الملك سعود حول العنف الأسري في مدينة الرياض، فكان من نتائج هذه الدراسة أنه في كل ستة (٦) أشهر تصل إلى المستشفيات من (٣) إلى (٤) حالات محاولات انتحار من قبل الرجال، أما من قبل النساء فإن المعدّل في كل ستة أشهر: (٩٦) محاولة انتحار، وهذا في مدينة واحدة، هي مدينة الرياض.

وحينما يجري البحث عن أسباب محاولات الانتحار عند النساء، تكون في الغالب بسبب العنف الأسري الذي يصل للنساء، سواءً كُنَّ زوجات أو بنات، وفي هذا دلالة على أنَّ ما تتعرَّض له المرأة يفوق أضعاف ما يتعرَّض له الرجل، وهو الأمر الطبيعي، لأن الرجل في موقع القوّة والقوامة، وبالتالي غالبًا ما يصدر عنه هذا العنف.

آثار ظاهرة العنف الأسري

لقد أصبح من الضروري الوقوف عند هذه المشكلة ومعالجتها:

١. لأنَّ اضطراب العلاقات الزوجية يلقي بظلاله على الوضع الاجتماعي بشكل عام، وعلى حياة الفرد بشكل خاص، لأنَّ الإنسان إذا كان منسجمًا وسعيدًا في حياته الزوجية، فإن ذلك يريحه نفسيًّا، ويكسبه الاطمئنان والراحة، ويصبح أكثر قدرة على الفعالية والإنتاجية، بينما إذا كان في حياته الزوجية مضطّربًا، ويعيش مشكلة وعناء، سيؤثّر هذا على حالته النفسية وعلى عطائه، وهذا أمر واضح، نجد أثره على بعض الموظّفين حينما تقلّ إنتاجيته وفعاليته في العمل وفي تعامله مع زملائه، ففي كثير من الأحيان حينما نبحث عن الأسباب يكون ذلك لأنه غير منسجم في حياته العائلية.

٢. من ناحية أخرى يؤثر الاضطراب في الحياة العائلية على بناء الجيل الجديد، فالأولاد إذا عاشوا في جوّ أسري منسجم، تصبح نفوسهم أقرب إلى الاستقامة، وتربيتهم أقرب إلى التربية السليمة، أما الأطفال الذين يعيشون في جوّ عائلي مضطرّب، وعلاقات سيئة بين الأب والأم، فإن التربية التي سيتلقّاها هؤلاء ستؤثّر على نفوسهم، وغالبًا ما يكون الأولاد هم الضحايا في سوء العلاقات الزوجية.

ولذلك عندما يحافظ الوالدان على حسن علاقتهما الزوجية، وعلى خلق جوّ الانسجام والصفاء بينهما، فإن مردّ ذلك على الأبناء بالدرجة الأولى، فمما تفيده الدراسات الاجتماعية: أن من أسباب الجنوح عند الأحداث إلى الجرائم والعدوان، والسلوكيات السيئة، وتدني مستواهم الدراسي، هو المشاكل العائلية التي يعيشها هؤلاء الأبناء.

وتقوم وزارة التربية والتعليم بين فترة وأخرى بإجراء بعض الأبحاث حول تدني المستوى التعليمي والانحراف السلوكي للطلاب في المدرسة، وغالبًا ما

يتوصل المشرفون التربويون، الذين يتصدّون لمشاكل الطلاب، إلى أن هناك تأثيرًا كبيرًا وواضحًا لسوء العلاقات العائلية على سلوك الطالب في المدرسة؛ لأن هذا الطالب الذي يعيش مشكلة بين أبيه وأمه ـ سواء كانت المشكلة قائمة أو تنتهي بالانفصال والطلاق ـ، فهذا يؤثّر على اهتمامه الدراسي وعلى إعداده للمدرسة وعلى تربيته وتوجيهه.

٣. الاضطراب الأسري يؤثر على الأمن الأخلاقي للمجتمع، فالرجل إذا كان مستوعَبًا من قبل زوجته فغالبًا ما يكون أعفّ، ولا يمدّ بصره وتوجهاته العاطفية خارج حدود المنزل، وكذلك الزوجة إذا كانت تعيش وضعًا مستقرًّا في حياتها الأسرية، وهناك إشباع عاطفي لها تكون أقرب إلى حالة العفاف، بينما إذا كانت تجد جفاءً وجفافًا وقسوة في علاقاتها الزوجية، فإن الشيطان يدخل عليها من هذا الباب، وكثير من المشاكل الأخلاقية التي تحدث تكون أرضيتَها الخلافاتُ العائلية.

لأجل هذه الآثار وغيرها يجب الوقوف عند ظاهرة العنف والمشاكل الأسرية، ومحاولة الوصول إلى علاجات وحلول لها، ولا يصح أبدًا التساهل وتجاهل الموضوع أو التعتيم عليه، فهناك مشكلة حقيقية معاشة، وظاهرة متصاعدة، وتصاعد هذه الظاهرة له أسباب، بعضها قديم، وبعضها الآخر مستجدّ، ومن تلك الأسباب نذكر ما يلي:

أ. سوء الأخلاق

حينما يكون هناك سوء خلق عند أحد الطرفين فهذا يولّد مشاكل وخلافات، سرعان ما تنتقل إلى بقية أفراد الأسرة، وغالبًا ما يكون الأبناء هم الضحية الأبرز والأسرع من حيث التأثر.

ب. عدم الوعي بالحقوق والواجبات

وضع الإسلام نظامًا وأحكامًا تنظّم علاقة الإنسان بالآخرين، وربما تعدُّ أحكام

تنظيم العلاقات الأسرية هي من أكثر الأحكام التي أولاها الإسلام عناية كبيرة، لما لها من انعكاسات على الإنسان الفرد والمجتمع، ولكن مما يؤسف له أن يقبل الشاب ـ وكذلك الشابّة ـ على الزواج دون معرفة بهذه الأنظمة والأحكام، التي تحكم هذه العلاقة الجديدة، فلا يعرف كلا الطرفين ما عليهما من واجبات، وما لهما من حقوق، والجهل بهذه الأحكام قد يكون سببًا في بروز كثير من الخلافات الأسرية، يقول تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٢٨].

هذه الآية تدلّل على أن لكل من الطرفين حقوقًا وواجبات، وهذه الأحكام موضوعة بالتساوي على نحو الاجمال.

ج. نموّ الروح المصلحية الأنانية

في ظل الحضارة المادية التي لها من وسائل الإعلام والمعلومات ما تصل به إلى كل بيت وكل شخص، أصبح الإنسان يهتمّ بنفسه أكثر من اهتمامه بالآخر ـ حتى أسرته، وهذا أمر نلحظه، ففي كثير من الأحيان يأتي بعض الأشخاص ويتحدّث بأنه يسافر ويتنزّه في هذا البلد وذاك، ولكن حينما تسأله عن زوجته وعياله، تلاحظ أنه لا يجد نفسه معنيًّا إلا بأن يرفّه عن نفسه هو فقط، بينما لا يهتمّ بأبنائه وعائلته، وهذه العائلة حينما تجد الأب يسافر ويتركها دون مراعاة لمشاعر أفرادها، وحاجتهم للترفيه والعناية، فإنها ستشعر بنوع من الاستئثار الذي يمارسه الأب على حساب أفراد العائلة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى حينما يغيب الأب عن بلده وعائلته، سيكون بعيدًا عن أوضاعها ومشاكلها، وعن متابعة مجريات الأمور، ما يجعل الأبناء فريسة للوقوع في شراك الثلل والمجموعات المنحرفة، أو الانزلاق إلى مهاوي الإغراء والفساد.

وهذا النوع من الاستئثار واللامبالاة يمكن أن نرجعه إلى الثقافة المادية، هذه الثقافة التي تعطي الإنسان اهتمامًا كثيرًا بذاته، فإذا تضخّمت ذات الإنسان فإنه سيفكّر في حقوقه أكثر مما يفكّر في الواجبات التي عليه تجاه الطرف الآخر، ويفكر في راحته

وأموره الشخصية قبل أن يفكر في راحة وحقوق الطرف الآخر.

وهذا له أثر سلبي على واقع ومستقبل الأسرة، كما أنه خلاف ما توصي به النصوص الشرعية، فقد ورد عن نبينا محمد ﷺ أنه قال: «جلوس المرء عند عياله أحبُّ إلى اللّه تعالى من اعتكاف في مسجدي هذا»(١).

د. ضغوط الحياة والانفتاح الإعلامي

هذا الانفتاح المثير للشهوات والأهواء، وما يسببه من استثارة وتحريض، له دور كبير في اضطراب العلاقات الأسرية.

وهو من سلبيات هذه الحضارة المادّية ـ التي لها إيجابيات كبيرة ـ، حيث تتجاهل هذا الجانب القيمي الأخلاقي، فما تبثّه الفضائيات أو تروّج له بعض الأفلام ـ من أجل مطامع تجارية ـ ممّا يحرّض الجانب الغرائزي والشهواني عند الإنسان، له تأثيره في نفس الرجل والمرأة، ومما يؤسف له أن هذه الأمور أصبحت تجارة رائجة.

ومن البوادر الخطرة أن تنتشر مثل هذه الثقافة والتسويق لمثل هذه الإباحيات في أسواق مناطقنا، حيث يتواجد أولئك الذين يحترفون بيع الأقراص الممغنطة (السيديات) التي تحتوي على الأفلام والمشاهد الإباحية واللاأخلاقية، وهي أمور تُنْشَر على حساب الأمن الأخلاقي الاجتماعي والقيم الدينية، وهو من الرزق الحرام؛ لأن بيع وتداول مثل هذه الأمور لا يجوز شرعًا، ولا يصح من المجتمع التغاضي عنها، وعلى الجهات الرسمية المعنية أن تتشدّد إزاء هذه الممارسات، ونحن نسمع عن أخبار طيبة في هذا الاتجاه، حيث تقوم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو الشرطة في بعض الأحيان بمداهمة بعض الأماكن التي تروّج فيها مثل هذه الأشرطة والأقراص، وتقوم بمصادرة ممتلكاتهم الممنوعة هذه.

---

(١) تنبيه الخواطر. ج٢، ص١٢٢.

ولكنّنا نريد دورًا أكبر، وأن تكون مثل هذه الممارسات مستنكرة في مجتمعنا، فهذه الزوجة التي تعرف عن زوجها أنه يتاجر بهذه الأمور أو ذلك الأب ـ أو أحد أفراد الأسرة ـ الذي يعلم عن ابنه أنه يقوم بذلك، عليه أن يستنكر؛ لأن هذا المال الذي يأتي به من هذه التجارة مال حرام، وكذلك على المتواجدين في السوق أن يظهروا استنكارهم لهذه الممارسات، يجب أن نوجِدَ أجواء رادعة في مجتمعنا ضدّ تداول مثل هذه الأمور، وذلك لآثارها المدمّرة على أخلاقنا وأمننا الاجتماعي، فلا يصحّ لنا أبدًا أن نسكت عنها، وكأنها أمر طبيعي.

ومما يؤسف له أن البعض يبيع بعض المحاضرات والبرامج الدينية بجانب هذه الأفلام الإباحية، وهذا دليل على أن الهدف أصبح ماديًّا فقط، دون أدنى مراعاة للجوانب الأخلاقية والقيمية.

وفي بعض الأحيان تداهم بعض الجهات الرسمية من يبيعون الكتب والمحاضرات الدينية وتصادر ما لديهم، ويأتي البعض منهم يشتكي بأن هذا تصرّف ضدّ الحرية الدينية والمذهبية.

نحن مع نشر الثقافة الدينية، ولكن على هؤلاء الذين يبيعون الكتب وبعض الأشرطة والأقراص أن يراعوا المصلحة الدينية، فبيع الكتب التي فيها سحر وشعوذة أو أمور خرافية لا واقع لها، أو فيها ما يثير الفتنة الطائفية حرام شرعًا، ولا يصحّ لإنسان متديّن أن يبيع مثل هذه الكتب، ويدّعي أنه ينشر الثقافة الدينية، فالثقافة الدينية لا تقبل الخرافة، والدين لا يقبل الأساطير، ولا يقبل ما يؤجج الفتنة، أو ما يشوّه سمعة المذهب.

ولكن للأسف إن هذه الأمور الخرافية والمذهبية الصارخة هي التي يُقبل الناس عليها أكثر.

وأنا هنا أناشدكم أن تتقوا اللّه في وحدة المجتمع والوطن، فكما أننا ننزعج حينما

نرى أن الآخرين ينشرون ما يسيء إلينا، فيجب أن نشعر بالانزعاج الذي يحصل عند الآخرين حينما يجدوننا ننشر ما يسيء إليهم.

دور المجتمع في حماية الأسرة

الإنسان في بعض الأحيان يرى أن المشكلة لم تصل إليه، فلا يهتم بما يدور حوله من مشاكل، فيجد أن علاقاته بين أفراد عائلته جيدة، ولكن هذا الشعور لا يعفيه ـ كفرد من المجتمع ـ من المسؤولية، لأنّه جزء من المجتمع ومسؤول عمّا يدور حوله، ولأنه مسلم والشرع يوجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولأن المشكلة إذا تفشّت وانتشرت ولم تصل إليه اليوم ستصل غدًا.

ولذلك لا بدَّ أن نتحمّل مسؤوليتنا تجاه هذه المشكلة وهذه الظاهرة.

وهنا أتحدّث ـ بخصوص دور المجتمع في حماية الأسرة ـ في نقطتين، هما:

الأولى: نشر ثقافة العلاقات الأسرية

يجب أن ننشر الثقافة الإسلامية الصحيحة، تلك الثقافة الإنسانية الأخلاقية، فكثير من الناس لا يعرفون تعاليم الدين على هذا الصعيد، ولم تطرق أسماعهم الأحاديث والروايات والنصوص وكلام الفقهاء حول العلاقات الزوجية، بل إنَّ بعض الأزواج لا يعرفون ـ بالتحديد ـ الحقوق التي لهم على زوجاتهم، فيظنون أن على الزوجة أن تلبي كل رغبات الزوج، وأن تقوم بكل ما يطلبه منها، فإنْ قصرت وضعفت فهي مدانة، وينظر إليها على أنها قد قصّرت في حقه، وبعض الزوجات تعتقد أن على زوجها أن يكون رهن إشارتها في كل ما تريد، وكل ما تطلب، دون أن تأخذ ظروف زوجها الاقتصادية والاجتماعية بعين الاعتبار، وهذا خطأ، فلا بدَّ من معرفة الحقوق المتقابلة بين الزوجين.

وهذا أمر من المفترض أن يكون واضحًا قبل الزواج، بحيث تعرف الزوجة ما عليها من واجبات وما لها من حقوق، وكذلك الزوج يعرف حقوقه وواجباته، وأن ننشر

ثقافة الحقوق الزوجية عبر مختلف الوسائل المتاحة، وهذا أمر من المفترض أن يكون حتّى في المراحل الدراسية التعليمية، وبخاصّة في المرحلة الثانوية، وما نحتاج إليه منها هو التركيز على القضايا السلوكية.

في بعض الأحيان تجد أن هناك تركيزًا على بعض القضايا العَقَدية في مناهج التعليم الديني في المملكة، وعلى بعض القضايا الفقهية، وهو أمر تجده أيضًا في خطابنا الديني، وأنا أعتقد أنه في هذه السنوات نحن لا نواجه في مجتمعنا الإسلامي خطرًا عقديًّا، فالخطر الأكبر الذي نواجهه في هذه المرحلة هو الخطر السلوكي والأخلاقي، أما القضايا العقدية فإنها أُشبِعتْ بحثًا، والناس بفطرتهم ووجدانهم ومما يتلقونه من بيئتهم يعرفون المعتقدات الدينية، ولا يعني هذا أننا لسنا بحاجة إلى التوضيح والنشر، ولكن إذا أردنا أن نضع سُلَّمًا للأولويات، فإن الأولوية في هذه المرحلة هي للمشاكل الأخلاقية السلوكية، إن بعض القضايا العقدية التي يركز عليها الخطاب الديني المحلّي قضايا مستهلكة، وبعضها محلّ خلاف، مثل: «بناء القبور وإشادتها» لم تكن مهمّة في يوم من الأيام، وهي اليوم غير مهمّة أيضًا، ولقد تعبنا من تكرارها في المناهج التعليمية، فمنذ أن يدخل الطالب في المرحلة الابتدائية إلى أن يتخرّج ويدخل الجامعة وهذه القضية تتكرر على مسمعه، وهي مسألة خلافية بين المدارس المذهبية.

وكذلك مسائل «الاستجمار والاستنجاء» وأمثالها التي لم تعد مورد عمل وابتلاء وهي من المسائل الجانبية.

إننا مع تعليم الدين في المناهج الدراسية، ونريد من أبنائنا أن يتربّوا على التديّن، ولكنّنا نريد الاهتمام بالأولويات من مسائل هذا الدين، ونريد تقليص دائرة التركيز على الخلافيات، أو أن تطرح ضمن ثقافة التسامح وقبول التنوّع وتعدد الآراء المذهبية، حتى لا يتعبأ الناس على بعضهم بعضًا بسببها، وحتّى لا يشحن المواطنون على بعضهم بعضًا.

إننا بحاجة إلى التركيز على القضايا السلوكية، ومن جملتها ثقافة إدارة الحياة العائلية،

ونحتاج إلى خطابات وأحاديث على المنبر وفي المساجد وفي مختلف المناسبات، حتّى تصبح هذه الثقافة حاضرة في العقول والنفوس.

الثانية: وجود مؤسسات اجتماعية تهتمّ بالأسرة

نحتاج إلى مؤسسات اجتماعية تهتمّ بهذا الأمر، الآن ما عاد مجديًا أن نقول: «اتقوا اللّه يا مؤمنين، وافعلوا كذا وكذا ...» فهذا لا يكفي لحل المشاكل، لأن هناك ما يحتاج إلى حلول عملية.

البعض عندهم حماس عندما يرون بعض الظواهر السلبية فيتصلون ببعض المحاضرين والخطباء ويطلبون منهم الحديث حول هذه المظاهر.

ولكن مجرّد تناول الخطيب للمشكلة لا يحلّها، فهذا التناول ينبغي أن يكون دافعًا لحلول عملية، نريد أن يصل مجتمعنا إلى مستوى حينما يستمع الخطاب الديني ويجد فيه طرحًا لبعض المقترحات والحلول يترجم ذلك إلى مبادرات لتفعيل هذه المقترحات والحلول. ويجب أن لا نعيش أوهامًا بخصوص هذه المسألة، حيث إن البعض يشعر بالسعادة عندما يجد الخطيب الحسيني قد تحدّث عن بعض المظاهر السلوكية السلبية، ويذهب لمنزله وهو يشعر بالراحة والاطمئنان، وكأن المشكلة قد حُلَّت وانتهت من ساعتها.

إن مجرّد الموعظة والإرشاد العام لا يعالج المشاكل الاجتماعية، فنحن بحاجة إلى حلول عملية.

وأظن أن من أهم نقاط الضعف التي يعاني منها مجتمعنا هو التلكُّؤ في المبادرات العملية، وبعض المستمعين لا يحبّ تكرار بعض المواضيع والمشاكل على المنبر، ولكن في بعض الأحيان يكون هذا التكرار مبرّرًا، لأنّه عندما طرح أول الأمر لم يقابل ذلك مبادرة عملية تخفف من مظاهره السلبية.

المجتمعات الأخرى القريبة منّا تعجّ بالمؤسسات في مختلف المجالات، فهناك جمعيات لمكافحة التدخين، وأخرى لحماية الأسرة، وثالثة لتنمية الطفل، ورابعة نسائية وغيرها، وهذا في مجتمعات قريبة منا، في الدمام والخبر والرياض وغيرها من المدن حولنا.

ومما يؤسف له أننا في مجتمعنا ما زالت مصارف الخير عندنا منحصرة في بناء أو تجديد المساجد والحسينيات، وإقامة مآتم العزاء، وهي أمور مطلوبة وينبغي أن تكون محلّ اهتمام، ولكن هذه وحدها لا تكفي، فهناك مشاكل حقيقية لا بدَّ من معالجتها.

ومن الأمثلة على ذلك ما قرأته عن مشروع «ابن باز الخيري لتيسير الزواج»، وهو مشروع ضخم في الرياض، يعمل فيه المئات إن لم يكن الآلاف، وله وحدات متنوعة لمعالجة المشاكل الأسرية.

قرأت أحد إصدارات هذا المشروع، الذي كان بعنوان: «معالجة المشاكل الزوجية عبر الهاتف»، يوضح كيف استطاع القائمون على هذا المشروع حلّ كثير من المشاكل التي تحصل في العلاقات الزوجية عن طريق الهاتف، حيث يقدمون لمن يتّصل بهم بعض الحلول والنصائح ويتواصلون معهم، وإذا كان يتطلّب حلّ المشكلة أن تحول إلى جهة معينة يقومون بذلك، وفي هذا الكتاب نصائح ووسائل وأساليب للتعامل مع هذا الموضوع من خلال التجارب التي قام بها هذا المشروع.

وتتوجّه الجمعيات الخيرية في المنطقة ـ بدفع وتشجيع من وزارة الشؤون الاجتماعية ـ لأن يكون هناك مراكز لحماية الأسرة تحت مظلّة هذه الجمعيات.

لكنّ هذه اللجان في حاجة إلى تفعيل وإلى دعم مادّي وكوادر وكفاءات، وكذلك بحاجة إلى من يبادر بتفعيلها، وعلى علماء الدين أن يقوموا بدورهم في هذا المجال، ويبادروا إلى تبني مثل هذه المؤسسات، ودعمها والتعاون مع القائمين عليها، لأن من مسؤوليات عالم الدين دعم مثل هذه الجهود.

كما أننا بحاجة إلى مؤسسات كثيرة تخفف من المشاكل الأسرية والاجتماعية، من

قبيل لجان لتشجيع الزواج، ولجان التعريف بين الزوجين، فهناك فتيات عوانس كثر في المجتمع، وفي المقابل هناك من الشباب من يبحث عن زوجة، ولكن لا يوجد واسطة تعرّف الطرفين إلى بعضهما البعض، وضمن ضوابط وقيود تكفل عدم انحراف هدف مثل هذه اللجان.

«النساء شقائق الرجال» ..

وقبل أن أنهي الحديث لا بأس بالإشارة إلى بعض النصوص التي تتحدّث عن الحقوق المتبادلة وعن احترام حق الزوج واحترام حق الزوجة، فالروايات في هذا كثيرة، نقتصر على البعض منها:

- ورد في حديث عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «مَنْ كان له امرأة تؤذيه لم يقبل اللّه صلاتها ولا حسنة من عملها حتى تعينه وترضيه وإن صامت الدهر... وعلى الرجل مثل ذلك الوزر إذا كان لها مؤذيًا ظالمًا»[١].
- وعنه ﷺ أنه عندما أُلْحِدَ سعد بن معاذ في قبره قال للمسلمين: «إن سعدًا قد أصابته ضمّة»، فسأل المسلمون: «يا رسول اللّه، لقد رأيناك صنعت على سعد ما لم تصنع على أحد؟»، قال ﷺ: «إنه كان في خلقه مع أهله سوء»[٢].
- وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «لا يكن أهلك أشقى الناس بك»[٣].
- وعن الرسول ﷺ أنه قال: «فأي رجل لطم امرأته لطمة، أمر اللّه عز وجل مالك خازن النيران فيلطمه على حر وجهه سبعين لطمة في نار جهنّم»[٤].
- وعنه ﷺ: «أيما رجل ضرب امرأته فوق ثلاث أقامه اللّه يوم القيامة على رؤوس

(١) جامع أحاديث الشيعة. ج٢٥، ص٣٣٠، حديث٣٧٢١٨..

(٢) أمالي الشيخ الصدوق، فضل الصلاة في مسجد الكوفة، ص ٤٦٩.

(٣) نهج البلاغة كتاب٣١ من وصية له عليه السلام للحسن بن علي كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفين.

(٤) مستدرك الوسائل. ص٢٥٠، حديث١٦٦١٩.

الخلائق فيفضحه فضيحة ينظر إليها الأولون والآخرون»[١].

وفي هذا السياق قُدِّمَ سؤال للمرجع الراحل السيد الخوئي ﷺ مفاده: «هل رفع الصوت على الزوجة في مقام حدوث أمر لا يعجب الزوج يكون من باب أذية المؤمن المحرمة؟» فأجاب ﷺ: «ما علم أنه يؤذيها لا يكون من المعاشرة بالمعروف»[٢].

- كما أن الآية الكريمة تقول: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، ومن الجدير أن أشير إلى أن في القرآن الكريم ١٢ آية قرآنية تتحدّث عن معاشرة المرأة بالمعروف أو تؤكّد على المعروف في العلاقات الزوجية، من ذلك الآية القرآنية الكريمة: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.].

وعندما نرجع للآية الكريمة نجد الفقرة الثانية منها تقول: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، وهذا يعني أن اللّه تعالى يطلب من الإنسان في حال وجد من زوجته ما يكره أن يصبر على ذلك، ففي ذلك خير كثير، وهذا الخير الكثير هو:

١. ثواب اللّه تعالى

حيث ورد عن رسول اللّه ﷺ: «من صبر على سوء خلق امرأة واحتسبه أعطاه اللّه بكل مرة يصبر عليها من الثواب ما أعطي أيوب على بلائه»[٣].

وفي رواية أخرى عنه ﷺ: «ألا ومن صبر على خلق امرأة سيئة الخلق واحتسب في

---

(١) مستدرك الوسائل. ص٢٥٠، حديث١٦٦٢١.

(٢) أبو القاسم الموسوي الخوئي. صراط النجاة، ج٢، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، (الكويت: مكتبة الفقيه)، ص٣٧٩، مسألة ١١٧٦.

(٣) بحار الأنوار. ج٧٣، ص٣٦٧.

ذلك الأجر أعطاه اللّه ثواب الشاكرين في الآخرة»[١].

٢. حماية الأبناء

فتفرّق الزوجين يؤثّر على وضع الأبناء النفسي والاجتماعي والسلوكي وتحصيلهم الدراسي وعلى تربيتهم بشكل عام، هذا في حال الطلاق والفراق، أما في حال لم يصبر الزوج على أذى زوجته وقام بأذيتها أو أن الأم لم تصبر على أذى زوجها وقامت بأذيته مقابل سوء خلقه، فإن ذلك له تأثير كبير على عواطف الأبناء، حيث يسقط عندهم الاحترام ويجرح المشاعر، بينما إذا صبر كل طرف على الآخر سيجعل اللّه في ذلك خيرًا كثيرًا على الأبناء.

(١) بحار الأنوار. ج١٠٠، ص٢٤٤.

المحتويات

عنوان المؤلف

المملكة العربية السعوية
ص.ب: ١٣٢٢ القطيف ٣١٩١١
هاتف: ٨٥٥٥٢١٠ ٣ ٩٦٦+
فاكس: ٨٥١٢٦٠٠ ٣ ٩٦٦+
الموقع على الإنترنت: **www.saffar.org**
البريد الألكتروني: **office@saffar.org**